مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

بهروز قمري

قافلة الإعدام

مذكّرات سجين في طهران

'كتاب لا ينسى'
إلياس خوري

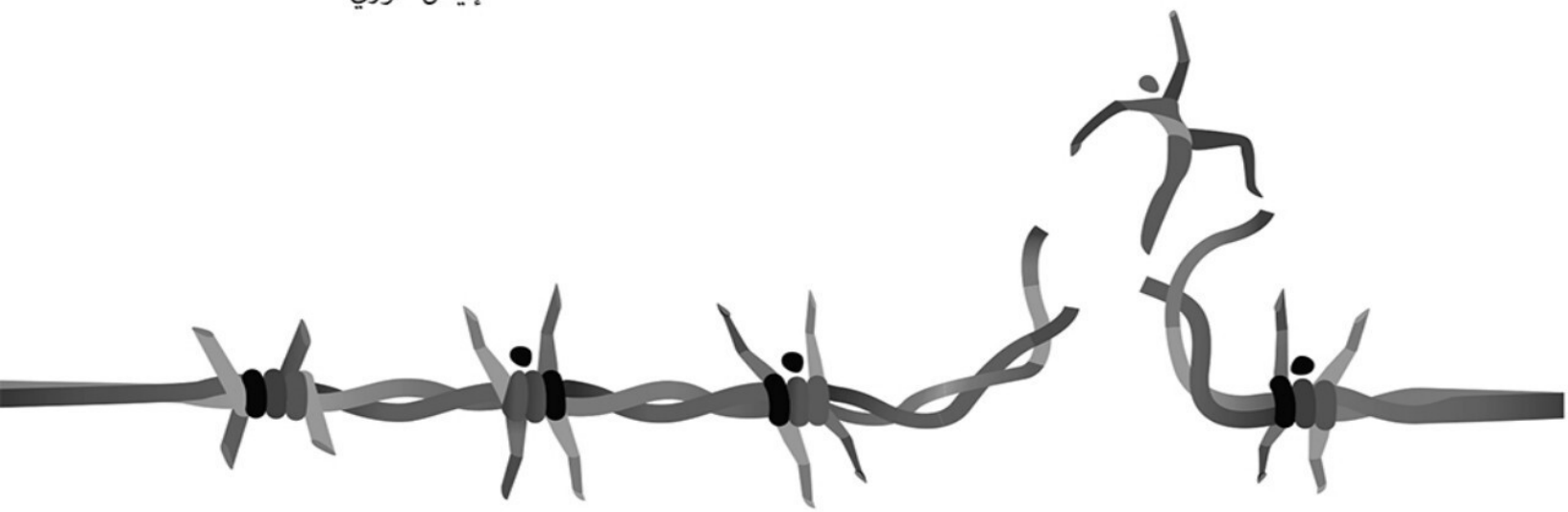

ترجمة
ريم طويل

دار الساقي

قافلة الإعدام

بهروز قمري

قافلة الإعدام

مذكّرات سجين في طهران

ترجمة

ريم طويل

دار الساقي

هذا الكتاب مُجازٌ لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاصٍ آخرين. إذا كنت مهتمّاً بمشاركة هذا الكتاب مع شخصٍ آخر، فالرجاء شراء نسخة إضافيّة لكل شخص. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشتره، أو إذا لم يُشترَ لاستخدامك الشخصي، فالرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لك لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

Original English-language edition published by OR Books, New York and London, in 2016 under the title Remembering Akbar: Inside the Iranian Revolution

Copyright © 2016 by Behrooz Ghamari

الطبعة العربية

©دار الساقي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الورقية الأولى، ٢٠٢٠

الطبعة الإلكترونية، ٢٠٢٠

ISBN-978-614-425-406-6

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب.: ٥٣٤٢/١١٣، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٩٦١، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٩٦١

e-mail: info@daralsaqi.com
يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com
تابعونا على

DarAlSaqi@

دار الساقي

Dar Al Saqi

إلى كلرخ

المقدمة

متُّ في السابعة والنصف من صباح 31 كانون الثاني/ ديسمبر 1984. لا أقول ذلك مجازاً، وإنما بالمعنى الحقيقي للوجود. في تلك اللحظة تماماً، وضعت قدماً في العالم الآخر مع توقيع متردّدٍ ذيَّل قرار الإفراج. أوضح لي الحارس أن الخطوط الضبابية التي لمحتها من تحت عصبة العينين كانت لإطلاق سراحٍ مشروط لظروف صحية. وكان يجب إعادة جسدي إلى السجن لإصدار القرار الرسمي. استغرق الأمر مني بضع سنوات لأدرك أنني متّ فعلاً في ذاك الصباح الباكر. لا علاقة لهذا بإثم النجاة ولا بثقل تفاهات الحياة. تركت خلفي النَّفْس التي عرفتها دون أي محاولة دنيوية لاسترجاعها.

يحدث الموت تدريجياً. يلتهم جزءاً صغيراً من الحياة كل مرة. بتوقيع إطلاق السراح ذاك، سلّمت ببساطة أنني بدّدت أجزاءً كثيرة من حياتي، أي تجاوزت العتبة. كان عليّ، بعد ثلاث سنوات قضيتها في زنزانة المحكومين بالإعدام، أن أغادر سجن إيفين السيئ السمعة في طهران مع جسد منهك بالسرطان. السجن الذي وقف قادة الثورة المبتهجون عند بواباته قبل بضع سنوات فقط، متعهدين تحويلَه إلى متحف يشهد على فظاعات الماضي. "في إيران"، صرحوا في ذاك المساء البارد من شباط/ فبراير 1979، "لن يكون هناك المزيد من السجناء السياسيين".

لم يكن هذا المقصود.

باتت الأصوات الصاخبة التي دعت في انسجام لإنهاء الملكية تعلو اليوم متنافرة. ادعى كل من الشيوعيين، والاشتراكيين، والتحرريين، والقوميين، والنساء، والعمال، وطلاب الجامعات، والأقليات الدينية والإثنية، وأيضاً موظفي الثورة الشباب، ورجال الدين الشديدي الحذر، بثقة مطلقة، أنهم يحملون المعنى الحقيقي للثورة. حوّل التعطش إلى السلطة الأصدقاء إلى أعداء، والثوار إلى موظفي أمن، والسجناء إلى محققين، وقادة المجتمع إلى جواسيس، وأفراد العصابات المدنيين إلى قتلة، والمعلمين إلى شرطة أخلاق، والطلاب إلى مخبرين، وكذلك المحادثات الودية إلى شجارات غير قابلة للحل؛ شهدنا بعيونٍ مترقبة جدران السجن تعلو وتزداد خلفها فظاعة الأعمال الوحشية.

"لن أقبل أي شروط لإطلاق سراحي"، قلت والكلمات تندفع بألم من حنجرتي الجافة.

"نذل!"، صفعني الحارس صفعة قوية على رأسي، "أنت ميت".

استأنفوا الهزل الذي بدؤوه الليلة السابقة.

قبل اثنتي عشرة ساعة، دخل اثنان من الحراس غرفة المستوصف التي تشاركتها مع محمد، السجين الآخر، وطلبوا مني جمع أغراضي. أصبحت عبارة "اجمع أغراضك" الأكثر إثارة للرعب في السنوات التي قضيتها في زنزانة المحكومين بالإعدام، وكانت تحمل معنىً واحداً عادةً.

قال أحد الحراس دون أن يحاول إخفاء ابتسامة الرضا عن النفس، التي علت وجهه. استدار وكرر كلمة "حر"، وهو يطلب من الحارس الآخر الاعتراف بعبقرية استخدامه المعنى المزدوج الذي تضمنته الكلمة.

"دخلتَ عمودياً، وستغادر أفقياً".

أراد أن يتأكد أنني ومحمد نقدّر لعبه على الكلام.

"لكنك ستخرج زاحفاً"، أضاف ضاحكاً، "مثل الحيوان الذي هو أنت".

وضعت الأشياء القليلة التي أملكها في حقيبة بنية صغيرة دون مشاركة الحراس. وضعتُ العصبة على عينيّ دون أن يطلب الحارس مني؛ كنت أعرف الروتين وتمنيت ألا أسمع صوته المزعج فقط. أخذاني إلى الردهة الأساسية التي تفضي إلى مكاتب النيابة العامة وطلبا مني أن أجلس هناك حتى يناديني أحدهم.

كان لدي حافزٌ أهم دفعني إلى وضع العصبة دون أن يُطلب مني ذلك. أردت أن أتأكد أنني استخدمت العصبة التي ارتديتها لسنتين، العصبة التي سحبت من وسطها بعض الخيوط لأتمكن من رؤية العالم الخارجي من خلالها، ولم يهم كم كان يبدو غامضاً.

تفحصت الردهة المزدحمة مع العلم أنني لم أكن الوحيد الذي بإمكانه الرؤية سراً من خلال العصبة. لمحني ماجد أولاً. شقّ طريقه بهدوء ووصل أخيراً إلى زاويتي.

"ما زلتَ حياً"، قال.

لم أكن متأكداً هل يسألني أو يخبرني فقط.

"يظن الجميع أنك مت".

كان ماجد في الثالثة عشرة عندما اعتُقل عام 1981. شهدتُ في المدة التي قضيناها معاً في زنزانة المحكومين بالإعدام تحوّل الخط الناعم فوق شفته العليا إلى شاربٍ حقيقي داكنٍ وخشن.

"الليلة هو الموعد، ماجد"، قلتُ له. ورغم أنني لم أكن أريد أن أبدو مثيراً للشفقة، فإن صوتي المرتجف كشف خلاف ذلك. "إنهم يعدّون حريتي"، كررتُ كلمات الحارس على نحو عفوي تقريباً.

أُعيدت محاكمتي للمرة الرابعة قبل بضعة أيام. أخبرني القاضي أن كل الخيارات استُنفدت وأن عقوبتي ستنفذ قريباً جداً. "ما لم"، قالها كفكرة لاحقة، "توافق على التراجع في العلن".

كنت مرهقاً من هذه الإنذارات، فأخبرته أنني ميتٌ بالفعل وأن تهديداته بلا معنى.

طلب مني القاضي أن أنزع عصبتي.

"حاج آغا!"، اعترض حارس قاعة المحكمة. كان ممنوعاً أن يرى السجناء وجوه القضاة والمحققين خوفاً من الانتقام.

"لا بأس"، طمأن القاضي الحارس، "لا علاقة لهذا بالبروتوكول".

طلب مني القاضي ثانيةً أن أزيل عصبتي. لا بد أنه فكر أيضاً أنني ميتٌ فعلاً وأن رؤية وجهه لن تسبب ضرراً.

"عندما تقف أمام خالقك يوم الحساب، سيسألك السؤال نفسه"، قال لي القاضي محذراً، "لماذا لم تتراجع؟ لقد مُنحت فرصاً كثيرة".

بدا وجهه متشنجاً رغم النبرة الهادئة والمهتمة. لم يكن وجهه يشبه أياً من الوجوه التي تخيلتها له. كان له لحية بنية كثيفة، وبشرة فاتحة، وعيون زرقاء غامقة تشي بأصوله الشمالية. كم كان غريباً أن يأتي قاضٍ متحجر القلب من شواطئ بحر قزوين. فكرت في أن عليّ أن أخبر أمي عنه في وقت ما، فهي على الدوام كانت تلوم جذور أبي الأذرية وتعتبرها سبباً لشخصيته العنيدة.

"الليلة هو الموعد، ماجد".

أخرجتُ بعض الأشغال اليدوية التي صنعتها بنفسي: مسبحتي صلاة مصنوعتين من نوى التمر – رغم أنني لم أكن أؤمن بالصلاة – وإطار صورة صغير، ملفوفين بورق.

"هذا كل ما أملك".

رفض أخذهم.

"ستكون بخير".

قال لي العبارة التي كانت شيئاً لطيفاً ليُقال.
"خُذها"، أصررت، وأخذها.
أعطاني، في المقابل، مجلد ديوان حافظ الثمين. "تذكر لياليا الشعرية؟"، همس وهو يدسّ الكتاب في حقيبتي. "اشرب"، قال وهو يذكرني كيف اعتدنا أن نثمل من قراءة ديوان حافظ.
أغلقت عينيّ وتمنيت أمنية. طلبتُ من حافظ في سري أن يخبرني بوضوح، عندما أفتح الكتاب وأنظر في مكان ما في المنتصف، ما الذي سيحدث لي، لكن ذلك كان طلباً كبيراً جداً، فالشاعر لا يتحدث بوضوحٍ أبداً. فتحت الكتاب مراراً وتكراراً دون جواب. قرأت أجمل الكلمات صفحة بعد صفحة، كلماتٍ تشابكت لهدف واحد هو استحضار عدد لا منتهٍ من الاحتمالات. لا أعرف لماذا وأنا لدي مثل هذا اليقين بمعرفة مصيري احتجتُ أن يتحدث حافظ لي بوضوح. لكنه رفض.
عندما نادوا باسمي، قبّلت الكتاب ووضعته قرب حقيبة ماجد الذي لم يستيقظ حتى من صوت صراخ الحارس الذي ناداني. لم أدرك أنه كانت قد مرت اثنتا عشرة ساعة تقريباً منذ بدأت قراءة الشعر.
هكذا مُتّ، بالخروج من عالمٍ لا يمكن تصوره، ودخول عالم مربك من التفاهات. تركت نفسي السابقة في مكان يوجد فقط في شروط مستحيلة.
حاولت لسنوات عدة، أن أفتح قناةً مع العالم الذي تركته خلفي، مع لحظة الموت، مع المزاج الذي سبقها، والرعب الذي ميزها. حاولتُ أن أصف تلك اللحظة المبهمة.
ما زلت أحاول إحياء اليوم الأخير من حياتي السابقة عشية رأس السنة من كل عام. آخذ إجازة من حاضري عند السابعة والنصف صباح 31 كانون الثاني/ يناير ولا أعود حتى تبدأ السنة الجديدة. كل 31 كانون الثاني/ يناير تولد قصة. أستمر في الكتابة لاثنتي عشرة ساعة، وهو تماماً عدد الساعات نفسه الذي قضيته أقرأ شعر حافظ في اليوم الأخير من حياتي السابقة. أكتب أحياناً خمس صفحات، أحياناً عشرين، وفي أوقات أخرى مجرد خمسة أسطر. لا أعرف أبداً ما الذي سينتج عندما أجلس لأكتب. أعرف فقط أنني يجب أن أترك جسدي يشعر ببرودة الأرض القاسية التي جلست عليها طوال تلك الساعات الاثنتي عشرة.

نصر الله

أحب أن أسافر في الصباح الباكر. تجعلني القيادة خلال هذه الساعات المبكرة أشعر بما يصفه أصدقائي المتدينون بأنه اللذة السامية للصلاة كل يوم قبل بزوغ الضوء، وتمنحني إحساساً بأنني الروح الوحيدة في هذا العالم، إضافة إلى الرغبة في تشارك هذا العالم مع الآخرين. يبدو شارع أيزنهاور ذو الحارات الستة مستسلماً جداً. تقف أشجاره العتيقة على الجانبين غافلةً عن الهواء البارد، رغم أنها عارية تماماً. أعرف أن إعطاء فعل قيادة السيارة المبتذل صفة روحية هو جموحٌ كبير. لكن هذا، نوعاً ما، التفسير الوحيد الذي يرِد إلى الذهن. الأمر غريب حين يقترن بحقيقة أنني لم أكن أبداً متديناً ولم أختبر أبداً ما يصفه لي الآخرون عن الروحانية. لكن لا بد أن يكون الأمر كذلك: الشعور بالفرق بين أن تكون حياً ببساطة، وبين الدعوة غير المفهومة إلى أن تكون كريماً. تلك هي المتعة المزدوجة للقيادة قبل الفجر. تشعر أن شارع أيزنهاور أُنشئ لك وحدك وأنك تريد أن تتشاركه مع الآخرين بدلاً من القتال لعبور كل إنش منه في ساعات الازدحام.

اليوم هو اليوم الأول في الاعتدال الربيعي: اثنتي عشرة ساعة نهاراً، اثنتي عشرة ساعة ليلاً... عدالة كونية واضحة. تعرفون الآن لماذا اخترت هذا اليوم تحديداً لرحلتنا (عليّ أن أعترف أنه بالإضافة إلى قضايا الروحانية والعدالة، السبب الأكثر دنيوية الذي دفعنا لنسافر في هذا الصباح الباكر هو الاستفادة من العطلة الوطنية التي تمتد سبعة أيام احتفالاً بالنوروز). أخبرت الجميع أني سأمرّ لاصطحابهم من منازلهم باستثناء حسان. فهو دوماً يتصرف بغرابة عندما يتعلق الأمر بمكان سكنه، لأنه يريد أن يخفي أصول عائلته التي تعود إلى الطبقة العاملة، أو لأنه ببساطة شخص كتوم.

الأول على القائمة هو السيد جيلاني. لا يمكنك أن تترك السيد جيلاني وراءك إذا كنت تخطط رحلة إلى جيلان، مسقط رأسه الواقع على الساحل الجنوبي لبحر قزوين. الآخرون لا يحبونه، وكذلك أنا، بسبب شخصيته البغيضة. إنه آلة لخلق الأعداء. يحول الأصدقاء إلى أعداء بعبارة بسيطة. يبرر تبلد مشاعره بالطريقة نفسها على الدوام. فكونه شاعراً، كما يظن نفسه، يجعله هذا شخصاً حساساً جداً. تعدُّ أبسط الخلافات عنده أفعالاً عدائية كبيرة. وإذا تسبب في الأذى للآخرين، يكون هذا لأنهم آذوه أولاً دون أن يدركوا ذلك. ليست السخرية الطريقة الوحيدة التي يبتدعها لجرح مشاعر الآخرين. فاحترافه الملاكمة جعل لكماته قوية جداً أيضاً. رأيته يفعل هذا. عندما كان شاباً، كان بطل ولاية جيلان للوزن الخفيف، لكنه اختار في النهاية العمل في الصحافة والأدب بدلاً من الحلبة. أقول دوماً للآخرين: حين تراه يلعب بشاربه الستاليني، هناك احتمال أنه سيؤذيك بكلماته. وعندما يفرك عضلات ذراعيه اللتين تحملان علامات التقدم في السن، الاحتمال هو أنك قريباً جداً ستكون ضحية لكمته اليمنى. الحق يقال: السيناريو الثاني نادراً ما حدث. أعرف أيضاً أنه يتصرف على نحو جيد عندما أكون في الجوار. يشعر بالألفة نحوي لأن ابنه كان زميلاً لي في الثانوية، وقد أعطاني هذا نوعاً ما ممراً خاصاً إلى عالم حبه الأبوي.

يجلس جيلاني في المقعد الأمامي للسيارة مع ابتسامة عريضة تكشف دون سرور عن أسنانه المتحللة بفعل الشراب والدخان والعدائية. "من التالي؟"، يقول وهو يغطي فمه بينما تفلت منه ضحكة.

يعيش محسن في الجوار. هو الأكثر جدية في مجموعتنا. أقول له دوماً إنه يذكرني بالأسد الذي يظهر في العلامة التجارية لأفلام Metro–Goldwyn–Mayer خاصة عندما يترك شعره الكثيف

مبعثراً حول رأسه. هو رجل قليل الكلام، خجول ومحترم. كانت تلك تجربتي مع العديد من الطلاب في جامعتنا الذين أتوا من مناطق لا تتحدث الفارسية. كانوا يحاولون أن يخفوا لهجتهم بتقليل كلامهم قدر الإمكان. بالطبع، تتحول اللهجة من كونها عائقاً إلى امتياز مهم في اللحظة التي يصبح فيها المتحدث بها سياسياً. كانت لغة العدالة والحرية تُحكى بلهجة الطبقة العاملة أو لهجات المناطق غير المركزية في عالمنا السياسي. كبر محسن وهو يتحدث الأذرية في أورمي، ولا تزال الفارسية، لغته التي درس بها، تسبب احمرار خديه القرمزيين أصلاً كلما تحدث بها. هو متشكك بعض الشيء في الفكرة الكلية لهذه الرحلة. طمأنته أنني سآخذه إلى أماكن في جيلان لم يكن بإمكانه أن يتخيل زيارتها.

نصر الله هو التالي في الطريق خارج المدينة. سنعرف عنه أكثر في ما بعد.

يقف حسان، الأصغر في المجموعة، على الجانب الغربي لميدان الحرية. ما زال الظلام مخيماً. ليس لدي فكرة كيف وصل إلى هنا من منطقة سكنه التي أعتقد أنها كانت حول محطة سكة الحديد الرئيسية عند الطرف الغربي للمدينة. يجب ألا يُخدع الشخص أبداً ببنيته الصغيرة، فهو قوي وعنيف. يدعو نفسه بسخرية بيريا، نسبة إلى الرئيس السيئ السمعة لـNKVD[1]، الذي نفذ حملة التطهير الكبرى في الاتحاد السوفياتي في أواخر الثلاثينيات. حسان رجل أفعال ولا يحب الأعمال غير المنجزة. لا تراه أبداً واقفاً دون حراك. حتى وهو ينتظرنا تحت الضوء الوامض كان يقفز إلى الأعلى والأسفل ليحارب البرد ويهدئ جسده القلق. يصعد السيارة وهو يصيح: "تأخرتم"، يُتبعها بضحكته المجلجلة المميزة. "هل أحضرتم كل اللوازم؟"، يؤكد حسان كلمة "اللوازم" لجعل رحلتنا تبدو أكثر مجازفة. "إذا كنت تقصد مقرمشاتي الغذائية، يجب أن تعرف أن المزاح في هذا الموضوع تجاوز الحد"، يصرخ السيد جيلاني في وجه حسان.

1 NKVD: المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية، جمعت بين أنشطة الشرطة والشرطة السرية في عهد ستالين. (الهوامش كافة من المترجم)

اندلعت المشاحنة في اللحظة التي ركب فيها الجميع. رد حسان الهجوم: "لا يهمني من تكون؛ نحن جميعاً متساوون هنا". لم أكن أريد أن نبدأ رحلتنا بشجار. هناك ما يكفي من كل شيء هنا. ركز فقط على الطريق وعلى شروق الشمس. أعرف هذه الطريق مثل زقاق في حيي. كل منعطف فيها، كل مخزن إلى جانبها، كل وادٍ أخضر تمر قربه إلى رشت، عاصمة الإقليم. إنه مكان مألوف. أردت أن نكون على الطريق قبل بزوغ الشمس لأنني أردت لنا جميعاً أن نرى ضباب الصباح يخيم على صخور الجبال المغطاة بالطحالب. أنزلوا النافذة واشتمّوا رائحة التراب الرطب. خذوا نفساً عميقاً، نفساً أعمق، خذوه من أنوفكم وأخرجوه من أفواهكم، اشعروا بالأكسجين النقي وبرائحة الجبال تملأ رئاتكم. هل ترون الغابات الكثيفة على يمينكم؟ "رائع"، يضيف جيلاني إلى شعرية المشهد.

أيها المطر
يا قطرات الندى
رسل البحر
بشائر الأحلام
أيتها الصخور
أيتها الجبال
علامات الأبدية
حاملو الألم
شهود الحصاد

لم يكن شِعر الدرجة الثالثة الذي ينظمه السيد جيلاني جزءاً من رحلتي فعلاً، لكننا كنا بحاجة إلى أن نساير هذا الرجل المهزوم. جميل، جميل! يوافق الجميع. "سيد جيلاني"، يصيح نصر الله، "هل خرجت بهذا للتو، أم أن هذه قصيدة قديمة أعادها المشهد إلى ذاكرتك؟"، "تعرف، نصر الله"، يشرح الشاعر الذي لم يقدَّر شعره، "الشعر بالنسبة إلي مثل التنفس. أنا أستنشق الحياة من حولي وأزفر الكلمات التي تعطي معنى لهذه التجارب الداخلية". هذا المكان هو تماماً حيث يحب السيد جيلاني أن يكون أمام جمهور لا يعرف شيئاً عن الشعر ومذهول بعبقرية كلماته. شكراً لك سيد جيلاني. شكراً لك لإضافة الروعة إلى عظمة هذه الطريق إلى بحر قزوين خاصتك بكلماتك المثيرة للمشاعر.

أحبُّ هذا المقهى قرب القمة. المحصور بين صخرتين عملاقتين. مع أفضل فطور في العالم كله. لا تدع المدخل الصغير مع النوافذ المتعرّقة يخدعك. إذا كنت تهتم بالأثاث الفاخر، أو الخدمة اللطيفة، هذا المكان ليس لك. لكنك تأتي إلى هنا من أجل عجة الجبن المدهشة. ما الذي يطعمونه لدجاجاتهم حتى تضع هذا البيض السماوي مع صفار مشع. بذاك الطعم الرائع؟ الجبن من القرية المجاورة. الخبز مخبوز هنا في الفرن الطيني في المقهى نفسه. الشاي يأتي من المزرعة التي تقع تماماً خلف هذا الجبل. تزرع الأعشاب وتجفف لتستخدم شتاءً كل عام في القرية نفسها. هذا هو سر هذه العجة. لا، ليس عليّ أن أقول أي شيء آخر حول فن إعداد هذه العجة. محسن، حسان، نصر الله، رجاء ادخلوا. سوف أحضر مقرمشات السيد جيلاني الخاصة فلا يتشنج لاحقاً.

"لم أكن أعرف كم كنت جائعاً"، يخرج محسن عن صمته.

"هيه، نصر الله"، يقول حسان بصوتٍ عالٍ، "ماذا تنتظر؟ يجب أن تأكل هذه وهي ساخنة تُحرق. يجب أن تحرق لسانك إن أردت أن تتذوق الطعم الحقيقي".

استغرقنا ثلاث ساعات إضافية قبل أن نصل إلى هدفنا الأساسي. أريد أن آخذكم إلى هذا الشاطئ البعيد حيث لم تطأ قدم سائح أبداً. أركن السيارة قرب كوخ صغير أعرف صاحبه منذ سنوات عدة. يشير إليه السكان المحليون ببساطة على أنه رجل الحفش. تقول الشائعات إن أباه تعلم إعداد كباب الحفش من جندي روسي عندما احتل السوفيات جيلان خلال الحرب العالمية الثانية. وهو تعلم ذلك من أبيه. ربما تتساءلون: ما الذي يمكن أن يكون تعلمه في وضع قطع من السمك على السيخ؟ لكن دعونا نفكر في هذا بعد أن تتذوقوا كبابكم. لا يكشف رجل الحفش أبداً عن مصدر حفشه، لكن هذا سر معلن أيضاً، فهو لديه علاقات مع العاملين في قسم الأسماك والحياة البرية، وهم يزودونه بالأسماك بعد أن يستخلصوا منها الكافيار. "انسَ الكباب، دعنا نتناول بعض الكافيار". يقول السيد جيلاني ولعابه يسيل.

"قد لا يكون جيداً لمعدتك"، يصده حسان، مستمراً في إزعاجه.

أريد منكم أن تقدروا العلم القائم خلف القطع السحرية عندما تنظرون إلى هذه المكعبات الرائعة من السمك. دعونا نرمي بطانياتنا على الشاطئ وننتظر حفشنا الحار جداً. فقط شم هذا، نصر الله، شمها، خذ قضمة ودع الطعم يأخذك إلى الغيوم. اركب الغيوم فوق بحر قزوين. فقط أغمض عينيك، وجرب ذلك.

"لا، لا"، يصر نصر الله، "الحفش ليس حلالاً". يرفض أن يجربها.

"ألم تسمع الأخبار، أخ نصر الله؟"، يسأل حسان بصوت هادئ على غير العادة.

"ألم تسمع عن الفتوى التي أطلقها الإمام الأسبوع الماضي؟".

"أسمع وألتزم كل كلمة يلفظها الإمام".

"إذاً، كيف لم تسمع أنه أعلن أن الحفش بالفعل له حراشف وأن تناوله حلال تماماً؟".
"لا أحب المزاح في هذه القضايا، سمك الحفش محرم منذ ظهور الإسلام".
"ليس بعد الآن، أخ نصر الله. رأى الإمام الحراشف وأعطاك الإذن لتستمتع بهذا الكباب".
ينظر نصر الله إليّ بفضول. "هل هذا صحيح؟"، يسألني.
ينتابني شعور بالرضا وأنا أرتدي رداء المحكم النهائي في هذه المسألة الدينية المطبخية.
"نعم"، أقول محاولاً أن أؤكد له أن حسان لا يحاول أن يسخر من قناعاته. "حلل الإمام تناول سمك الحفش الأسبوع الماضي".
قلت ذلك ولم أخبره عن الأشياء المحرمة التي ينقع بها رجل الحفش أسماكه، فلا حاجة إلى ذلك.
"الشيء الوحيد الذي لا أحبه في هذا هو الطريقة التي تقطر بها أكمامك"، تدخل محسن في الحديث. "امم، امم، طرية، طرية، طرية! هكذا يجب أن يكون السمك محترقاً من الخارج، طرياً من الداخل".
يسخر السيد جيلاني من محسن وهو يلعق أصابعه: "منذ متى أصبحت خبيراً؟ اسأل رجلاً من جيلان كيف يجب أن يكون مذاق السمك. حتى الصرصور لن يبقى حياً في بحيرتكم المالحة في أورمي".
يدرك الجميع الآن أنه ليس عليهم أن يأخذوا السيد جيلاني على محمل الجد.
"إذن، أين هي الأشياء الحقيقية؟"، يتابع جيلاني، "ألم تقولوا إنكم أحضرتم كل شيء؟ كيف يمكن تناول هذا الكباب دون السبب وراء الكباب؟".
أطلب من حسان أن يحضر زجاجة كبيرة من الفودكا من صندوق الثلج المخبأ في صندوق السيارة تحت الإطار الاحتياطي. يحضر الزجاجة ويضعها وسط حلقتنا. أسكب السمّ في خمس كؤوس شراب صغيرة وأقدمها إلى السيد جيلاني أولاً لأنه أكبر الرجال الذين يتناولون الشراب بيننا، ثم محسن، يليه حسان. في اللحظة التي أمد فيها يدي نحو نصر الله، يصفعني على ظهر يدي بغضب.
"لا، أرفض. سايرتكم في لعبة سمك الحفش، لكن مستحيل أن ألمس هذا الشراب القذر".
"لكن الإمام"، يحاول حسان ثانية، لكن نصر الله يمنعه من المضي في الأمر.
"تباً للإمام"، يقول مفاجئاً نفسه. "لا تقدم إلي هذا الهراء. قلت لي هذه رحلة إلى الساحل، ليس إلى الممنوع". ينهض واقفاً لكن ليس هناك مكان ليذهب إليه في الزنزانة المزدحمة.
أحاول تهدئته.
"اسمع نصر الله، هذه مجرد لعبة تخيل. لن نطلب منك أبداً أبداً أن تفعل شيئاً ضد معتقداتك".
"هذا هو الإغراء الذي تقدمه"، يجيب وهو مهتاج وغاضب الآن.
"لكن ليس هناك كباب، ولا فودكا، ولا سيارات، ولا شاطئ هنا".
"أنت تزرع بذرة وتظن أنني لا أفهم ما الذي ترمي إليه".
حسناً، لم يكن هذا جزءاً من الخطة. لقد خضنا رحلات عدة إلى كل أنحاء البلاد، ولم نختبر أبداً عراكاً من أجل جرعة متخيلة من الفودكا.
جاء نصر الله إلى زنزانتنا قبل بضعة أسابيع في منتصف الليل. أذكر وجهه المذعور عندما فتح الحارس الباب ودفعه إلى الزنزانة المزدحمة. لم يكن هناك إنش من الأرض ليخطو فوقه. كنا نتجمع في الوسط كلما فتحوا الباب في منتصف الليل، ما يجعل من غير الوارد إضافة أي روح أخرى إلى المساحة الضيقة. تدحرجت في منتصف المساحة لأتوقف فقط قرب قدمي نصر الله. "أين تريد أن تضعه؟"، سألت الحارس. بدا نصر الله، وأنا أنظر إليه من الأسفل مستلقياً على الأرض، أكبر حتى

من جسده العملاق. دفعه الحارس كأنه المسافر الأخير على متن قطار ينطلق في ساعة الازدحام وأغلق الباب قسراً.

"كم بقي من الوقت حتى تحين صلاة الفجر؟"، كان هذا أول سؤال تلفظ به نصر الله. وفي زنزانة اصطف فيها الشيوعيون من الجدار إلى الجدار، اصطدم سؤاله بالوجوه الناعسة للكفار وارتد دون جواب.

لم يكن إيجاد مكان لنصر الله في الزنزانة المزدحمة سهلاً. وقف هناك دون أن يحاول تمييز أين كان. اكتفى بمراقبتنا نتصارع لنحفر حفرة في الكتلة الصلبة من اللحم والعظم التي غطت كامل الأرض. جعل شعره الكثيف مع سالفيه القصيرين وجهه الشاب يبدو طفولياً. بدا متجمداً ومستعداً للانفجار بالبكاء في أي لحظة. الشيء الوحيد الذي أوحى أنه يدرك وجوده بالزنزانة كان لفظه اللاهث المتكرر لعبارة "شكراً لكم". عرفنا من حلاقته النظيفة أنه لم يقضِ وقتاً طويلاً في حجرات الضوء، كما يطلقون على غرف التحقيق في السجن، حيث يفتحون لك نافذة لترى الضوء بينما هم يضربون أسفل قدميك بأسلاك كهربائية غليظة. اعتُقل من المنزل، مع وقفة قصيرة من أجل الإجراءات، ثم إلى زنزانتنا. لكن لماذا إلى زنزانتنا؟ لا ينتمي رجل مهتم بصلاة الفجر إلى تجمع المدانين بالهرطقة هذا.

في اليوم الأول لانضمامه إلينا، فوّت صلاة الفجر. وفي اليوم الثاني عندما أتى آمر السجن إلى عنبرنا ليسجل بياناته، طلب منه أن ينقله إلى زنزانة أخرى. "أنا لا أنتمي إلى هذا المكان"، قال متوسلاً.

"لا أحد كذلك"، قال آمر السجن ساخراً. "تهمتك؟"، تابع ملء استمارته.

"أنا بريء".

"بريء من ماذا؟".

"لا أعرف لماذا اعتقلت".

"ليس لدي وقت لهذا الهراء، يمكنني أن أحصل على جميع المعلومات من المكتب".

"أنا أعمل لمصلحة لجنة حماية الإمام".

"إذاً، كنت جاسوساً؟".

"لا، أنا محاسب موثوق في فرع غيشا".

"ليس لدي وقت لهذه اللعبة اللعينة"، ضربه آمر السجن بقوة بحافظة الأوراق، "لماذا اعتقلت؟ لا تحدثني بكلام فارغ".

"جاؤوا من أجل أختي. لم تكن في المنزل فأخذوني. لا يمكنني فعل شيء لأختي. لم أرها منذ أشهر". حاول أن يحضر أكبر كم من المعلومات بنفَسٍ واحد. لم يكن يدرك أن هذه المحادثة لا أهمية لها تقريباً، ولا تؤثر في مصيره في السجن.

"من هي؟".

"تقصد أنك تريد أن تعرف اسم أختي؟".

"نعم، لأنني أريد أن أرسل خطّاباً إلى منزلك وأتزوج العاهرة. أقسم بالله أنني سأكسر رقبتك اللعينة إذا استمررت في العبث معي".

ذهبت لإنقاذ نصر الله. كان صبر الحارس القليل على وشك أن ينفد. "إلى أي منظمة قالوا إن أختك تنتمي؟"، سألت نصر الله، مساعداً الحارس على ملء استمارته. "مجموعة المقاتلين

المسلحين الفدائيين"، قال متردداً. بدا محرجاً من ناحية أخته، الوحيدة في عائلتها التي هجرت دينها وأصبحت مقاتلة شيوعية تسعى لإسقاط الحكومة.

"ستتذكر قريباً أين هي أختك، أيها الجاسوس القذر". قال آمر السجن، ثم طلب من أحد الحراس أن يغلق الباب.

أملت أن نصر الله أدرك في تلك اللحظة التي وثقت علاقتي به فيها أن التعاطف لم يكن غريباً عن الكفار. أخذت كرة صغيرة من القطن من صندوق الإسعافات الأولية المؤقت ونظفت الجرح الصغير على خده الذي خلّفه الاعتداء بحافظة الأوراق. أول شيء قاله بعد أن رأى آثار الدماء على القطن: "آه، دم، أنا بحاجة إلى وضوء جديد من أجل صلاتي".

لا يمكنك أن تزيّف ذلك. هو رجل مؤمن حقاً، قلت لنفسي.

لا أريد أن يفقد نصر الله ثقته فينا. بعد حادثة الشاطئ، أعتذر وأقول له إن الإمام فعلاً حلل سمك الحفش، لكنني لم أظن أنه يمكن أن يعتبر جرعة الفودكا المتخيلة محاولة لإغوائه بارتكاب خطيئة حقيقية.

"آسف، نصر الله. نحن فقط أردنا أن تستمتع بوقتك، كما يفعل الأصدقاء. أعرف أنك تشعر أنهم يضعونك في هذه الزنزانة ويجبرونك على تنفس هواء ملوث. أفهم ذلك".

ينظر إليّ بعيون دامعة. "إنه خطأ أختي"، يقول، "هي..."، يتوقف ويغير اتجاه جملته. "هي أختي وواجبي المقدس أن أحبها. لا، هذا ليس واجباً، أنا فعلاً أحبها، رغم أنني لم أفهم أبداً لماذا غدرت بنا بهذا الشكل. تعرف، كانت في السابعة عشرة فقط حين قامت الثورة. صحبتها إلى كل المظاهرات، علمتها كيف تحب الإمام والثورة. ثم تأتي في أحد الأيام وتخبرني أنها فدائية. كل هذه السنوات أحميها من العيون الشهوانية للفتيان في الجوار، وفقدتها في أفكار الشيوعيين الشريرة".

"تظن أننا أشرار، نصر الله؟".

"لا ليس ذلك ما أقوله، هي جزء من عائلتي. أنا لا أعرف عائلتك. أنت شخص طيب. وأنا أصلي لله أن يغفر لك خطاياك في هذا العالم، إن كان لديك خطايا".

يفتح الحارس الباب ليعلن استراحة الحمام السريعة التي تستمر خمس عشرة دقيقة.

"نصر الله، يمكنك أن تغسل كل الفودكا التي لمستها الآن وتطهر نفسك من أجل صلاة العشاء".

"أفهم الفرق بين الواقع والخيال"، يقول لي مطمئناً، لكن غضبه السابق كشف قصة مختلفة.

يعرف الحراس أنه مسموح لنصر الله أن يبقى بعيداً عن الكفار القذرين خلال الاستحمام. يمكن نوعاً ما تبرير التلامس الجاف مع شخص غير نظيف، لكن التلامس الرطب يعقد الأشياء. يبقى نصر الله بعيداً حتى تنتهي الدقائق الخمس عشرة المخصصة لمئة شخص ثم يحصل على دقيقة كاملة إضافية بمفرده بينما يعود الآخرون إلى الزنزانة. القاعدة الآن ألا يلمس أحد نصر الله خلال الاستحمام وحين يعود إلى الزنزانة لأن وضوءه يفسد بلمس الكفار. يمد ذراعيه بعيداً عن جسده ويسير بحذر كبير نحو الزنزانة. يبدو سعيداً جداً بعد وضوء منعش. يدخل ويقف متجهاً نحو مكة ليصلي لله من أجل شيء لا أعرفه، ربما من أجل أن تبقى أخته بأمان، وربما من أجل سلامة عقله في غابة الفظاعات والقذارات هذه. ربما، من يعلم، من أجلنا، نحن أصدقاءه الجدد غير المتوقعين الذين يأخذونه إلى أماكن غير متوقعة لاختبار إيمانه مقابل ما يراه إغراءات حقيقية.

قبل أن يكمل صلاته، يأتي الحارس لاصطحابه. أخبر الحارس أنه يصلي. وبعد الصلاة، أخبر نصر الله أنهم سيأخذونه إلى التحقيق. فتختفي كل علامات اللمسة المقدسة من وجهه. يعود الحارس

في غضون عشر دقائق قصيرة ويأخذه بعيداً. ألاحظ للمرة الأولى كم كانت ساقاه نحيلتان بالنسبة إلى بدنه الكبير المستدير.

يعود بعد ساعتين أو ثلاث، قبل أن نتناول طعام العشاء. يفتح الباب وينزع عصبة عينيه ويسجد فوق الأرض. يصرخ الحارس خلفه أنه يجب أن يجمع أغراضه خلال دقيقتين وإلا سيكون عليه البقاء هنا ليلة أخرى.

"شكراً لله، نصر الله، أنت حر!".

يبقى دون حراك. يغلق الحارس الباب.

ينهار نصر الله على الأرض. أُحضر منشفة مبللة لأمسح جبينه وراحتي كفيه. ويبدأ هو النشيج.

"إنها رطبة؟ نصر الله، هل بإمكاني فعل ذلك؟ هل هذا جيد؟".

لا يسمعني، يتنهد فقط.

"أنت حر فعلاً"، أؤكد له دون أن أكون واثقاً مما أقول.

يتجمع الجميع حوله.

"لم أكن أعرف أنك أحببتنا كل هذا، سنكون بخير، لا تقلق من أجلنا"، أقول في محاولة عقيمة لتهدئته.

"طلبوا مني أن أتعرف إليها"، يقول باكياً.

"هل اعتقلوها؟ أنا آسف جداً".

"إنها ميتة. رأيت جسدها مشوهاً. فجّرت نفسها لتتجنب الاعتقال. هذا ما قالوه لي".

أُطلق سراح نصر الله بعد بضع دقائق.

أكبر

"آه، بالمناسبة"، قال محققي دون مبالاة وهو في طريقه إلى خارج الغرفة، "اسمك المستعار هو أكبر".

جمدت في مكاني فوق كرسي الصف مقابل الجدار في الزاوية. أغلق الباب بهدوء وأخذ معه آخر ما تبقى من الهواء الفاسد في الغرفة.

إنهم يعرفون.

تحدثنا لأكثر من ساعتين عن آرائنا في الثورة. قال لي كم كان محبَطاً من تحولات الأحداث بعدها. وحاولت أن أؤكد له أن كل الثورات تواجه التحديات نفسها.

"ليس عليك أن تلوم نفسك"، قلت له مواسياً، "لا يمكنك أن تتحكم بكل شيء. ستُحلّ الأشياء في النهاية".

اختبرت عليه أفضل عبارة متوفرة في الغرفة الصغيرة التي ليس فيها نوافذ.

"لكن لماذا ناقشت كل قرار أصدره الإمام في السنتين الأخيرتين؟"، سألني محاولاً مسايرتي، "أعرف أن أخطاءً ارتكبت، لكن ألا تظن أنك يجب أن تتحلى بمزيدٍ من الصبر؟".

منعه صوته الفتيّ أن يستأنف الدور الأبوي الذي كان يناضل لإظهاره.

"نعم"، اعترفت، "لكننا لم نستطع آنذاك تقدير حكمة الإمام في تعيين رئيس للوزراء اعترف بضعفه في عرض قضيتنا ضد الإمبريالية. أردنا للثورة أن تتقدم وتستمر للأمام وتزيل كل بقايا النظام القديم وداعميه الغربيين".

"ماذا كانت حكمة الإمام؟"، ضغط عليّ لأضيف شيئاً إلى تلميحي الخالي من التعاطف.

أجبت بسرعة كأنني كنت مدرّباً على المشهد من قبل تقريباً: "ألا تظن أنه أراد أن يكشف عيوب التحرريين بتعيين واحدٍ منهم في موقع سلطة؟ أرادهم أن يكشفوا ضعفهم بأنفسهم. وذلك ما حدث فعلاً. لكننا نستطيع أن نقدر بصيرة الإمام. كانت إستراتيجية ذكية، أليس كذلك؟".

"لا! أظن أن الإمام ارتكب خطأ سيئاً وأعاق الثورة دون مبرر واضح. كل هذه المشكلات التي لدينا، الحرب اللعينة مع العراق والتعامل مع أعداء الثورة، نتجت كلها من الخطأ الأول".

"لكن، هل كان هناك بديل؟ لا أظن أن الحرب لها أي علاقة بقرار الإمام. أراد العالم كله أن يحتوي الثورة واستخدموا صدام حسين لتنفيذ ذلك المخطط. لا أظن أنه كان مهمّاً من هو الرئيس أو رئيس الوزراء في ذاك الوقت. الحرب كانت اعتداءً على الثورة...".

تابعنا ذلك الحوار السخيف: محققي ينتقد الإمام وأنا أحاول أن أقنعه بحكمة الإمام الخفيّة.

"ترى"، ختم المحقق وهو يبدو ودوداً جداً بصوت لطيف جداً يوحي بالصدق، "هذا ما نحتاجه: حوار جيد!".

"نعم، بالطبع"، أقول موافقاً. لم تكن "حواراتنا" في الحقيقة لتبدو أكثر ودية من النقاشات الداخلية الحامية التي اعتدنا إجراءها في منظمتي.

بقينا نختبر الحدود بين المحقق والمستجوب. واجهت الجدار بينما سار هو جيئة وذهاباً خلفي. كانت تلك هي العلامة الوحيدة غير القابلة للجدل التي وضعت كلاً منا في مكانه الفعلي.

اعتُقلت قبل ثلاثة أشهر، في أيلول/ سبتمبر 1981، ومررت بأسبوع قاسٍ من الاستجواب في سجن إيفين. عنت نهاية التحقيق في ذاك الوقت شيئاً من اثنين: إما أنهم ظنوا أنك كنت مذنباً لا يمكن

تخليصك وتستحق أن تُعدم، وإما أنك كنت تافهاً ويجب أن تبقى في السجن حتى إشعار آخر. اعتُبرت من الفئة الثانية رغم أن ذلك أصاب غروري بالأذى. لم يكن من الجيد أبداً أن تُعامل كتافه. بقيت أسراري معي رغم ضربات السوط.

انتظرت بضعة أيام في ردهات غرف التحقيق قبل نقلي إلى زنزانة. جلست على أرض باردة قرب الباب الذي فتح على زنزانات من ستة فروع مقسمة من أجل "الكفرة". قسمت عصبة العينين الإلزامية عالمي بخط مستقيم، في الأعلى ظلام كليّ وفي الأسفل بحرٌ من الأقدام: أقدام السجناء المتآكلة والمهشمة وأقدام الحراس مع الأحذية العسكرية. نصحني شاب كانت قدمه ملتهبة وانتشرت عدواها إلى سيقانه ألا أتركهم يضعوني في زنزانة "المصابين"؛ "ستموت من العدوى هناك". كيف يفترض بي ألا أدعهم يأخذوني إلى أي مكان؟

أُرسلت إلى الزنزانة رقم 6، في الطابق السفلي من العنبر رقم 2 ذي الطابقين. عندما نادى الحارس اسمي بعد ثلاثة أشهر وأتبعه بعبارة "مع كل أغراضك"، ملأت صيحات الفرح بالخلاص زنزانتي. أرشدني كاك رضا، المهرّب الكردي، كيف أعبر الحدود إلى تركيا من جبال كردستان. وقف فرج على مسافة مني صامتاً يلعب بشاربه الطويل. كان قلقاً من أن حكم الإعدام سينفذ فيه بعد أقل من عام. عرفته باسم فريبرز ما قبل الثورة. لم تتكشف شخصيته السياسية الحقيقية إلا في السجن.

همس السيد حساني، عضو اتحاد الخياطين، في أذني بعنوان متجره وبرسالة إلى زوجته. كان يعرف خالي حسين، صانع الأحذية، من بعيد. واعتقد أن معرفته بخالي خلقت رابطاً خاصاً بيننا في الزنزانة المزدحمة بالغرباء. لم أقل له شيئاً عن خالي أبداً، فلم يكن هناك الكثير ليحكى عنه. بقيت حياة الخال حسين غامضة في معظمها، ليس للآخرين فقط، وإنما له أيضاً.

الخال حسين

"أعلنوا الأحكام العرفية!"، صاح الخال حسين وهو يسرع في الفناء. شعره أشعث وأكثف من العادة. طغت جرعة الغضب والذعر على ألوان وجهه.

"إنهم يقتلون الناس في الشوارع!".

عاد إلى الخارج ليتأكد أنه أقفل دراجته النارية الفضية.

"أعلنوا الأحكام العرفية!"، كرر وهو يدخل ثانيةً، "لا يمكن لأحد أن يبقى في الخارج بعد التاسعة".

حكّ رأسه بأصابعه القصيرة البدينة بعصبية.

"كيف يفترض بنا أن نلتقي في الليالي؟"، غمغم على نحو لا إرادي تقريباً غافلاً عن الآخرين الذين كانوا مهتمين بسماع المزيد عن الكارثة التي تجول أفق الشوارع، "لا يمكننا أن نبدأ اللقاءات قبل الظلام، هذا مستحيل. الناس لديها عمل تقوم به. يجب أن نجتمع في مكان ما للتحدث عن أعمالنا، حيواتنا البائسة، حاجاتنا اللعينة. ماذا يفعل هؤلاء الأوغاد؟ لا يمكننا أن نبقى بهذا الوضع!".

لكم الحائط كعادته عندما يغلب غضبه على إحساسه بالألم. "سيدمرون اتحاد صانعي الأحذية!".

عاد إلى الخارج، أدار دراجته النارية واختفى، بينما أطلقت والدتي صرخة خافتة.

كان هذا يوم جمعة من عام 1978، في آخر صيف طويل من الاضطرابات، شهدت فيه المدينة أكبر مظاهرات في تاريخها. خرج الملايين للاحتجاج الأسبوع الماضي في العاصمة والمدن الأخرى، الكبيرة والصغيرة على امتداد البلاد. قبل 8 أيلول/ سبتمبر، الجمعة السوداء، جرت المسيرات في جو احتفالي. عبّرت الجموع عن رسائلها القوية بالورود والابتسامات. لكن تلك الجمعة غيرت كل شيء. قُتل المئات، وجرح الآلاف، وتحول الملايين إلى متطرفين، وأدرك الشاه أن عصره وصل إلى النهاية.

لم يكن الخال حسين رجلاً سياسياً. كان صانع أحذية، صانعاً جيداً للأحذية. لم يكن يهتم بالاتحاد، أو العمال الآخرين، أو الملكية، أو الاشتراكية. كان الشراب هو الشيء الوحيد في هذا العالم الذي يثيره إلى درجة تكفي لجعله يلكم الجدار، لأنه كان مكثراً منه، أو لأنه يفتقده. لا أحد يعرف عمّ كان يتكلم أو ما الذي دار في ذهنه بينما يجلس في حانة يشرب مع رفاقه صانعي الأحذية الذين يحملون جميعهم بطاقة عضوية في الاتحاد. جعل وجهه المليء بآثار البثور مظهره غير متعاطف، رغم أنه حين يبتسم، وهو ما لم يكن نادر الحدوث على الإطلاق، كانت أسنانه الأمامية المعوجة تعطيه بساطة جذابة، الأمر الذي يمكن أن يجعل الشخص يتغلب بسهولة على علامات الطفولة المهملة على وجهه.

كان إهمال الطفولة حاداً جداً في حالة الخال حسين. عندما توفيت أمه وهي في السادسة والعشرين، كان قد احتفل للتو بعيد ميلاده الأول. في الواقع، لا أحد يعرف متى ولد تماماً، أو لماذا وجب الاحتفال في ذلك اليوم. بدلاً من البكاء على وفاة زوجته أو الحزن لأن الفتى أصبح بلا أم في عمر السنة، حمل أبوه عروساً جديدة إلى المنزل مباشرة بعد الوفاة، لتنجب المزيد من الإخوة والأخوات لأمي وحسين وشقيقهما. أصبح المنزل الجديد مزدحماً بسرعة بالوافدين الجدد، ولذلك قرر حسين، وهو فتى في التاسعة، أن الوقت حان ليبدأ الحياة بمفرده. هرب.

عندما أخذته أمي في رعايتها، تأكد أبي أن حسين لن يكبر دون أن يتعلم مهنة، وهكذا أصبح حسين صانع أحذية.

"أدركت أنني أصبحت رجلاً حقيقياً لأول مرة"، اعتاد أن يتباهى، "عندما جرحت إصبعي بالسكين الحاد جداً الذي نستخدمه لقطع الجلد في ورشة الأسطى. فعندما تدفق الدم من إصبعي، أمسك "الأُسطى" يدي ووضعها في علبة اللاصق الموضوعة قرب مقعده".

هناك "أُسطى" في حياة كل صانع أحذية علّمه أن اللاصق يجب أن يعالج جروحه وأن دمه يجعل اللاصق قوياً وسميكاً. حدّد التغلب على الخوف من السكين عبور صانع الأحذية إلى الرجولة.

لكن حالما بلغ الخال حسين السادسة عشرة، كان عليه أن ينتقل، فهو لم يستطع كرجل أن يتحمل العيش في بيت أخته. اتجه غرباً قدر ما استطاع قبل أن يصل إلى الحدود. وعبر شبكة من صانعي الأحذية، أرسل رسائل عرضية إلى شقيقه الأكبر، صانع الأحذية الآخر الذي تزوج في الثامنة عشرة، وكان معروفاً في النقابة بنظافة عمله وبراعته في إخفاء الدرزة. لم يكن هناك صور للخال حسين الذي كان قصيراً ونحيلاً في منتصف العمر، لنعرف كيف بدا وهو شاب. كان معرّضاً لنزوات سادته، ومثل كل الصنّاع الآخرين، نام في الورشة دون أن يكون هناك من يعتني به في البلدة الغريبة.

عندما سمعنا أن عمله كان مزدهراً في الجنوب، يصنع الأحذية لشيوخ العرب الأثرياء وللمهندسين الأجانب الذين عملوا في حقول النفط، قرر والداي زيارته، فالصغار بحاجة أن يعرفوا أن لديهم الخال حسين الناجح رغم غيابه. كان الجنوب عالماً آخر: مأوى لآلاف العمال الأجانب ومديريهم، ولمهندسي النفط والمستثمرين الذين تسوّقوا من المتاجر هناك، وللأزواج الشباب يجلسون في المقاهي الفاخرة، ولمتاجر الأحذية مثل متجر الخال حسين، والنوادي الليلية التي تلبي نزوات كل شخص. عالمٌ مثاليّ لخيال ذكرٍ عن حياة عابرة. لم يبدُ مثل أي جزء آخر من البلاد. شعر الخال حسين أنه في منزله تماماً.

لكن الوقت حان لإحضاره إلى منزله الحقيقي، قرب العائلة. كان في الخامسة والثلاثين، أعزب، معروفاً جيداً في النقابة، لكنه يذكر كغريب دوماً. حتى بالنسبة إلى أخيه وأخته، وإلى أبناء وبنات إخوته الذين عشقوه. كان الآن السيد المطلوب، فقد سبقت أخبار "الأُسطى" حسين العائد إلى طهران وصوله. قاتل أصحابُ المتاجر من أجل استئجاره. انتشرت شائعة أنه صنع أحذية مريحة للأميركيين. زاد الأمل باستئجار شخص يعرف ما الذي يسعد القدم الأميركية جنون مالكي المتاجر، والخال حسين لم يكن يحمل راية غزو سوق الأحذية الأميركية فقط، وإنما راية التحدث بالإنكليزية أيضاً، مع أنه يتحدثها بلكنة ثقيلة، كما أنه طليق بالعربية. في الحقيقة، كان يعرف بضع كلمات فقط تدل على بضعة أرقام إنكليزية تتعلق بقياس القدم الأنجلو–أميركية. ورغم أنه تلذذ بالصوت الغامض للمغنية المصرية الأسطورية أم كلثوم، مع زجاجة فودكا، فالانتشاء بذاك الصوت لا يحتاج أن يعرف الفرد ولا كلمة بالعربية.

عاد إلى طهران مع شريطي تسجيل لأم كلثوم، وسكاكينه الحادة، ومطرقته المفضلة التي "تسطح المسامير كما لا يفعل غيرها". قبِل في الحال عملاً في صف صانعي الأحذية، قبل ثلاث سنوات تقريباً من الجمعة التي أعلنت فيها الأحكام العرفية. لكنه أصبح، خلال ذلك الوقت القصير، عضواً في مجموعة مخلصة من أعضاء اتحاد صانعي الأحذية اجتمعوا كل ليلة بعد العمل وملؤوا رؤوسهم بالفودكا. بالطبع يجب ألا ينسى أحد أن شقيق الخال حسين الأكبر ساعد في أن يكون مرحباً به في المجموعة، وهو الأخ نفسه الذي أزعجه على الدوام لذوقه السيئ في الطعام ولحياته العازبة.

”يظن الناس أنك لا تملكه“، سخر شقيقه منه وهو يتجرع جرعة كبيرة من الفودكا ويحرجه أمام الرفاق نصف الواعين. ”تزوج، ربما تعلمك زوجتك شيئاً أو اثنين“، يقول ساخراً من جهل حسين في أمور الطبخ، ”ربما تنجح في تعليمك الفرق بين كباب لحم المتن المنقوع ولحم الأضلاع المدخّن“.

كان شقيق الخال حسين الأكبر قاسياً لكن عدائيته أتت من حقيقة أنه لم يسامح أبداً الخال حسين لأنه ترك البلدة قبل سنوات وأصبح غريباً على أبناء وبنات إخوته، ونفسه. لم يستطع أبداً أن يسامح الخال حسين لأنه حرمه إحساس القيام على رعاية أخ أصغر يقدّره. والآن عاد حسين دون ذكريات مشتركة أو مخطط مهم للحياة، ليكون مجرد عضو في النقابة، وصانع أحذية آخر في صف صانعي الأحذية.

ظاهرياً أنهى حظر التجول كل ما كان يهم الخال حسين. وفي غياب ليالي الشراب مع رفاقه صانعي الأحذية، كان مجبراً أن يبحث عن شيء آخر يتطلع إليه عندما يعود إلى البيت. كان عليه الآن أن يعود إلى المنزل كل ليلة على دراجته النارية محاولاً التغلب على ازدحام السير الذي لا يكاد يستجيب لعجلة الناس المذعورين المسرعين للوصول إلى منازلهم قبل أن يحل الظلام. تزوج، وتماماً، كما دوماً، دون أن يعلم أي فرد في العائلة، وجد امرأة وتزوجها. أخبر أخته وأخاه بعد أسابيع أنه وجد زوجة جيدة، ربة منزل مخلصة، وأنها كانت حاملاً. قال كل شيء عن زواجه وزوجته بقليل من العاطفة، لكن الحديث عن الحمل كان شيئاً مختلفاً. أراد أن يظهر لأخيه كم كان مخطئاً حين سخر منه بقوله إنه ربما لم يكن يملكه. بالتأكيد هو يملكه، وسيثبت ذلك انتفاخ بطن زوجته تدريجياً.

أدرك الخال حسين، مباشرة بعد أن تزوج، أن هناك شيئاً أكثر رعباً بكثير سوف يدمر حياته اليومية قريباً. بدأت الجموع الغاضبة من المحتجين تهاجم كل الرموز المحسوسة للفساد والفجور: متاجر بيع الكحول، دور السينما، الحانات، النوادي، وبالطبع البنوك. لم يبحثوا عن الغنائم. هاجموا البنوك لكنهم لم يسرقوا فلساً. دمروا الحانات ومخازن الكحول لكنهم لم يشربوا. ودمّر ذلك الخال حسين وأخاه الذي كان الآن أكثر اعتماداً على مجازفات حسين داخل المدينة على دراجته النارية بحثاً عن كحول لهما. شجعت الثورة الناشئة الخال حسين، فأصبحت الدراجة النارية الفضية العتيقة حصان حريته الأبيض.

يصطحب الخال حسين أخاه الأكبر كل يوم من ورشته ويمضيان معاً عبر ”الدم والنار“ ليحصلا على الفودكا، كما اعتاد أن يعلن بفخر. أصبح ناقلاً للأخبار من كل أرجاء المدينة، أيَّ بنوك هوجمت، أي دور سينما أحرقت، أي حانات دمرت. حتى الآن، رغم فرض السيطرة العسكرية على كل التقاطعات الرئيسية في المدينة، تجمع المتظاهرون في مجموعات صغيرة، وأحرقوا الإطارات وسط الشوارع، وخاطروا بألعاب متهورة مع الجنود المنهكين. فجأة وجد الناس أن الرعب بات مفهوماً قديماً وأصبحوا كُرماء في ما كانوا يريدون أن يعرضوه كي يدركوا ما الذي كانوا يرغبون فيه. لم يكن الخال حسين استثناءً. وبمساعدة أخيه الأكبر، كان يجد أفضل فودكا حتى يوم انهيار الملكية. جلس الأخَوان محشورين على الدراجة النارية مع زجاجة فودكا فقط في كيس بني تفصل بينهما، بينما هما يتحديان الرصاص والدخان. أصبحا كل واحد منهما أقرب إلى الآخر من أي وقت مضى.

كان لدى الخال حسين، غير المعروف بشجاعته، الآن قصص ليرويها. حوّل حفلات الشراب مع صانعي الأحذية إلى مسرح لتشارك القصص عن شجاعته. أعطته القصص فرصة ليبدو أطول مما

هو عليه، وأكثر وسامة، وباتت سخرية الأخ الأكبر تبهت أكثر مقابل جرأة الحركة الثورية. أعطت الثورة، دون قصد، الخال حسين شيئاً مهماً جداً: الكرامة. لقد تعاطف مع ثورة حرمته الملذات، ليس كل أنواع الملذات، لكن تلك التي كان يهتم بها فقط، فأصبح فضولياً ومنفعلاً على نحو غريب.

تظاهر في أحد الأيام عدد كبير من الناس في الشارع الذي فيه ورشته. عندما خرج ليرى ما الذي يجري، رأى فيه الحشد عاملاً يبدو كأنه خرج من ملصق إعلاني لـ"ثورة أكتوبر": المطرقة في اليد، مع مئزر من الجلد الأسود ومعصمين جلديين مشابهين وكنزة سوداء بالية ملطخة، ووجه يحمل نظرة تحكي قصة الاستغلال.

"عامل بطل"، صاح الحشد، "حياتنا تعتمد على عملك". قبل أن يدرك أي عامل كانوا يخاطبون، وجد الخال حسين نفسه يجلس على كتفي شاب وسط الميدان الذي يحيط به جنود مسلحون بالرشاشات. لوّح بمطرقته غير متأكد من إستراتيجية خروجه.

"الرصاص، الدبابات، وحتى قذائف الهاون... لا يمكنها أن تهزم عمالنا"، بدأ الحشد صيحاتهم الاعتيادية، والخال حسين مرفوعاً للأعلى هذه المرة. كانت فكرة القصص التي سيتشاركها لاحقاً مع رفاقه هي ما جعلته يتحمل ذلك فقط. قاس الخال حسين المسافة بين الجنود والحشد وهو يأمل أن الرصاص لن يصل إليه. أصبح شاحباً وضعيفاً وهو يشعر بقطرات العرق تجري تحت مئزره الجلدي الأسود من صدره إلى بطنه، رغم حقيقة أنه كان يوماً بارداً في بداية الشتاء. عاد اللون إلى وجهه عندما زاد عدد الحشد، وبدؤوا يحشون عيدان القرنفل داخل فوهات رشاشات الجنود. أنزل الطلاب الشباب الخال أرضاً، وقبّلوا رأسه، وشكروه على كل ما فعله من أجل القضية.

أغلقت الثورة الباب على الملكية ومعها أتت الاحتفالات، والمتعة، والإحساس العميق بالرعب، والقوة الكبيرة للجماهير والفراغ الغامض للنظام القديم. احتفل الخال حسين بولادة أمة جديدة مع ملايين الآخرين في البلد، لكن بعيداً عنهم. كان يشرب في المنزل وحيداً. كان الاستهلاك العام للكحول ممنوعاً، لم يُعَد افتتاح الحانات أبداً، وأصبحت مخازن الكحول مراكز رئيسة لميليشيات الثورة. لكنه احتفل.

"لن تدوم هذه الأشياء، لن تدوم"، قال متقاسماً حكمته مع صانعي الأحذية الآخرين، "وإلا كيف يمكن للرجل أن يتخلص من أعباء الحياة؟".

كان ذلك فعلاً سؤال صانعي الأحذية وملايين الآخرين الذين وجدوا مهمة التخلص من أعباء الحياة تزداد صعوبة. لمدة قصيرة، ظن الخال حسين أنه اكتشف حلاً غير مبتكراً بالأطفال. هل كان ذلك اكتشاف أبيه؟ وبعد الفتاة الأولى استمر الأطفال الجدد بالقدوم. أطلق على ابنته الأولى اسم أمه الراحلة، خورشيد، نور الشمس. "أكثر شيء محترم فعله في حياته"، أعلنت أمي ذات مرة.

استخدم مكافحو الثوار الدراجات النارية لنصب الكمائن لميليشيات الثورة، واستسلم الخال حسين لضغط زوجته وتوقف عن ركوب دراجته النارية.

"سيطلقون عليك الرصاص بالخطأ"، قالت له، "لديك عائلة وعليك أن تفكر فيها".

كيف كان يفترض به أن يخفف ألم هذه الكلمات دون زجاجة من الفودكا، يقول وداعاً لدراجته النارية ويواجه مسؤوليات الأبوة والزواج؟ لنكن عادلين، كان الخال حسين معيلاً مهتماً. أطعم عائلته جيداً، وإن لم يكن بطريقة أخيه الأكبر الذي كان مصراً أن الخال حسين لم يكن لديه خبرة في الطعام والشراب. ألبسهم جيداً. سلّم كل أمور المنزل المالية لزوجته، وأصبح موضع حسد من أنسبائه. المشكلة الوحيدة كانت أنه بعد كل هذه السنوات من المغامرات والهرب، وسمعته التي بناها

كصانع أحذية محترم، ولعبه دوراً في الثورة (على الأقل كانت تلك هي الطريقة التي تذكّر بها تلك الأيام)، لم يكن لديه شيء يحكيه لعائلته.

كان أمامه الآن، دون الدراجة النارية، ودون حانات أو مخازن شراب، مهمة أكثر خطورة من العبور بين الدم والنار للبحث عن الشراب. اشترى سيارة Citroënبأسطوانتين، السيارة الأقرب إلى الدراجة النارية، وتعلم فن القيادة برصانة بينما هو يبحث عن فودكا جيدة محلية الصنع. "القيادة هي الشيء الأسهل عندما يكون الشخص ثملاً"، كان يقول لأخته التي غالباً ما وبخته على تهوره. "السيارة تعرف طريقها جيداً"، يضيف مسبباً لها المزيد من الألم، "السيارة تعرف طريقها جيداً، لماذا سأضيع معها؟ اشتريت سيارة لها دماغ".

كما تدهورت نوعية الكحول، كذلك تدهورت الرفاهية في البلاد. تحولت أحذية الرجال المحلية الصنع إلى أحذية تشترى لمرة واحدة في الحياة. وواحداً بعد آخر، أغلقت مخازن الأحذية في صف صانعي الأحذية الذين حولوا أعمالهم المجزأة إلى إنتاجات بالجملة. اختفى التمييز بين المعلمين والصناع، أحدهما أصبح المستثمِر والآخر مستثمَر، بينما أصبحت الأحذية الجيدة نادرة ولا تستطيع سوى النخبة شراءها. ليس للدرزات المخفية والقصات الرائعة فرصة عندما يكون عليها أن تتنافس مع قطعة من اللحم أو وجبة ساخنة. حدث كل ذلك دون أن يكون هناك مكان لتناول الشراب مع الرفاق العمال لتخفيف أعباء الحياة.

كلما زاد وصول الأحذية من الخارج، قلت جاذبية الخال حسين التي تظهر في ثمالته. وكلما قل تقديمه الراحة المادية في المنزل، زاد بعده عنه وعجزه عن الحديث إلى زوجته وأطفاله. عندما حان الوقت لطرد الخال حسين، معلّم المعلمين، صانع الأحذية الذي بنى نفسه بنفسه لأكثر من خمسين عاماً، كان قد فقد فعلاً تعاطف وحب زوجته. رأى أطفاله الأربعة فيه عبء حياتهم. ورأت زوجته أنه سوف يخيف العرسان المحتملين لبناتهم. من الأفضل إخفاء السكّير. أصبح الخال حسين مشرداً وعاش تحت رحمة النقابة المحتضرة.

لم يعرف أحد مطلقاً من أين كان يحصل على الكحول. لماذا قد يكون ذلك مهماً؟ أحرق سم المادة الرخيصة كبده، أبدى صانعو الأحذية لطفهم واهتمامهم، فتركوه ينام في ورشاتهم، وأطعموه. الحكمة غير المحكية كانت أن الخال حسين لا يستطع أن يعيش أطول من نقابته، ولم يفعل. اليوم الأخير الذي لهث فيه طلباً للهواء، اليوم الذي غادرت فيه الحياة مع كل أعبائها من جسده المحصور ركبت روحه دراجة Vespa فضية جديدة لامعة إلى السماء، حيث توجد أفضل أنواع الفودكا، وحيث يستطيع الشخص أن يشرب إلى الأبد دون أن يتحدث إلى أحد عن شيء.

هذا أيضاً سيمرّ!

حذّر حمزة، الذي قضى ست سنوات في سجن إيفين قبل الثورة، الآخرين من الإفراط في الابتهاج. "دعوا الرجل يجمع أغراضه"، قال محاولاً أن يبعد الرفاق في الزنزانة عني. "سيبقى العالم موجوداً دون رسائلكم"، صاح بلهجة أذرية مبالغ فيها، وهو شيء اعتاد عمله كلما أراد أن يخفف وضعاً ما. "لكن لا تنسى رسالتي"، همس في أذني.

كانت رسالته مهمة. فقبل يوم واحد فقط، وضع في عهدتي قصة مذهلة عن الخيانة الثورية. في السنوات التي سبقت الثورة، كان الاستشهاد هو الأيديولوجيا التي دفعت عجلة الثورة. أصبح هدفاً بحد ذاته لكل الذين يؤمنون بالآخرة والذين لا يؤمنون. لا يمكن أن تكون هناك ثورة دون استشهاد. وكان صمد بهرنجي، كاتب أدب الأطفال، أحد هؤلاء الشهداء الذين يمكن رؤية صورهم في عدد من الاجتماعات. كان صمد معروفاً للثوريين اليساريين بأنه صوت المضطهدين. ويُعتقد أنه قُتل على يد ضابط في الجيش وهو في الثامنة والعشرين، لأن الضابط شوهد يجري مبتعداً عن النهر الذي غرق فيه صمد. شهيد آخر في سبيل الثورة، هكذا ظن الجميع. لكن حمزة وضع في عهدتي قصة أخرى:

> كنت الشخص الذي شوهد يغادر المكان الذي غرق فيه صمد. كنت واحداً من أعز أصدقائه وكان موته مجرد حادثٍ مؤسف. كنت طبيباً بيطرياً أخدم في الجيش. فعلت ما في وسعي لإنقاذه. وصلت الأخبار إلى رفاقي أن ضابطاً في الجيش قتل صمد قبل أن أتمكن من الوصول إليهم. وعندما وصلت وشرحت لهم أنه لم يُقتل، كان صمد قد أصبح بالفعل شهيداً يقتدى به. رغم أنّ تلك الحقيقة جعلت مني قاتلاً، فلا أحد، بمن فيهم أنا، حاول إلقاء أي شكوك حول شهادة صمد. كان يجب حفظ ذلك السر. اعتقدنا جميعنا أن مسألة شهادته أهم من سمعتي. لذا، كان عليّ أن أبقى يهوذا الثورة الصامت. والآن لم أعد أستطيع تحمل ذلك العبء أكثر. أعرف أنني لن أنجو من هذا السجن. أنا فقط لا أريد أن أموت قبل أن أطهر اسمي.

كان لديّ عدد من الرسائل لإيصالها لكنني عرفت أنه لن يُطلق سراحي. إذاً، إلى أين يأخذونني؟

أخذوني معصوب العينين ومحشوراً في خلفية شاحنة مع ثمانية سجناء آخرين بعيداً عن سجن إيفين. سمعت قبل بضعة أسابيع أنهم نقلوا موقع تنفيذ أحكام الإعدام من إيفين إلى ساحة إطلاق رصاص عسكرية قديمة خارج المدينة. لكنني أدركت من الصوت المتواصل لأبواق السيارات في الازدحام أننا كنا نتجه إلى قلب المدينة بعيداً عن حقل الإعدام. استطعت من خلال ثقبٍ صغير في عصبة عينيّ أن أرى النافذتين الصغيرتين الموجودتين في مؤخرة الشاحنة وقد تمت تغطيتهما بعجالة بقطع من ورق الجرائد. كان يجب أن أصل إلى هاتين النافذتين. استدرت بانعطاف حاد وألقيت نظرة سريعة إلى الخارج مع لكمة دامية. كنا في ميدان فردوسي نتوجه جنوباً.

سجن "كوميتِه مشترِك"[2]، السجن الفظيع الذي يحتوي العديد من الأجساد المعذبة، كان يفترض أنه هُدم بعد الثورة. لم يتغير البناء القديم الذي كان ملوثاً بدماء الآلاف خلال حكم الشاه وأبيه. صدّقت الأمة بكاملها أن لا أحد يملك الجرأة على إبقاء أبوابه مفتوحة وغرف التعذيب فيه شغالة. لكنه يعمل الآن على نحو سري.

2 اسم السجن مأخوذ بالفارسية من "كميته مشترِك" نسبة إلى إدارة السجن التي كانت "اللجنة المشتركة للسافاك (جهاز المخابرات) والشرطة".

"لماذا تأخذوننا إلى 'كوميتِه مشترِك'؟"، قلت مستدعياً ضربة موجعة أخرى لرأسي. أردت أن أتأكد أن الآخرين كانوا منتبهين إلى اتجاهنا. فأن تعرف أنك في أشد السجون رعباً أهون من ألا تعرف أين أنت.

أخذوني إلى الطابق الثالث. "اجلس"، قال لي الحارس بصوت يكاد يكون مسموعاً، "لا تلمس عصبة عينيك".

جلست على بطانية بالية.

أعطاني الحارس كأساً بلاستيكياً أحمر، وبطانية أخرى، وثلاث نصائح: "لا تتحرك، لا تصدر أي صوت، ولا تجرب أن تنظر".

لم يخطر في بالي أبداً أن العنبر رقم 2، الزنزانة رقم 6، ستكون مكاناً مرفهاً. لكن من حيث أجلس الآن، بدا الأمر بالتأكيد كأنني كنت بعيداً عن منزلي في سجن إيفين.

نظرت من خلال عصبة عيني دون أن ألفت الانتباه. كان هناك ستة سجناء في جانب وخمسة في الجانب الآخر. الشخص الذي إلى جانبي كان متلهفاً لفتح حديث لكنني كنت متعباً. ألمح إلى أنه مضى عليه ثلاثة أشهر هناك. تظاهرت أنني لا أراه. لم تكن فكرة البقاء هناك لأشهر، معصوب العينين، شيئاً أريد أن أفكر فيه. أتى الحارس وأنقذني من الشعور بالذنب في أنني لم أكن أريد أن أتواصل مع جاري. أخذني إلى غرفة التحقيق في الأسفل، حيث "التقيت" لأول مرة المحقق الذي عرف أن اسمي السري كان أكبر.

إنه يعرف اسمك المستعار. لا يمكن أن يكون هذا مجرد خدعة.

تتطلّب النجاة من التحقيق ما هو أكثر من التغلب على مخاوفك بكثير، أو تجاوز ألم التعذيب الذي لا يحتمل. فهي كذلك لعبة شطرنج. ستخسر إن لعبت بإستراتيجية سيئة، وبإستراتيجية جيدة، ستظل خاسراً. لكن الخسارة أو الربح يحدثان غالباً في حالة لا شكلية تتغير معاييرها باستمرار. طالما تستطيع أن تبرر في عقلك ما فعلته أو ما قلته، أنت تربح. لكنك تخسر في اللحظة التي تصبح فيها أفعالك غير قابلة للتبرير أمام نفسك.

أدخلني الحارس إلى غرفة وطلب مني أن أجلس على كرسي مقابل الجدار.

ظهر المحقق في الحال وهو يقول مرحباً بصوت مؤدب جداً، ثم يضيف: "يجب أن نهتم بقضيتك بسرعة كبيرة".

ونظراً إلى انتشار حالات الإعدام في ذاك الوقت، لم يكن الاهتمام بالقضية بسرعة ذا وقع إيجابي. وضع أمامي ورقة تحمل أسئلة بسيطة وترك الغرفة. حدقت في الورقة وأنا لا أملك القدرة على الإجابة عن أي شيء.

الاسم:...
الكنية:...
العنوان:...
كل الأسماء المستعارة:...
النشاطات السياسية:...
أسماء ومناصب الأعضاء الآخرين في التنظيم:...
ما مقدار ما يعرفه؟
من هو مصدره؟

بدأت أضع في رأسي قائمة بأسماء الأشخاص الذين يحتمل أنهم يعرفون اسمي المستعار. شعرت أنني كنت حقاً معصوب العينين للمرة الأولى منذ اعتقالي. كررت الأسماء في رأسي بسرعة.

كتبت اسمي الكامل.

... أحياناً يناديني الأصدقاء أكبر.

تركت بند العنوان فارغاً. لم أكن قد أعطيتهم بعد عنوان منزلي. فتظاهرت أنه ظل فارغاً دون قصد. كنت بحاجة إلى مزيد من الوقت لأعرف أكثر ما الذي يعرفونه.

... لا نشاطات سياسية منذ أغلقت الجامعات العام الماضي.

... قطعت الاتصال مع كل الأصدقاء منذ ذلك الوقت لأنني كنت متعباً من السياسة.

فكرت أن هذا كان معقولاً. نهضت وبدأت أخطو في الغرفة التي كان طولها اثنا عشر قدماً وعرضها تسعة أقدام. لفتت قطرات ولطخات الدم المرشوشة على الجدار انتباهي بعد بضع دورات فقط من السير جيئة وذهاباً. من المفترض أنهم تركوا اللطخات على الجدران كتذكير بكل اللغات الأخرى التي جرى التحدث بها هناك. كان هناك بضع خطوط من الكتابة على الجدران. شعرت بقليل من الاهتمام لقراءتها.

كم مضى عليه منذ ترك الغرفة؟ توقع مني أن أكتب كتاباً، كتبت ثلاث جمل فقط. احتجت أن أدخل الحمام لكن لم أكن أريد أن أكلم أياً كان. كنت آمل في سري أنهم نسوني. ربما كان ذلك من حسن حظي. هو فقط رمى اسماً وأراد أن يرى رد فعلي. لا. ربما عرفوا أن هناك شخصاً اسمه أكبر لكنهم لا يعرفون بالضرورة أنه أنا. شطبت عبارة "أحياناً يناديني الأصدقاء أكبر". بدا ذلك أسوأ. سيعرف أنني أحاول أن أبحث عن أفضل كذبة. لا أستطيع القول إنني كنت أُعرف أيضاً بذاك الاسم، ثم أتراجع. أعدت كتابة العبارة، كاشفاً تشويشي المطلق.

شعرت بالجوع. كم مضى من الساعات عليّ منذ تناولت الطعام؟ لم يكن هناك حاجة إلى تذكيرهم بمكاني لأنني كنت جائعاً فقط. كلما تركوني وحيداً لوقتٍ أطول، أصبح من الأسهل أن أقنع نفسي أنهم لا يعرفون شيئاً عن تورطي. هل عليّ أن أشطب ثانية الجزء المتعلق بأكبر؟ يجب أن أجعلهم يصدقون أنني أخبرهم الحقيقة. لا أستطيع أن أريهم هذه الورقة وكل علامات التردد ظاهرة فيها. طويتها بعناية كبيرة إلى أصغر قياس ممكن ودسستها في ثيابي الداخلية. كنت بحاجة إلى إراحة نفسي. ذكرتهم بنفسي من جديد وناديت الحارس.

أجلس هذه المرة وليس هناك ورقة أمامي، وإنما مجرد ملاحظة منقوشة على الكرسي الخشبي: "هذا أيضاً سيمر!". تمنيت لو أنني استطعت محو ذلك. كان لدي قلم وكان بإمكاني أن أكتب شيئاً ما على الجدار. أنقش شيئاً ما على الكرسي الخشبي. لم يكن لدي شيء لأقوله. ربما لديهم كاميرا مخبأة في مكان ما. إذا كان ذلك هو الوضع، فقد عرفوا أنني أزلت الورقة. إنهم يرونني. لذلك السبب، لم يدخلوا. إنهم يراقبونني. لا. ليس هناك أي كاميرات في الغرفة. لماذا قد يحتاجون كاميرا في غرفة مغلقة؟

"ارجع إلى كرسيك"، سمعت صوتاً يصيح بي من خلف الباب.

جلست ووجهي إلى الجدار، ثم سمعت الباب يفتح.

"خذ طعامك".

أُغلق الباب وظهرت آنية صغيرة من حساء الفاصولياء البارد على الأرض. لدي بعض الوقت الإضافي لأتدرب على إجاباتي الممكنة. ليس فعلاً. لم يكن لدي الكثير من الخيارات الأخرى. كل الحق على المحقق. فبعد كل شيء هو من تركني هنا لساعات دون أن يحقق معي. نسي أن يعطيني أسئلتي. لم أرَ أي قطعة من الورق هنا. كم من الساعات مضى؟ بعد ساعات، بدأ الوقت يفقد أي علامة مرجعية. ربما كنت هناك منذ خمس ساعات أو ثمانٍ. إذا كان الغداء علامة، يمكن أن يكون

الوقت بين الثانية عشر والثانية بعد الظهر. لكن كم مضى من الوقت منذ أنهيت حصتي من حبات الفاصولياء المنقطة الثلاث والثمانين نصف المطبوخة، مع بعض القطع الطافية من البصل، وبعض الخطوط الحمراء لما يمكن أن يكون قشر بندورة مقطعة ناعمة؟ كم مضى عليّ وأنا أحاول أن أعرف الوقت؟

"آسف، استجدّ شيء وكان عليّ أن أغادر".

شعرت بالجوع مجدداً، لكن هذا المرة لم يكن تسليم الطعام هو ما كسر الصمت.

"هل حظيت بفرصة لتجيب عن الأسئلة؟".

"أي أسئلة؟".

"الأسئلة التي أعطيتك إياها في الصباح".

"أنا حقاً قدرت محادثتنا هذا الصباح. تعلمت الكثير فعلاً. لكنك غادرت ولم تترك لي أي شيء لي لأجيب عنه".

"أنت تعرف أن هذه الأسئلة يمكن طرحها بطريقة مختلفة، صحيح؟ أنا لست من هؤلاء الذين يقفزون إلى الخاتمة دون التبحر في كل جوانب قصة. لذا، لا تجبرني...".

"لذلك تماماً قلت إنني استمتعت بحديثنا هذا الصباح"، قاطعته قبل أن ينهي جملته.

"دعني أقول لك هذا. لسنا بحاجة إلى أن تخبرنا أي شيء حقاً. الأسئلة بالنسبة إلينا هي لنرى هل أنت جاهز لتحمل مسؤولية ما فعلته وإبداء الندم. ليست المعلومات هي ما نريده. نحن بحاجة إلى أن نحدد أين تقف الآن. هذا عائد إليك. فكر في الأمر".

غادر الغرفة من جديد دون أن يبدي اهتماماً بالورقة المفقودة. حاولت استعادة قوتي للانتظار، الله يعلم كم من الساعات الأخرى سيطول. لكن الانتظار كان قصيراً.

"ضع عصبتك على عينيك".

لم أعرف إلى أي غرفة كنا نتوجه. أردت أن أسأل لكن لساني تراجع عندما تذكرت فجأة القصة التي أخبرني إياها الآغا نصرت سابقاً عندما كنت في إيفين. حين قال للحارس وهم ينقلونه من مكتب المدعي إلى العنبر: "أخي"، كما كان يحب الحراس أن يخاطبوا، "هل تأخذوننا إلى غرف التعذيب الآن؟"، تلقى ضربة قوية دون أن يعرف لماذا بالضبط. فقال للحارس إنه يكرر فقط ما كان إيفين معروفاً به خلال الثورة. "كيف علينا أن ندعوه الآن؟"، قال للحارس الغاضب.

بقيت هادئاً وفي الحال وجدت نفسي أعود إلى مكاني في الطابق الثالث.

لم يكن الجار الذي أمضى ثلاثة أشهر هناك.

"هل تناولت الطعام؟"، سألني الحارس بهدوء.

"نعم... لا! كم الساعة؟".

أظن أنه حصل على جوابه لأنه ظهر مع طبق كبير من الأرز وقطعتين كبيرتين من الدجاج. لماذا يكافئونني؟

تناولت قضمتين من فخذ الدجاج وقبل أن أنهي الأرز، عاد الحارس.

"انهض وخذ أغراضك... دع الطعام".

فتح باب الزنزانة تماماً مقابل المكان الذي كنت أقف فيه ودفعني إلى الداخل. أدركت في اللحظة التي نزعت فيها العصبة عن عيني أنني أيقظت خمسة أشخاص في الغرفة. رفعوا رؤوسهم جميعاً وألقوا عليّ نظرة سريعة.

"هيا ادخل"، قال لي بسرور رجل عجوز بلحية بيضاء سميكة، "درويش، اسمي درويش".

نهض وهيّأ لي مكاناً مريحاً مع بطانيتين. ”استرح، سيحين قريباً وقت صلاة الصبح“. عاد إلى مكانه بينما سحب الآخرون بطانياتهم فوق رؤوسهم دون أن يتلفظوا بكلمة.

”كم الساعة؟“، لم أستطع أن أتخلص من هوسي.

”الرابعة تقريباً“.

”في الصباح؟“.

”في الصباح“.

غرقت في النوم بسرعة مذهلة. سمعت صوت الباب المزعج وهو يفتح، لكنني لم أقوَ على الحركة. لم أكن مستعداً للنهوض حتى من أجل فطور ساخن.

”أيقظه“، سمعت الحارس يقول لأحدهم.

”لكنك أحضرته للتو“، سمعت درويش يرد.

”أيقظه. سنعلمكم عندما نحتاج مساعدتكم في جدول مواعيدنا“.

جلست بينما تابع درويش معارضته للحارس: ”إنها الخامسة صباحاً“.

”ضع عصبتك، اترك أغراضك“.

”صباح الخير“، قال محققي وهو يدخل. ”هل تصلي في الصباح؟“، سأل بنبرة شبه طبيعية.

”لا، ليس الآن، ربما في وقت قريب“.

”حسناً، إذاً. لديك الأسئلة نفسها التي أعطيتك إياها أمس. حاول ألا تضيّعها هذه المرة“.

”لكن أنا...“.

”لا بأس“، قاطعني قبل أن أبدأ التظاهر بالبراءة.

كان الجزء الأول قد مُلِء مسبقاً هذه المرة. الاسم، الكنية، الاسم (الأسماء) المستعار.

”عنوانك ليس لدينا“.

لم أكن متأكداً هل يسألني أم يخبرني فقط.

”حسناً“، كررت ما أخبرت به المحققين في إيفين، ”كنت أعيش في منزل ابن خالي في رشت، البلدة التي تنتمي إليها أمي. يمكنني أن أعطيك عنوانه، لكن هذا ليس مكان سكني فعلاً. كنت أحاول أن أكتشف ما الذي يمكنني فعله خلال إغلاق الجامعة“.

لم يكن مهتماً.

”اكتب أي عنوان لك. لا تتركه فارغاً“.

غادر.

جلست هناك مشلولاً. عرفت في تلك اللحظة أنه لن يكون هناك إستراتيجية ربح لي. تركت الجزء المتعلق بالعنوان فارغاً.

عليّ أن أذكر أسماء بعض من كنت أعرف أنهم متورطون في سياسات معارضة. كنت أعرف محمد، المعروف بمحمد ”خِرس“[3]، محمد الدب، معرفة بعيدة. لم يكن لدينا أي اتصال سياسي ولم نكن قريبين شخصياً. عرفت أنه أُغرق قبل بضعة شهور في النهر الأبيض خلال رحلة إلى الشمال. تظاهرت فقط أنني لم أكن أعلم بموته.

3 ”خرس“ هو الدب باللغة الفارسية.

كتبت:... محمد شافعي، المعروف بـ”خِرس“، هو من جنّدني في القضايا السياسية. بقي صلة الوصل الأساسية لي حتى أُغلقت الجامعة. فقدت التواصل معه بعد ذلك. لم يكن معروفاً بـ”خِرس“

بسبب شجاعته أو قوته رغم أنه كان ضخماً جداً وشجاعاً. كان معروفاً بالدب لأنه تسلق الجبال في إحدى الرحلات قبل الثورة وظن خيال أحد رفاقه الطلاب الواقف خارج خيمته دباً. فصاح: "دب، دب، دب" وخلق ذعراً في المخيم...

حاولت أن أبدو كأنني أبذل ما في وسعي لأتذكّر كل تفصيل دقيق. عليّ فقط أن أملأ الورقة. لكن بعد كل القصص عن الدب، والمخيم، وتسلق الجبال، كان لدي فقط مقطع مثير للشفقة فتوقفت عن الكتابة. قرأت الأسماء على الجدران: أعرف بعضهم، سمعت عن بعضهم. لماذا تركوا أسماءهم ظاهرة هنا؟ هل كان هذا اختباراً أيضاً؟ هل يعلمون فعلاً أنه لا يهم هل رأيت هذه الأسماء هناك أم لا؟ لم أشعر برغبة في ترك علامتي على هذه الجدران. شعرت أنني يائس، ولا علاقة لي بهذه الأسماء، حتى الذين عرفتهم منهم.

كم الساعة؟ كم مضى من الوقت منذ غادر؟ جعلني السير جيئةً وذهاباً مشوشاً.

ماذا يعرفون؟ من أخبرهم وبماذا؟ لماذا تركني هنا لساعات؟ يريد أن يقودني إلى الجنون. قل أي شيء... لا تقل شيئاً...لا تقل شيئاً. لا تفكر في الأسئلة.

كيف يمكنني أن أفعل ذلك؟ هل هناك شيءٌ آخر لأفكر فيه؟

عليك أن تفكر في الأسئلة. أنت تعرف ما الذي سيحدث لك إذا رفضت أن تجيب. هل أنت جاهز لذلك؟ ما هو "ذلك"؟ لا أعرف. هل أنا جاهز، لماذا؟ للألم؟ للموت؟ للخيانة؟

كم الساعة؟

سمعت الباب يفتح. "عد إلى مقعدك". سمعت الصوت الهادئ لآنية الحساء توضع على الأرض. كان الوقت حوالى الظهيرة. إنهم يعبثون بإحساسك بالوقت. هل هي الظهيرة حقاً؟ ماذا يهم؟ أنا بحاجة إلى أن أعرف كم مضى عليّ هنا. أنهيت الحساء رغم شكوكي في كونه غداءً أو عشاء.

(... لا أعرف مكان محمد شافعي. منذ أغلقت الجامعات، فقدت الاهتمام بالسياسة. عدد من الناس الذين عرفتهم... لا يجب ألا تقول ذلك لأنه سيسألك حينها عن أسمائهم...) لا يمكن أن أعرف شخصاً واحداً فقط... أحتاج أسماءً أخرى... سأفكر في بعضهم لاحقاً... اختفى الناس الذين عرفتهم كلهم. أخبرني محمد أنه إن لم يتواصل معي، فعليّ ألا أحاول إيجاده. لكن بصدق، لم أكن مهتماً بإيجاده على أي حال...

لن يخلصني هذا من الشرك لكنه يمكن أن يعطيني بعض الوقت لأكتشف مصدر معلوماته. عرفت أن المصدر لم يكن له علاقة بحياتي الطلابية. لم يعرفني أحد هناك باسم أكبر. يجب أن أذهب إلى الحمام. قالوا لي ألا أطرق الباب، لكن عليّ أن أفعل ذلك. لم يجبني أحد. لم أكن أقوى على التفكير إلا في شيء واحد هو ألا أتبول في سروالي. كان ذلك إلهاءً جيداً. طرقت الباب مجدداً. مرة أخرى. "اخرس، وإلا سأكسر ذراعك".

"لا أقوى على الاحتمال أكثر".

كان الحمام في نهاية القاعة الضيقة، لكن عليّ أن أضع العصبة كي أخرج من الغرفة. "انتهِ بسرعة". لم أتمكن من الرؤية حتى دون عصبتي. ما هو الرابط بين امتلاء المثانة والنظر؟ لم أتمكن من الرؤية إلا بعد أن أرحت نفسي، فرأيت عمودين متأرجحين من الكتب موضوعين جنباً إلى جنب في الحمام. في قمة أحدها **أعمال لينين المختارة**، بصفحاتها 964 كلها.

هذه خدعة. لا تلمسها.

التقطت الكتاب ونظرت إلى بعض الصفحات من كتاب **ما العمل؟** ما جعلني أفكر في حسين أمولي وأول مرة عرفت فيها الكتاب. تساءلت هل هو حي أو ميت. شعرت فجأة برغبة خالية من الإحساس بالذنب في أن يكون ميتاً كي أستطيع أن أستخدمه كاسم آخر لأضيف بضعة أسطر إلى إجاباتي. حاولت جاهداً أن أقنع نفسي أنه كان ميتاً، أو أنه غادر البلد.

أصبح لدي تاريخ لقاءات الحمام مع **ما العمل؟** ذكرتني رؤية هذا الكتاب في الحمام في ذاك اليوم من التحقيق بالمرة الأولى التي التقيت فيها بالنص.

ما العمل؟

رنّ الهاتف مرتين. التقطت السماعة قبل أن يتمكن أحد من أسرتي أن يجيب.
"هل هو تحت الطلب طوال الوقت؟"، سمعت أمي تتمتم وأنا أجيب على الهاتف.
"مرحباً...؟".
كان الهاتف الذي حصلنا عليه قبل سنوات على الدوام مصدراً لإزعاج والديّ. ففي المنازل التي يفوق عددها الخمسين في جوارنا، كان هناك فقط هاتف واحد أو اثنان. ومع الهاتف أتت مسؤولية توصيل الرسائل إلى عدد كبير منهم في أوضاع ملحة. تضمن تعريف أبي الصارم للحالات الطارئة حالات الموت فقط، والولادة مع بعض المرونة، وكل ما عدا ذلك يمكن أن ينتظر. اعتاد أن يوبخ أمي قائلاً: "حالما نتركهم يستخدمون هاتفنا لأمور تافهة سوف يحولوننا وأولادنا الأربعة إلى صبيان توصيل في خدمتهم". غير أنه يغير أسلوبه فجأة بمهارة عندما يحيّي جيراننا، مصراً على قول: "هاتفنا هو هاتفكم"، ويحمّل كامل مسؤولية قول "لا" على أمي.
أسرعتُ إلى الهاتف بسرعة في كل مرة رنّ فيها، ليس لأنني كنت أنتظر مكالمة، ولكن لأنني كنت أغطي على أختي. كنت أنقل رسائل بينها وبين حبيبها، خطيئة لا يمكن أن يرتكبها أخٌ يحمل أقل ما يمكن من الفخر الذكوريّ الفارسيّ ولا يستطيع أي أهل محترمين تحمّلها أبداً. مسؤولية الأخ الجيد كانت حماية أخته من عيون الفتيان المنحطين الشريرة. وكان على الأهل التأكد من أنه لا يمكن لأحد أن يشكك في عفة بنتهم. عرف حبيب أختي تماماً أنه لا يُفترض به أن يكلمها في المنزل، لكن رغبتي في لعب دور المتواطئ جعلت مخالفاته العرضية ممكنة.
على أي حال، كان المتصل حسين أمولي.
رغم أنني لم أسمع صوته عبر الهاتف قبلُ، عرفته في اللحظة التي سمعت فيها هذه الـ"مرحبا" الطويلة بلهجته الشمالية الثقيلة.
"يجب أن أراك في الحال، في غضون عشر دقائق"، انطلقت الكلمات من فمه دون توقف. لم يسأل هل بإمكاني رؤيته. لا بد أنه أمر ملح، حتى بمعايير أبي.
"أين أنت؟".
تجاهل سؤالي. أعطاني التعليمات كيف وأين سألاقيه.
"أنا أقود سيارة أبي، Peugeot. اخرج إلى الشارع بعد عشر، لا، بعد خمس عشرة دقيقة، وتظاهر أنك تبحث عن سيارة أجرة. عندما تراني، لوح فقط واصرخ بعنوان ما، لنقل ميدان شهياد[4]، وسأقلّك".

4 ميدان شهياد آريمهر [ذكرى الملك] الذي صار يُعرف بعد الثورة بميدان آزادي [الحرية].

تذكرت سيارة أبيه على نحو غامض، لكنني لم أكن واثقاً أنني سأعرفها في شارع مزدحم.
"ما هو لون السيارة؟"، سألته بطريقة فيها اعتذار.
"أخضر فستقي معدني، إنها من طراز 504 مع باب خلفي. لا تنسَ. تخرج بعد خمس عشرة دقيقة وتستأجر سيارة أجرة إلى ميدان شهياد"، أغلق السماعة.
كانت عطلة السنة الجديدة قد بدأت للتو. عاد جميع من في الكلية إلى منازلهم أو كانوا مشغولين مع العائلة. ماذا يفعل حسين أمولي في طهران؟ أخبرني أن عائلته تذهب إلى قريتهم بلور في كل فرصة

تتاح لهم. ما الذي كان يفعله في المدينة قبل أربعة أيام من النوروز؟ كان الشتاء انتهى تقريباً ولم تعد طرقات السفر بذاك السوء. ألم يدعني لزيارته في العطلة؟ تذكرته يقول لي: "انعطف يساراً عند المنفذ إلى بلور على طريق بلور. إنه طريق قذر. قصرنا تماماً مقابل سيارة دودج رويال 1955 فيروزية عملاقة مركونة إلى الجانب الأيسر من الطريق". تذكرت هذا لأنني لم أسمع أبداً أحداً يدل على الاتجاهات بالإشارة إلى سيارة مركونة.

ماذا يفعل في طهران؟ لم يتصل بي من قبل أبداً. ما الذي يمكن أن يكون ملحاً على هذا النحو؟ غارقاً في أسئلتي التي ليس لها إجابات، بدأت أستعد للخروج. جاهدت أمي لمنع نفسها عن السؤال من اتصل وإلى أين كنت ذاهباً. لكنها في النهاية استسلمت لغريزتها الأمومية.

"هل أنت ذاهب إلى مكان ما؟".

"سأعود في الحال. قبل العشاء".

اكتسبت حرية تجنب الإجابة لأنني دخلت واحدة من أرقى جامعات الهندسة في البلاد في خريف 1977. كان ذلك إعلاني للاستقلال دون أن أكون مستقلاً في الواقع. لم تتابع الأمر وذهبت بهدوء إلى المطبخ لتعدّ العشاء. لم يكن بإمكاني أن أقول لها إنني كنت ذاهب للقاء صديق. كنت خائفاً من الأسئلة اللاحقة التي ليس لدي أي إجابات عنها.

خرجت من المنزل حوالى 5:30. كان الثلج قد تحول إلى رذاذ متجمد. واكفهرار آخرِ الظهيرة تحول إلى ظلام المساء. ازدحم الأطفال في الزقاق الضيق الذي يقود إلى الشارع يرمون كرات الثلج الموحلة وينزلقون على عدد من منحدرات التزلج التي ترتفع ستة أقدام والتي صنعوها من الثلج المتراكم وسط الزقاق. كانت أنوفهم وأيديهم المتجمدة وخدودهم القرمزية تزعج أمهاتهم فقط، فكن يدعونهم للعودة إلى الداخل قبل أن يصل الهواء اللاسع إلى آذانهم.

كان السيد خاكبور البالغ الوحيد الموجود خارجاً يسير باتجاه بيته، المنزل الخامس بعد منزلنا. ووراءه ببضع خطوات لحق به ابنه أصغر ذو السنوات الثماني تقريباً، يبكي بعنف، ويردد بكل القوة التي استجمعها من أحشائه: "لا أريده! لا أحبه!".

بدأ الأطفال الآخرون رمي كرات الثلج على أصغر الذي بدا محصناً ضد الرجم على ظهره.

حيّيت السيد خاكبور.

"قل له شيئاً"، رد خاكبور، "ما الفرق بين هذا"، صفق بحقيبة تسوّق أمام وجهي، "وبين أي ثياب أخرى".

لم أكن متأكداً هل يتوقع سماع رأيي أو أنه أراد أن ينفّس عن غضبه فقط.

"ما المشكلة، أصغر؟"، سألت بلطف وأنا أضع يدي على أذنه المتجمدة، وأسحبه نحوي.

"أكره هذا اللون!"، جمع انفعالاً أكبر وكرر شعاره، "لا أحبه!".

"منذ متى"، اعترض خاكبور، "يقول الأطفال أي نوع من الألبسة يجب أن يلبسوا؟ هل عليّ أن أقضي عطلتي كلها أبحث عما يريده هذا التيس الصغير من أجل زيّ العام الجديد؟ وإذا فعلت ذلك لأصغر، ألن يطلب الأولاد الآخرون الشيء نفسه؟ انسَ الوقت، من أين سآتي بالمال؟ على أيّ كنز يظنون أنني أجلس؟"،

كلما زاد غضب أبيه، تمسّك أصغر بساقي بقوة أكثر.

"ما زالت أمك تمسح مؤخرتك"، قال وهو يلكم رأس أصغر، "وتريدني أن أشتري لك ثياباً جميلة".

كان الوقت يمر. لم تترك تعليمات حسين الحذرة أي مجالٍ للتأخير.

"اذهب وجربها في المنزل"، قلت وأنا أدفع أصغر المسكين بعيداً، "أنا متأكد أنك ستحبها... كل عام وأنت بخير، سيد خاكبور".

"كيف الجامعة؟"، سألني بنبرة أبوية وهو يمسك يد أصغر.

"جيدة"، قلت وأنا أشعر بالإحراج من أصغر.

"لا بد أن أبويك فخوران بك. كلنا فخورون بك"، استدار وتابع السير نحو بيتهم ساحباً ابنه خلفه.

"هذه آخر مرة أشتري لك فيها ثياباً جديدة"، استعاد صوته خشونته، "ابكِ الآن حتى تختنق، أنت كلب نتن عفن!".

حل المساء تماماً خلال الدقائق القليلة التي استغرقتها للوصول إلى زاوية الشارع. كل المتاجر علقت أضواء مشعة في الخارج وبدا الشارع النشط أكثر ابتهاجاً من العادة. ومع ملاحظتي الازدحام وبطء حركة السيارات، خمّنت أن حسين ما كان ليظهر في وقت قريب. سرت إلى التقاطع التالي. لم تتحمل أصابع قدمي الوقوف بثبات وأكد حذائي المطاطي من جديد لي أنه كان خياراً خطأً لشتاءات طهران. ولأحافظ على الدفء، دخلت واحداً من أكثر المتاجر ازدحاماً وأنا آمل ألا يلاحظني أحد.

"كيف يمكنني مساعدتك؟".

اقترب مني صبي قبل أن يختفي البخار الخارج من فمي. إذا لم تكن زبوناً، أنت غير مرحب بك خاصة في ذاك الموسم حيث يسود الازدحام.

خرجت دون أن أزعج نفسي بالرد على الصبي الذي قرأ في وجهي أنني كنت أبحث عن مأوى لا عن بضاعة.

ظهر حسين في الشارع بعد بضع دقائق. أرادني أن أتبعه. جعلت مشيته التي تشبه مشية تشارلي تشابلن من الصعب على نشاطات كلّيتنا أن تأخذ رفقة صاحب الأقدام المسطحة هذا على محمل الجد.

بدا رأسه المفلطح غير متناسب مع بنيته الضعيفة. تأكد بلغة جسده أنني كنت أتبعه دون لفت الانتباه.

صعد إلى سيارته Peugeot 504 المركونة جانباً. لم أعرف ماذا يفترض بي أن أفعل حينئذ. هل يفترض بي أن أنفذ الخطة الأساسية باستئجار سيارة أجرة، أو يمكنني فقط أن أصعد إلى السيارة اللعينة؟ كنت مبللاً وأشعر بالبرد، وصبري بدأ ينفد تجاه حسين الذي يتصرف مثل بوند. سرت نحو سيارته وصعدت.

"ما الذي تفعله؟"، قال معترضاً، "أخبرتك...".

"انطلق فقط وانعطف يميناً عند أول إشارة"، قلت.

لم يوبخني لكنه تابع تصرفه الغامض.

"أظن أننا بخير"، قال وهو ينظر إلى المرآة العاكسة أمامه، "تأكدت أنه ليس هناك من يتبعني".

"وجدت شيئاً"، قال منهياً حالة الترقب، "أظن أنه كتيّب للينين". عدّل المرآة العاكسة من جديد.

سامحته. وفوراً شعرت بالدفء الثوري يتدفق في أصابع قدميّ. ربما كان مكيف السيارة هو المسؤول عن هذا لكن إيجاد أطروحة لينين في مكان ممنوعٌ فيه مجرد ذكر اسمه كان أمراً كافياً لجعل الفرد يتعرق.

"كيف حدث ذلك؟"، سألته وأنا أتفحص المرآة العاكسة بنفسي هذه المرة.

"كنت في زيارة إلى صديق قرب محطة السكك الحديدية. وبعد أن غادرت أدركت أنني تركت كتاب الديناميك الحراري في بيته. أنت تعرف: أردت فعلاً أن أدرس خلال العطلة وألحق بالبقية.

بطريقة ما، لم أستطع أن أفهم القانون الثاني. القانون الأول واضح تماماً لي، لكن عندما يتعلق الأمر بالقانون الثاني، تحديداً كفاءة آلة كارنو، أضيع".

"ماذا عن لينين؟"، قاطعته، "حسين، أخبرني عن الكتيب".

"توقفت عند هاتف عمومي لأكلمه وأسأله عن الكتاب، كتاب الديناميك الحراري. دخلت كشك الهاتف وانتبهت أن هناك كتيباً محشوراً خلف الهاتف. سحبته خارجاً وفي الظلام رأيت اسم لينين عليه. كان ذلك عندما اتصلت بك. تأكدت أنه ليس هناك من يلحق بي. قد يكون فخاً. ظننت أنهم ربما يلحقون بأي شخص يأخذه. لكني كنت حذراً جداً. مستحيل أن أكون ملاحقاً".

كلما أصر على أنه أخذ الاحتياطات، زاد قلقي. بدا الأمر كأنه خطط كل شيء حتى اللحظة التي أقلني فيها، لكن ما قد يحدث بعد ذلك متعلق بي. نقل إليّ شعلة الخوف. كان عليّ الآن اتخاذ القرار فيما إذا كان آمناً أن نتوقف في مكان ما ونلقي نظرة على الكتيب. يمكننا أن نعود إلى منزلي، لكن ماذا إن كانوا يلحقون بنا؟ كانت العودة إلى منزل أيٍّ منّا خارج النقاش. لكن إذا كان هذا فخاً، فقد أكل حسين الطعم فعلاً. يمكنهم بسهولة أن يجدوا عنوان منزله من صحيفة ترخيص السيارة. وكونهم لم يعتقلوه فوراً، هذا لأنهم أرادوا أن يعرفوا بمن سيتصل. ذلك قد يكون أنا. لكن لن يكون لديهم عنوان منزلي. كنت ضائعاً أتخبط في الخيارات التي تحفظ أمننا. البديل الأكثر منطقية كان الذهاب إلى منزل حسين، وهو شيء لا يمكنني اقتراحه. قد يبدو من الجبن أن أقترح الذهاب إلى منزل أبويه. أحياناً يكون فعل الأمر الخطأ أهم من أن نوصف بالجبن. لا أحد يريد أن تكون تلك الصفة في تاريخه الثوري.

يمكننا أن نركن السيارة في مكان ما ونلقي نظرة على الشيء، لكن الخطر إذا كانوا يلاحقوننا؛ سيلقى القبض علينا عندها ملتبسين بالجريمة.

"وجود ازدحام هو أفضل حماية لنا"، قلت لحسين بهدوء، كأنني كنت أعرف بالضبط ما الذي أتحدث عنه، "على الأرجح لا أحد يتبعنا، لكن دعنا نجري زوجاً آخر من الدورات ونركن قرب شارعي. نحن فقط سنأخذه ونسير إلى متجر ونلقي عليه نظرة تحت الضوء ونرى ما لدينا".

لم يستطع حسين إخفاء شكوكه، لكن صوتي الواثق لم يترك مجالاً للنقاش.

خرجنا من السيارة وسرنا باتجاه أرصفة سلسبيل المزدحمة بقوة. توقف المطر المتجمد ولفح الهواء الرقيق البارد وجهي الحار. قلت لحسين إننا سنتجه نحو متجر معجنات ونشتري بعض المكسرات. يمكننا أن نلقي نظرة على الكتيب بينما ننتظر الموظف ليساعدنا. سيكون هناك على الأقل خمسة عشر شخصاً أمامنا، الأمر الذي سيعطينا وقتاً كافياً لتفحص الكتيب دون إسراع.

"هل عليّ أن أخرجه الآن؟"، سأل حسين بعصبية حالما وصلنا، متظاهراً بالنظر إلى بعض التين المجفف الموضوع في سلة كبيرة أمام المتجر.

"أين هو؟"، قلت وأنا أبتسم.

كان قد دسه في ملابسه الداخلية، ما جعل من الصعب عليه إخراجه. وصلت إلى تحت سترته العسكرية الثقيلة وسحبت الكتيب. نظرنا إليه تحت ضوء المتجر المشع.

"ما هذا؟"، بدت لغة حسين أكثر ظرافة من أي وقت مضى.

"كيف يمكنني مساعدتكما؟"، سألنا صبي.

"نريد رطلاً من التين المجفف و..."، لم يستطع حسين أن يتوقف عن الضحك.

"هل ستشتري شيئاً؟"، سأل الصبي مصدِراً إنذاراً نهائياً.

"رطلاً من التين المجفف ورطلاً آخر من المكسرات المشكّلة".

طغت الحروف الكبيرة العريضة "V" و"I" و"L" على صفحة غلاف الكتيب المجعدة، وقد جعل المطر والثلج الحروف الباهتة المكتوبة بالخط الأصغر غير مقروءة. اعتبر حسين الحروف V.I.L على أنها اختصار لفلاديمير ألييتش لينين، وكان ذلك دليلاً كافياً في ذاك الضوء المعتم لكشك الهاتف لدعوتنا إلى تلك المعاناة. في الضوء المشع للمتجر، ظهرت حروف: Virtues of the Immaculate Lord (فضائل الرب الطاهر)، آخر ما يمكن أن يخرج من عقل لينين الكافر. دسست الكتيب بين سلال التين والأناناس المجفف على أمل أن يجدها الشخص المناسب في النهاية.

"إذاً، كنت تخبرني عن القانون الثاني في الديناميك الحراري؟".

طلب مني ألا أبوح بهذه القصة على الأقل لثلاث سنوات.

ما لم أقله لحسين أمولي أنني وجدت فعلاً نسخة من كتيب لينين **ما العمل؟** عرفت حسين فقط منذ فصل واحد وما زلت بحاجة إلى بناء أساس أقوى للثقة به. تغيرت مودتنا في تلك الليلة، لكن شكاً لا مبرر له بقي يزعجني.

خلال أسبوع الامتحانات في بداية آذار/ مارس، كانت المكتبة والمقاهي في حرم الجامعة مكتظة بالطلاب الغارقين في كتبهم وملاحظاتهم الصفية لمراجعة أخيرة. نادراً ما حضرت صفوف الفصل الأول، فليس لدي دفاتر لأدرسها، ولا أعرف أي رفاق صف لأدرس معهم. كنت منشغلاً فقط في إيجاد طريقة للحصول على التقدير "C". قد لا تكون عبارة أن أحصل على التقدير "C" هي المناسبة. عليّ القول الحصول على التقدير "C" بأي وسيلة ممكنة. قضيت معظم وقتي في مقهى الطلاب في كلية هندسة النسيج والبولمير، مكاني الأساسي. سكبت لنفسي فنجان شاي بعد الآخر من السماور المغلي وفوقه إبريق شاي. راقبت الآخرين يقرؤون دفاترهم بحماسة، بينما أجلس بهدوء أقرأ أي كتاب مهم يمكنني أن أحصل عليه من مكتبة الطلبة. أحياناً كنت أشعر أنني مستثنى من النقاشات الساخنة عن معضلة كيميائية أو مسألة في المرئيات. بينما ناقش رفاقي المعادلات الرياضية، كان لديّ مخطط مختلف: كنت أناضل لحل مسائل العدالة المعقدة.

شغّلت عقلي وكليتيّ بالجلوس للقراءة في المقهى. وبعد أن ذهب الجميع، غادرت مع مثانة ممتلئة ومأزق حول امتحان التفاضل والتكامل في الصباح التالي. فرغت الكلية. ذهبت إلى الحمام في الطابق الأرضي. أغني بصوت عالٍ وأحاول إتقان هدفي. لاحظت قطعة من الورق مطوية بعناية تبرز من خلف خزان الماء فوق المرحاض. بعد أن انتهيت، سحبت الورقة وفتحتها. دهشت بالمطرقة الحمراء والمنجل مع صورة صغيرة للينين في الأعلى، وبالخط المائل عبارة **ما العمل؟** تتوج رأسه. كانت قطعة كبيرة من الورق الجيد، مع صفحات يظهر على جانبيها طبعة إبهام. كانت كتاباً كاملاً على صفحة واحدة. الجزء الوحيد الأكثر أهمية الذي كنت بحاجة إلى أن أقرأه وكان واضحاً هو صفحة الغلاف. الصفحات الصغيرة الأخرى لم تكن واضحة.

شعرت بثقلٍ في رأسي وبدأت ركبتاي ترتجفان. شعرت بالحرج من تهوري بفتح الورقة دون الانتباه إلى الضجة التي سببها ذلك في الحمام. أياً كان من وضعها هناك سيعلم أنني وجدتها. فقدت هدوئي وزاد رعبي على نحو مؤلم. كنت كأنني قاتلٌ متهور يحاول أن يهيئ جسد ضحيته. بقيت في المقصورة متظاهراً أن حاجتي إلى التبول تحولت إلى التغوط. حتى أنني جلست القرفصاء لأجعل السيناريو أصدق بالنسبة إلي. طويت الورقة وأعدتها حيث كانت. فتحت الماء مرتين. صفرت وخرجت دون مبالاة. بينما أنا أغسل يديّ، نظرت في المرآة لأتأكد أنني كنت وحيداً. لم يكن هناك أحد، لكن فكرة أن تلقي شرطة الشاه السرية، "السافاك" السيئة السمعة، القبض عليّ بقيت ترعبني. رغم أنني أعدت الكتيب، ما زال بإمكانهم أن يشتبهوا في.

لم يكن هناك أحد في الخارج. كان الظلام قد حل وبدا حرم الجامعة خالياً. مشيت ببطء إلى المكتبة ودققت بحذر لأرى هل هناك من يتبعني. أستطيع الانتظار حتى الغد، لكنني سأخسر عندها فرصتي في أخذ الكتاب. استمر حذري بضع دقائق فقط وتلاشى بسرعة. عدت إلى الحمام الفارغ، وكلصٍّ خبير لم أتعجل. أخذت الإعلان ودفعته داخل جوربي. تصرفت كما لو كنت أفعل هذا منذ سنوات. عرفت أن عليّ أن أكون حازماً؛ كبحت خوفي، وتصرفت مثل ثوري أصيل.

انتهى أسبوع الامتحان مع آمالي بالحصول على معدل 2.0. ومع درجتي D، استطعت أن أصبح على قائمة الاختبار، كنت الطالب الوحيد في صفي بعد فصلي الأول الذي حصل على معدل 0.8 مخيب.

بدلاً من التفكير في معدلي، انشغلت بإيجاد طريقة لقراءة جوهرتي الجديدة. احتجت نظارة مكبرة جيدة ومكاناً يمكنني أن أقرأ فيه دون أن يلاحظني أحد. كانت الرغبة التي لا تحتمل في تشارك ما أملكه تجعلني متململاً. كان في غرفتي نسخة من كتاب **ما العمل؟** ولم أستطع قراءتها. بدا هذا، آنذاك، بالنسبة إلى ثوريّ شاب، بمنزلة التعذيب.

اقتربت من كاوه، أعز أصدقائي، في اليوم الأول من الدراسة بعد العطلة، وهو طالب في السنة الثالثة من كلية التعدين، وأخبرته قصة حصولي على الكتيب. شدّ شاربه الكثيف واستمع باهتمام شديد. وعندما انتهيت بقي صامتاً لبضع ثوانٍ طويلة قاتلة.

"لا أعرف"، غمغم على نحو عفوي تقريباً كطريقة لطلب المزيد من الوقت للتفكير.

استطعت أن أشعر بطاقة الخلايا العصبية في دماغه ترسل رسائل مسعورة إلى خلايا حكمه طلباً لرد صحيح.

"احم"، دمدم دون قرار. كيف يمكن له، هو الرفيق الخبير الذي دفع مسبقاً ضريبة ستة شهور في سجن "السافاك" ثمناً لخطأ أحمق حين عبّر عن إعجابه بالفدائيين الشيوعيين في رسالة إلى صديق، أن يثق بي، أنا الجديد؟

أخبرته أنني انتظرت كل هذا الوقت لأتأكد أن الورقة لم تكن فخاً. كنت قد أخذت كل الاحتياطات الممكنة؛ كان هذا حقيقياً.

خشيت من رده دون أن أعرف لماذا. كنت أستطيع أن أقرأه بمفردي ولم أكن بحاجة إلى شخص آخر لمساعدتي.

"ما هو حجمه؟"، سأل بنبرة من يريد شراءه.

أخبرته عن الحجم وكم هي الطباعة صغيرة وأنه من المستحيل قراءته دون وسيلة مساعدة.

"هل لديك نظارة مكبرة جيدة؟".

قرأنا أفكار بعضنا بعضاً. سيكون من المستحيل الاطلاع على غنيمتي في المنزل دون أن ألفت انتباه أبويّ وليس هناك مكان آخر في هذا البلد اللعين يمكننا أن ننشر فيه هذه الصفحة المدمرة الكبيرة والتهام هذه الكلمات الصغيرة جداً ذات الأهمية الكبيرة.

في نهاية الأسبوع، وصل كاوه إلى حل. عرفت أنه سيفعل. كان كل شيء لم يكنه حسين أمولي. فهو لا يظهر تردده أو تحفظه أبداً، حتى عندما يكون غير متأكدٍ من أفعاله. أظهر شاربه الستاليني وجبهته الواسعة ذاك النوع من الثقة الذي أردته جداً في تلك اللحظة. لم يعرف التردد طريقاً إلى عالمه. طرح الأسئلة وعلم أن هناك كتيبات من ذات الشكل ظهرت في أنحاء حرم الجامعة. وعانى الآخرون المأزق نفسه: كيف يقرؤونها دون أن يلفتوا الانتباه. علم بوجود أداة ممتازة لغرضنا:

عدسة مكبرة مع مصباح كاشف. أخبرني وهو يحاول كبح حماسته. "يمكنك أن تقرأ تحت البطانية في الليل، فعل الآخرون ذلك بسهولة، والبطارية تدوم أكثر من أربع ساعات".

نسيت في الحال أن لدي اختباراً أكاديمياً، وأدركت أن الفصل الجديد لن يكون الفصل الذي سيرفع معدلي. تخيلت فصلاً دراسياً فاتناً من الليالي التي تخلو من النوم برفقة أنبياء الثورة بوجود الكتيبات الأخرى التي توزع.

أخرجني كاوه من أحلام يقظتي بطرحه لسؤال كيف نشتري أدوات القراءة الخاصة هذه. "عاجلاً أم آجلاً"، عبر عن رأيه، "سيكون لديهم شكوك حول كل هذا الاهتمام الجديد بهذه العدسات المكبرة". فجأة أصبح شراء عدسة مكبرة قضية أكثر ضغطاً من الأمن. سألته كيف ومن أين اشتراها الآخرون. لكنه لم يكن بحاجة إلى أن يجيب سؤالي، بما أنني فهمت أن جواباً قد يكشف المصادر التي يجب أن تحرس بسرية فائقة.

الصفوف الوحيدة التي استمتعت بها في منهاج الهندسة كانت الورشات الصناعية والمخابر. لم أختر دراسة هندسة النسيج لأنني أكن حباً خاصاً لهذا المجال، وإنما لأنني عرفت أن عمال النسيج والملابس تحديداً تزعموا كفاح الطبقة العاملة من مومباي إلى مانشستر، مروراً بسان بطرسبرغ، ونيويورك، وشيكاغو (للأمانة، يجب أن أكشف عن علاقة حب، يجب أن تبقى مخفية حتى الآن، وقد أثرت كذلك في قراري). فكرت أنني إن أصبحت مهندس نسيج، فهذا يمكن أن يقدم غطاءً "عضوياً" على كوني جزءاً من هذه الحركة في بلدي. وقواعد التعليم في جامعتنا تقول إن المهندس الجيد هو العامل الجيد قبل كل شيء. كما قال لنا أحد مدربيّ في الورشة ذات مرة: "لن يأخذ العامل أي مهندس على محمل الجد إن لم يستطع لحم قطعتين من الأنبوب معاً".

سجلت في مختبر كيمياء الألوان في ذلك الفصل رغم أنني لم أجتز الشروط ولم أنهِ الكيمياء 1. وخلال الأسبوع التالي، شرحت لنا الآنسة كومار، تقنية المخبر الهندية، أن بعض الخيوط الصناعية يمكن أن تفقد تماسكها ولونها إن عرِّضت للضوء خلال الصباغة. لا أذكر شيئاً آخر مما قالته أيضاً في ذاك اليوم، لكن عرفت أنني وجدت أفضل غطاء لشراء المصباح الكاشف ذي العدسة المكبرة الذي نحتاجه.

قلت لكاوه إنني كنت بحاجة إلى شراء عدسة مكبرة مع مصباح كاشف من أجل مختبر كيمياء الألوان. وكان ذلك حقيقة! "أنا طالب هندسة نسيج"، لعبت دوري، "وأنا بحاجة إلى شيء يستخدم في الظلام من أجل رؤية اللون وتماسك خيط الغزل عن كثب أثناء الصباغة". وليسايرني، قال إنه كان بحاجة إلى الشيء نفسه ليستخدمه عندما يفتش الأنفاق في المناجم. كنت أميل إلى الذهاب إلى المتجر الذي يؤمن أدوات الفن والهندسة البعيد وطلب الجهاز. لكن كاوه أقنعني أن الذهاب إلى مكان خارج طريقنا سيثير الشكوك. فإذا كان استخدامنا للأداة شرعياً، لماذا علينا ألا نشتريها من مخزن قرب الجامعة؟ وكان محقاً بالتأكيد. هل يطلب "السافاك" من مخازن الأدوات الهندسية أن تقدم تقريراً بمبيعاتها لمثل هذه الأدوات إلى الشرطة السرية؟

ذهبنا في اليوم نفسه إلى المتجر الكبير قرب موقف حافلتنا عند جادة حافظ. أخبرت الموظف بمعضلتي في المختبر. قال إن لديه الأداة المطلوبة والمصنوعة تماماً لمثل هذا النوع من الأغراض. وضعت كتابي الدراسي على المنضدة ليكون واضحاً تماماً قبل أن أتفحص الأداة. وبينما نتفحص الكاشف الذي أعطاه لنا، قال إنهم يملكون أنواعاً أخرى بعدسات أقوى وضوء أسطع. لكنهم بيعوا جميعاً. كانت العدسة المكبرة الجميلة مع مصباح هالوجين صغير مركب تحت حافتها هي السلاح

الذي كنا نبحث عنه. رفعته عالياً بمقبضه الأسود وأدرت زر التشغيل والإطفاء الأصفر لتفحص ضوئه الذي وعد بعدد من ليالي القراءة السرية بلا نوم.

"هل هناك تخفيضات للطلاب؟"، سألت محاولاً التأكد أنهم لم ينسوا غرضنا من شرائه.

"لسوء الحظ"، اعتذر، "سعره مخفض سلفاً".

كنا مستعدين لدفع كامل مصروفنا كطلاب لشهر ثمناً له.

قال كاوه إنه يجب ألا نحتفظ بالكتيب مدة طويلة، ليس لأسباب أمنية فقط، وإنما لنتأكد أن الآخرين سيحظون بفرصة قراءته.

"يقولون إننا سوف نتلقى كتباً أخرى بالشكل نفسه".

هززت رأسي باستحسان فقط دون أن أبوح برغبتي المستعصية في الاحتفاظ بالنسخة التي وجدتها لنفسي.

"كم صفحة هو؟"، كان كاوه قد خطط مسبقاً لقراءته.

لم يكن لدي فكرة بما أن رقم الصفحة كان صغيراً جداً ليرى، لكن ظننت أنها يمكن أن تكون تقريباً بين 150 و160 صفحة. أخبرته أنني أحتاج أسبوعاً لقراءته.

عندما أُطفئت كل الأضواء في منزلنا تلك الليلة، سحبت الغطاء فوق رأسي، وأضأت المصباح السحري. فتحت الكتيب بطريقة سمحت للصفحات العشرين الأولى أن تكون على السطح وبدأت القراءة. تحت العدسة المكبرة: بدن صفحة الغلاف مثل ملصق عملاق، مع صورة فلاديمير أليتش لينين في المركز وعنوان الكتاب منقوشاً كقوس فوق رأسه: **ما العمل؟**

نظرية التطبيق

من الجيد استخدام اسم حسين أمولي! فهو لم يعد ناشطاً بعد الثورة على أي حال. أغلب الظن أنه سافر إلى الخارج. ألا تذكر كم كان جاداً في إنهاء دراسته الجامعية؟ ما هو عدد الأشخاص الذين تعرفهم ممن التزموا الثورة وحصلوا على شهاداتهم؟ ولا واحد. لقد رحل.

لكنني قررت أنه يمكن تأجيل هذا. كان محمد شافعي كافياً حتى الآن. وضعت الكتاب بحذر تماماً كما كان. خشيت أنهم تركوه هنا لإغرائي بأخذه. بدا كأن **ما العمل؟** والإغراء كانا مرتبطين معاً دوماً.

لم يكن لدي شيئاً آخر لأكتبه. عاد المحقق بعد عدد غير معروف من الساعات.

"هل تريد شيئاً؟".

"لا، أنا بخير". كان ذلك السؤال الوحيد الذي طرحه.

"جيد! أخبرني إن احتجت شيئاً". غادر دون أن يبدي اهتماماً بإجاباتي. فكرت أنني كنت بحاجة إلى أن أرد إليه جميله. ماذا يمكنني أن أضيف إلى ما كان مسبقاً على الورقة؟

لماذا أشعر أنني مدين له بشيء ما؟

كلما اقتربت من الجدران أكثر، رأيت أسماء جديدة. حتى أسماء أولئك الذين لا أعرفهم باتت مألوفة لي الآن. عرفت أن كل هؤلاء الناس ماتوا. أنا فقط عرفت. لم أكن أريد أن يظهر اسمي قرب أي منهم. لكنني بعفوية تقريباً بدأت أكتب اسمي بحذر قرب اسمر مُهري، وهي امرأة كنت أعرفها وكانت تستحق معنى اسمها: اللطف. ثم، بالحذر نفسه، خدشت لإزالته.

هل يراقبونك؟ آمل أنهم يفعلون. أنت تتصرف كرجل مجنون. سيفيدك هذا... إذا ظنوا أنك جننت. ربما أنت كذلك. لا، لم أجن. أنا أعرف ما أفعل. هل تعرف حقاً؟

"ارجع إلى مقعدك".

جهّزت نفسي للكارثة التي تنتظرني. لم يكن لدي شيء لأعرضه على المحقق؛ مجرد بضعة أسطر بدت، حتى لي، محاولة طفولية لكسب الوقت. مدّ نفسه من خلف كتفي وأمسك الورقة. زفر هواء الإحباط من أنفه. تمعّن فيها لثوانٍ قليلة.

"لم تقل شيئاً عن أطروحتك التي كتبتها".

"أي أطروحة؟".

"ظننت أنك كتبت 'النظرية والتطبيق'. ألم تفعل؟".

طلب مني أن أضع العصبة على عيني قبل أن أتمكن من الخروج بإنكار آخر.

"لا بأس. سنتحدث عنها في الغد. لدي فضول حقاً لأسمع ما كانت حجتك فيها. لكن الوقت تأخر جداً الآن. دعنا نتحدث عن ذلك في الغد".

مرة ثانية كان الجميع نائماً عندما دُفعت داخل زنزانتي. رحب رجل ذو وجه حزين بعودتي هذه المرة بهدوء. "احتفظنا لك ببعض العشاء". لا أستطيع الأكل. كانت معرفة المحقق بـ"النظرية والتطبيق" هي كل ما يمكن لمعدتي أن تحاول هضمه الليلة. "لا، شكراً. لست جائعاً".

"كُل صديقي، كُل. سيساعدك ذلك في التفكير بوضوح أكبر".

"أنا بخير".

لف قطعة من الخبز اليابس حول قطعة صغيرة من الجبن وقدمها إلي. "أنا فرهاد".

مضغت الخبز القاسي وحاولت أن أدفعه عبر حنجرتي. ناولني فرهاد كأساً بلاستيكياً قديماً فيه ماء وهو يعرف تماماً ما الذي يدور في رأسي وفي فمي. ”آسف الخبز ليس طازجاً والجبن قديم. لكنه جيد لك. سيحل العقدة في دماغك وفي معدتك“. لم أكن أريد التحدث، ولم يبدِ فرهاد فضولاً كذلك. كنت بحاجة أن أستلقي وأفكر. ابتلعت الخبز مع الجزء الصغير من الجبن عليه وزحفت إلى بطانيتي غير مهتم لا بفرهاد ولا برفاق الزنزانة الآخرين.

عرف بعض الناس فقط أنني كنت مؤلف ”النظرية والتطبيق“. أدركت الآن أن اسمي المستعار لم يكن الشيء الوحيد الذي يعرفه المحقق عني. حتى حسين أمولي الميت لا يمكنه أن يساعدني في تأليف رواية منطقية حول نشاطاتي قبل إغلاق الجامعات وبعده. فكرت في كل المشتبه فيهم المحتملين وكيف كانت علاقتي بهم. ما الذي عرفه كل واحد منهم عني وكيف يمكنني أن أبتكر قصة قابلة للتصديق في كل حالة، ليس لحماية نفسي فقط وإنما لإنقاذهم أيضاً.

استيقظت على صوت المفتاح يدور في قفل الباب. لم أتحرك. هزني فرهاد، الذي كان نائماً قربي، بلطف بينما هو يتحدث إلى الحارس. ”لقد أعدته للتو“. جلست ورأيت يد الحارس تدفعني للاستعداد للذهاب. استيقظ الآخرون أيضاً معتقدين أنه كان وقت حمام قبل الفجر.

”الحمام؟“، سألت الحارس.

”ليس لك. البقية يمكنهم الذهاب إلى الحمام“، نظر إلى الجانب الآخر من الزنزانة، ”وليفعلوا ذلك بسرعة“.

عصبنا عيوننا جميعاً وخرجنا. انتظرت إلى الجانب الأيمن بينما أخذ الحارس البقية باتجاه الحمام في النهاية الأخرى للصالة. رغم أنني لم ألتقِ بعد بقية رفاق حجرتي الخمسة، تمنيت أن أستطيع الذهاب معهم.

كان الوقت تقريباً بين الرابعة والخامسة فجراً. أمضيت في حجرتي ربما ساعة أو اثنتين قبل أن يستدعيني المحقق مجدداً. من أسفل عصبتي، رأيت صفاً من السجناء يستلقون إلى جانبي القاعة تحت بطانيات رمادية سميكة. جميعهم سحبوا البطانيات فوق وجوههم بحيث كان بإمكانهم أن ينزعوا عصباتهم ويريحوا عيونهم المتعبة. أمسك الحارس ذراعي ومشيت نصف خطوة خلفه. ورغم أنني تحركت بثبات، شعرت أن مركز الأوامر في دماغي كان مفصولاً عن ساقيّ اللتين تحركتا على نحو لا إرادي.

دخلت غرفة التحقيق نفسها وجلست على الكرسي نفسه مع الشعار: ”هذا أيضاً سيمر!“. اعتدت أن أستاء من هذه الكلمات. مثّلت لي عبارة موت. كانت تلك هي الطريقة الوحيدة التي تخيلت فيها أن ظرفي سينقضي. لكنها منحتني هذه المرة إحساساً بالاستمرارية والراحة. عرفت أنني كنت في الغرفة نفسها وأعطاني ذلك بوصلة في ذلك العالم المربك.

”صباح الخير!“، قال محققي وهو يدخل الغرفة.

”كيف كان نومك؟“... ”هل حصلت على بعض الوقت لتفكر في الأسئلة؟“... ”هل تحتاج شيئاً؟“.

”الحمام، هل يمكنني الذهاب إلى الحمام“.

كانت الكتب لا تزال في الحمام. لم يعد كتاب لينين في الأعلى. كان هناك روايات معظمها من نوع الواقعية الاشتراكية السوفياتية. كان هناك نسخ من رواية *And Quiet Flows the Don* [الدون الهادئ] لشولوخوف، الرواية المفضلة لستالين كما علمت ذات مرة، وروايته الشعبية الأخرى *Virgin Soil Upturned* [أرضنا البكر]. أمّنت كل منها أساساً صلباً لعمود الكتب. كان مجلد ماركس الأول **رأس المال**، بنسخته ذات الغلاف الأبيض التي باعها جميع بائعو الكتب على جانبي

الطريق من جامعة طهران في وقت الثورة، جلس في القمة هذه المرة. حمل ثقيل ليحمله العمود. رواية إينياتسيو سيلونه الذي كان ضد الفاشية وضد الستالينية، واحدة من رواياتي المفضّلة، *Bread and Wine* [خبز ونبيذ]، و*Fontamara* [فونتمارا] الرثائية. افترضت أنهم صادروا الكتب من شخص له ذائقة انتقائية. كان هناك عمودان من الكتب التي تتحدث عن ماهية التيارات الشيوعية: مجلدات ماو تسي تونغ الصغيرة حول مدلول الماركسية، مجلدا السيرة الذاتية لميلوفان ديلاس *Land without Justice* [الأرض بلا عدالة] و*Memoi r of* a *Revolutionary* [مذكرات ثوري]، وكذلك بيانه العام ضد السوفيات *The New Class* [الفئة الجديدة]...

"أي نوع من الخراء تأكل في الداخل؟"، صاح الحارس.

أعطتني زيارتي إلى المكتبة فرصة للتفكير في "النظرية والتطبيق".

ماذا يعرف عنها؟ يجب أن تعترف أنك ألفت تلك الدراسة. لكنه سيطلب عندها معرفة المزيد. ليس هناك المزيد. أي شيء سأضيفه سيزيد الجرم أكثر. وإذا أنكرت، أنت ببساطة تضيف ذلك إلى عداوته وتجعل من الأصعب عليه أن يصدق أي شيء تقوله. لماذا أحتاج أن يصدق أي شيء أقوله؟ ليس لديك إستراتيجية. تلك هي المشكلة. لا أعرف هل عليّ أن أرفض التحدث مطلقاً وأستعد أن أقتل تحت التعذيب، أو أنني يجب أن أجد طريقة لاكتشاف حدود ما يعرف وما أريد أن أتشاركه معه. لكن أنت لا تعرف كيف تكتشف حافات هذه الحدود. لا تقل شيئاً الآن.

شعرت أنني جلست في غرفة التحقيق ساعات أخرى قبل أن يتذكر أحدهم أن هناك شخصاً في الغرفة.

"اذهب إلى زاويتك". كان هذا وقت الإفطار. وُضعت صينية الألمنيوم على الأرض وفوقها، كأس من الشاي الساخن بلا لون، وقطعة من الخبز، وقطعة صغيرة من الجبن. لم يكن الشاي الذي يبعث البخار ساخناً كما بدا. يمكنهم هنا أن يجعلوا حتى الفنجان الفاتر من الشاي يبدو إبريقاً يغلي. الأشياء والناس فعلوا أشياء غريبة هناك. سمعت مرات عدة من محققين مختلفين أن بإمكانهم جعل السجين يغني مثل العندليب. في الحقيقة أنا لم أسمع غناء العنادل أبداً، ولا أيٌّ من أولئك المحققين سمعها؛ لكن كان مفهوماً بيننا أي نوع من الغناء كانوا يقصدون.

عاد المحقق قبل أن أنهي فطوري. "كيف كل شيء؟"، سأل بمرح. واعتذر عن تأخره. "دعني آخذ صينيتك". دفعت القضمة الأخيرة من الخبز داخل فمي وأجبرت نفسي على ابتلاعها بمساعدة القطرات المتبقية من الشاي. أخذ الصينية ووضع قطعة جديدة من الورق مع أسئلة جديدة عليها أمامي. "كنا صبورين جداً معك، أنت تعرف". كانت تلك المرة الأولى التي استخدم فيها نبرة تهديد.

"لست بحاجة حقاً أن تخبرني أي شيء. نحن فعلاً لدينا سجلك الكامل في ملفاتنا. نعرف مع من عملت، وماذا كتبت، وكم اجتماعاً نظمت، وكيف قدت مجموعات قراءة عدة أنت سميتها. لكن أريد أن أعطيك فرصة لتصبح نظيفاً. انسَ فكرة إعطائي أسماء أشخاص ميتين، تلك فكرة قديمة. أنا فعلاً لا أريدك أن تعطيني أي أسماء. مرة ثانية هذا عائد إليك. نحن بحاجة أن نحدد هل تغيرت وتريد أن تصلح الضرر الذي سببته أنت ورفاقك للثورة، أو أنك تنوي الاستمرار في مخططاتك وعصيانك. قلت لك: طلبت أن أستلم هذه القضية لأنني رأيت وميض أمل هنا. لا تخيب أملي".

غادر الغرفة دون أن ينتظر جواباً. كانت الأسئلة الجديدة تتعلق بالقضايا نفسها التي قال سابقاً إنهم يعرفونها.

ما هو منصبك الرسمي في منظمتك؟...

ما كانت مسؤولياتك؟...

كم عدد الناس الذين التقيتهم بانتظام في خلوات قراءتكم؟...

اذكر أسماءهم الكاملة وعناوينهم:...
لمن كنت تقدم تقارير عن نشاطاتك في المنظمة؟...
اذكر أسماء، عناوين، مناصب:...
اذكر عناوين ومناسبات كل الكتيبات، الأطروحات والمنشورات الأخرى التي ألفتها:...

نبهتني الورقة الموضوعة أمامي فجأة أن هذا لم يكن طلب عمل وإنما تحقيقاً حقيقياً. بدوت مكشوفاً وبلا ملجأ. غمرني شعور بالخزي. توقعت أن أشعر بالغضب أو الخوف، لكن بدلاً من ذلك تخلل عظامي إحساس عميق بالعار. كنت محرجاً من بلاهتي. شعرت بالذل من ضعفي ومن السرعة التي كنت أخسر فيها لعبة الشطرنج هذه لمصلحة المحقق. رغم أنني ظننت أنني أفوقه ثقافة، كان يوجه إلي الضربات بسعادة ودون جهد. يفعل ذلك ببساطة، بسؤالي سلسلة من الأسئلة. لم أتمكن من لمس القلم. وضعته فوق الكومة الرقيقة من الأوراق التي تركها متوقعاً مني إجابات مفصلة.

ليس هناك ما يمكن قوله. واجه الأمر، إما تعترف وإما تموت. ليس الأمر بذاك التعقيد. هل أنت خائف من الموت؟ لا، أنا لست خائفاً من الموت. بصدق، أنا لست خائفاً من الموت. هل هو الألم، إذاً؟ لا، إنه ليس الألم. أنا لست خائفاً من الألم. أنت خائف من الألم. سيكسرون عظامك. سيفتحون نعال قدميك بسياطهم. أعرف كل ذلك، لكن بصدق، ليس ذلك ما يرعبني.

كان عليّ أن أقول شيئاً ما. من المستحيل أن أستمر في هذا الوضع مع محققي. قررت أن أقبل أي تهم خاصة يعلنها دون تقديم أي معلومات إضافية. عرف عن "النظرية والتطبيق"، إذاً، سأخبره عنها. كتبت:

أنا مؤلف "النظرية والتطبيق". كانت أطروحة كتبتها رداً على الأزمة الفكرية التي عزلتنا، نحن اليسار، عن الجماهير التي زعمنا أننا نمثلها.

ملأت أكثر من صفحتين حاولت فيهما أن أضخم الأمثلة عندما أقدم نقداً لليسار. تمنيت أن يُستخدم هذا النقد السابق كإشارة حقيقية إلى تحرري فعلاً من العمل السياسي الذي كنت متورطاً فيه. فكرت أنني أستطيع استغلال جهله باليسار لأظهر له أنني توقفت طوعاً وفعلاً عن العمل السياسي. لكن بعد التحقيق مع مئات ومئات السجناء، هل يمكن أن يكون لا يزال جاهلاً باليسار؟ كما عرفت، أُتلفت كل نسخ الأطروحة. تمنيت أن يكونوا حصلوا على نسخة من مكان ما. عرفت أنه سيكون صعباً عليهم أن يميزوا الفرق بين نوع النقد الذاتي الذي قصدته فيها، وبين التحرر من الوهم الذي يمكن أن يكتشفه الشخص مما كتبته.

كانت تلك المرة الأولى بعد أيام التي شعرت فيها أنني أستطيع أن أفكر بصورة صحيحة. لم يدم ذلك طويلاً. لم يكن لدي شيء لأقوله عن بقية الأسئلة. كتبت فقط بعض الأسماء والعناوين العشوائية حتى دون ترتيب يساعدني كي أكون قادراً على إعادة كتابتهم إذا طلب مني ذلك ثانية. على أي حال، ما كنت لأستطيع تذكر أي شيء في تلك الحالة من قلة النوم. لكنني حتى لم أحاول. عرفت أن ذلك بدا مصطنعاً على نحو فاضح ولذلك هو لن يأخذه على محمل الجد. تمنيت أن يجبره ذلك على إخباري بالأسماء التي عرفها. حصلت على وجبتين أخريين، وأكثر من ثلاث زيارات إلى الحمام (اختفت الكتب)، وأميال من السير جيئة وذهاباً في الغرفة. ولم يعد. ذهب.

في اليوم التالي، كانت المداخل الهادئة عادة تعج بالصخب. ومن الممكن سماع نداءات عالية للتحقيق خلال الممرات الصامتة نوعاً ما.

"أي غرفة؟".

"هل هي في 23؟".

"أبقه هناك؟".

"23 مشغولة".

"يريد الحاج كل واحد منهم في زنزانة مختلفة".

بدا من الاضطراب أنهم اعتقلوا مجموعة كبيرة استهلكت كامل انتباههم. بوقاحة، شعرت بالسعادة لأنهم كانوا مشغولين ببعض المعتقلين الآخرين "المعادين للثورة". منحني ذلك وقتاً أكثر. لكن الحصول على الوقت كان يصبح مكلفاً جداً.

لم أرجع إلى غرفتي تلك الليلة. كنت لا أزال في غرفة التحقيق عندما سمعت أذان الفجر، الدعوة إلى الصلاة. آلمني جسدي كله دون استثناء. أصبح السير أكثر صعوبة وكذلك مرور الوقت. كنت أحسب خطواتي عندما أمشي. أضاف تكرار العد إيقاعاً معيناً إلى الساعات الكئيبة. لكن تلك الراحة تبددت بسرعة.

استلقيت أخيراً على الأرض الباردة المغبرة وغرقت في النوم.

"هذا ليس فندقاً، يا ابن العاهرة"، قال الحارس الذي حمل الغداء وهو يركلني أسفل قدمي. استاء العديد من الحراس من حقيقة أنهم كانوا مجبرين، في رأيهم، على إطعام وإيواء مجرمين. "أنتم اخترتم أن تقوموا ضد الثورة"، قال لي أحد الحراس ذات مرة، "وتستحقون أن تموتوا. بالمال الذي ننفقه عليكم..."، عنفني، "يمكننا أن نؤمن آلاف الوحدات السكنية المحترمة للشعب".

لم يكن تقديم الطعام إلى المدانين نوعاً من الواجب الثوري الذي تعهدوه.

استمر الهرج والمرج خارج غرفتي. لم أرَ أبداً فوضى بهذا المقدار الذي سمعته في مداخل غرف التحقيق. أفسح ابتهاجي السري المجال لخوف شديد. أليس لي علاقة بالموضوع؟

أليس هذا ما أردته؟ ألّا يهتموا بك ويتركوك وحيداً. ليس لديك شيء مهم تقدمه إليهم. لكن ذلك جيد. أليس كذلك؟ ماذا تقصد بجيد؟ جيد يعني أنك لم تعد مسؤولاً عما يحدث لرفاقك. جيد تعني أيضاً أنه لا تعذيب. قلت سابقاً إنك خائف من التعذيب. أنا في الغالب خائف من عواقبه. الخيانة هي ما أخشاه، ذاك النوع من الألم. أنا خائف من العار، النوع الذي يمكن أن أجلبه إلى نفسي. أنا أيضاً أخشى أن يتركوا أي آثار للتعذيب على جسدي. لن يطلق سراحي أبداً.

أتى المحقق بعد ساعات. أخذ إجاباتي وقرأها بينما هو واقف خلفي. "إذا كنت بحاجة إلى مناقشة مواقفك، يمكننا عمل ذلك أيضاً. لكن كما تسمع لدينا الكثير من القضايا الأخرى لنهتم بها. أنت بحاجة إلى التعاون وأنسب وقت ذلك هو الآن". أعاد وضع الورقة أمامي، "أسماء وعناوين. اكتب عن ساسان ويوسف". غادر الغرفة.

كانت هذه أسماء مستعارة لاثنين من قادة مجموعتنا. صار لدي مفتاحٌ آخر. ظننت قبلُ أن امتلاك مفاتيح كثيرة سيجعل حل هذا أسهل. أدركت الآن أن كثرة الأجزاء تضخم الأحجية فقط. أدركت أيضاً أن كل الصخب خارجاً لا يؤثر في قضيتي. لكنه لا يهم. لا يمكن للقادمين الجدد أن ينقذوني. لم أكتب أي شيء عن يوسف أو ساسان. عرفتهم جيداً لكن حاولت ألا أعترف بتلك الحقيقة حتى لنفسي.

كنت بلا نوم. لكن دماغي رفض أن يتوقف رغم أنه كان تجاوز مرحلة الإرهاق. لم أستطع أن أصل إلى الخلايا العصبية التي يفترض أنها تنقل رسائلي إلى النقاط الأمامية المختلفة في جسدي، والتي بدا أنها أعلنت استقلالها وقاومت أوامري. لم أكن أطلب الكثير، لكنها كانت مشتركة في التفسير الحرفي لتقرير المصير. أملت أن تبقى كل تلك المعلومات التي أودعتها في خزينة ذاكرتي تحت سيطرتي بأمان من المواقف الهدامة لتلك الخلايا العصبية.

لم يتركني طويلاً مع تلك الأسماء.

"هل انتهيت؟".

"لا أشعر أنني بخير".
"ستشعر بحالٍ أسوأ إن لم تكتب".
"لا أتذكر أي شيء. أنا متعب ولا أستطيع أن أفكر".
"هل تحتاج حبوباً للذاكرة؟ أنت تعرف أن لدينا علاجات فعالة لفقدان الذاكرة. أليس كذلك؟ هل تظن أنك بحاجة إلى علاج؟ هل قابلت سيّد؟ تعرف أن سيّد أصم وأبكم. يعرف لغة واحدة فقط، لغة عالمية. هو يتحدث اللغة التي يفهمها الجميع. هو أبكم، لكن لديه قدرة فائقة على حل ألسنة أولئك الذين نسوا كيف يتحدثون".
طلب مني أن أضع العصبة وأخذني خارجاً إلى الفناء البارد. "انتظر هنا".
انتهى الأمر. عليك الآن أن تواجه حقيقة أنك لن تستطيع إنقاذ نفسك. لكن أنا مسبقاً عرفت ذلك، القضية هي كيف أستطيع أن أحمي الآخرين. ألا تثق بنفسك؟ لا. لا أعرف.
شعرت أن دماغي تحول إلى مصفاة. ستخرج الأفكار على نحو أسرع مما أستطيع أن أفهمه. انتبهت إلى وجود بركة نصف متجمدة في منتصف الفناء الدائري.
لا تدعهم يخيفونك بفكرة الغرق. ستتجمد حتى الموت قبل أن تغرق. يجب أن تعترف بكل شيء وتحرر نفسك من هذه المعاناة غير الضرورية. أياً كان مصدرهم فقد أعطاهم كل ما يحتاجون معرفته. ما الذي تحاول أن تثبته؟ أنا لا أحاول أن أثبت أي شيء. لا أستطيع أن أغامر في الوقوع في الفخ. إذا كانوا يعرفون كل شيء، لماذا يزعجون أنفسهم بمثل هذه التمثيلية. هل تصدق فعلاً هراءَ أنه يريد أن ينقذك من نفسك؟ لماذا؟ إذا كان يعرف كل شيء، فما الفرق الذي ستقدمه إليه إن أنت اعترفت؟
رأيت صفاً من السجناء يعبرون الفناء. "خذه، أيضاً". سمعت صوت محققي. "هل تريد أن تستحم؟"، سألني الحارس. كنت لا أزال أفكر في البركة وظننت أن الاستحمام كان مجازاً سيئاً لدفع رأسي تحت ذلك الماء المثلج. "لا"، قلت، "أفضّل أن أبقى جافاً وأعود إلى الداخل".
"ثم تذهب لتتذمر من أننا ندعوكم بالنجسين"، دفعني نحو آخر الصف.
دخلنا مخزناً كبيراً فيه عشر أو اثنتا عشر مقصورة استحمام. أدركت عندها أنني منذ اعتقلت قبل شهرين، استحممت مرة واحدة فقط بمياه إيفين الجليدية ولثلاث دقائق تماماً. على أي حال، لم يكن من الممكن إنسانياً الوقوف تحت ذاك الماء أكثر من ثلاث دقائق. تمنيت فقط ألا يسبب لي الماء هنا تسارعاً في القلب كما حدث في إيفين.
أعطوا كل واحد منا كيساً كبيراً لنضع ملابسنا فيه. كان مسموحاً لنا أن نزيل عصباتنا حالما ندخل المقصورات فقط. كان الماء بارداً وكذلك الهواء القادم من الخارج عبر النوافذ المكسورة قرب السقف العالي.
"لديكم عشر دقائق"، صاح أحد الحراس فبدأنا ضبط مؤقتاتنا الذهنية.
"أخي"، صاح أحد السجناء وذكرتني صيحته بسخافة علاقتنا مع سجانينا، "الماء بارد حقاً".
"اخرس! لا كلام في الحمام. إذا سمعت كلمة أخرى من أيٍّ منكم، ينتهي الحمام".
كان صوت السجين توراج دون شك. وكانت هذه المرة الثالثة التي تتقاطع فيها طرقنا في الأسر. رأيته أول مرة في السجن السري في أول يوم لاعتقالي. كان قد اعتقل قبلي بيوم. المرة الثانية وضعت معه في زنزانة صغيرة في إيفين تماماً قبل أن أبدأ جولتي الأولى مع التحقيق. والآن، كان على بعد مسافة مني في مقصورة استحمام أخرى. عرفت توراج عندما كنت في السنة الأولى في الجامعة، ثوري عنيد قليل الصبر على تعقيدات العالم النظري. رغم أننا كنا صديقين عزيزين، لم ننتهِ أبداً في الجانب نفسه من النقاشات النظرية والإستراتيجيات السياسية. لكن هذه الاختلافات كانت الآن واهية بما أن صوته أعطى روحي إحساساً بالاستمرارية والتماسك.

”الماء بارد“، قلت محاولاً إرسال إشارة أنني كنت هناك أيضاً. لكن صوتي افتقد النبرة العالية التي تميزه.

قطعوا الماء البارد. وبعد ثوانٍ قليلة، تدفق الماء المغلي فوق رؤوسنا. قفزنا جميعنا خارج مقصوراتنا خوفاً من الاحتراق. لبضع ثوانٍ، اختلط السجناء العراة والحراس الغاضبون ضمن البخار الكثيف.

”عودوا إلى الداخل، عودوا إلى الداخل“، صاح الحراس.

ركضت نحو توراج وأمسكت يده لثانية. تابع حديثه الصاخب عن الماء الساخن والبارد.

المنزل الآمن

كان ذلك قبل ثلاثة أشهر عندما سمعت صوت توراج في ذلك السجن المؤقت في بداية خريف 1981. "ارفع عصبتك إلى الأعلى قليلاً"، همس بصوت عالٍ، "يمكنك أن تختلس النظر من تحتها". كنت قد اعتقلت للتو وأجلس معصوب العينين على الأرض القاسية لقبو قديم تفوح فيه رائحة العفن والعرق. رفعت عصبتي قليلاً ورأيته في الجانب الآخر من الغرفة المزدحمة. "يبدو أنهم لم يتركوا أحداً إلا واعتقلوه".

ردت الحكومة الجديدة على موجة الاغتيالات التي طاولت كبار مسؤوليها بحملة إعدامات ضخمة منذ بداية صيف 1981. أصبحت تسمية المنازل الآمنة خطأً. إذ يثير أي شابين أو ثلاثة لا تجمع بينهم جذور مشتركة ويعيشون في مساكن صغيرة الكثير من الانتباه. في الأوقات العادية، عندما لم تكن أسماء من اغتيلوا وأُعدموا تملأ صفحات الصحف، كانت المنازل الآمنة تطلق غالباً على بيوت الفسق. كان العمال المهاجرون هم القاطنين العابرين الوحيدين في ضواحي طهران التي أنشئت للطبقة العاملة. زادت الشكوك حولنا لأن أياً منا لم يكن عاملاً مهاجراً مقيماً. ولجعل الأمور أسوأ، زادت الرفيقات الشابات، اللواتي ترددن على هذه المنازل في بعض الحالات، شكوك الجيران. في رأيهم، كيف يمكن للنساء اللواتي يزرن الشبان في منتصف الليل ألا يكنّ عاهرات؟ كرامة الحي كانت على المحك. وكان يجب الدفاع عنها ضد خباثة الشباب الضالين.

أحد منازلنا الآمنة كان شقة صغيرة استأجرها اثنان من الرفاق في حيٍّ يقع قرب المسلخ الرئيسي في المدينة. اعتدت أن أزورهم مساء أيام الإثنين حوالى العاشرة ليلاً لعقد اجتماعنا الأسبوعي. توجست من هذه الاجتماعات، ليس بسبب القلق الذي كانت تسببه فقط، وإنما بسبب الرائحة الكريهة التي لا تطاق لأحشاء الأبقار والدم المتخثر التي ملأت الحي. عمل محمد في مصنع إسمنت وكانت مهمة مهدي اختراق الجوار والبحث عن مجندين محتملين حين يحين الوقت. أجبرت نفسي في وجودهم على تجاهل صداع الشقيقة الناتج عن الرائحة البغيضة، كي لا أجرّم نفسي بكوني شاباً مثقفاً بعيداً عن الحياة اليومية للمظلومين.

ناقشت في الاجتماعات مواقف مجموعتنا، "رازماندجان"[5]، وأجبت عن أسئلتهم عن الإستراتيجية، وأصغيت إلى مقترحاتهم، والأهم أنني ناقشت النصوص النظرية من الأدب الماركسي–اللينيني. كانت الاجتماعات تستمر غالباً حتى الثانية أو الثانية والنصف صباحاً. نرتاح قليلاً ثم نذهب مع محمد الذي عليه أن يكون في العمل عند السادسة صباحاً. بدأت اجتماعاتي يوم الثلاثاء عند العاشرة صباحاً، ما أعطاني وقتاً كافياً لأستقل حافلة إلى مقهاي المفضل في الطابق الثاني من متجر حداد قرب ميدان الثورة. أطلب رغيفاً من الخبز الطازج الساخن مع زبدة وجبن، وأراقب كيف يرشف أفراد الطبقة العاملة أكواب الشاي مشبعاً بالسكر، بينما يحاولون أن يمضغوا كرة ضخمة من الخبز محشورة ضمن جانب واحد من خدودهم. راقبتهم يفرغون فناجين الشاي الصغيرة، مخلفين طبقة سميكة من السكر في قعرها. وجدت الشاي مقززاً مع كل تلك الكمية من السكر، لكنني سمعت محمد يقول: "حمّل شاحنة بقطع الآجر ثم قل لي إنك تحب شايك بلا سكر".

5 "رزمندكان"، وهي اختصار لـ"سازمان رزمندكان طبقه كاركر"، وتعني "منظمة جنود (أو مقاتلو) الشريحة العمالية".

في أحد المساءات في آخر الربيع، قبل بضعة أسابيع من بداية اعتقال الجماهير وتنفيذ أحكام الإعدام، وصلت إلى ذاك المنزل الآمن باكراً بعض الشيء. اتخذت اللجنة المركزية بعض القرارات المهمة وأردت أن أتأكد أن لدي الوقت الكافي لأوضح إستراتيجياتنا الجديدة. حوالى منتصف الليل، دفع شابان الباب ودخلا. "نعرف ما تفعلونه"، همس أحدهما بصوت عالٍ. وقبل أن ينهي جملته، دسّ محمد كل الأوراق تحت الفراش. "من سمح لكما بالدخول هكذا؟"، نهض واقفاً ليحجب عنهما رؤيتنا. "لا تقلق"، وضع الشاب الثاني يده على كتف محمد، "لن نخبر عنكم". "اذهبا وأخبرا من تريدا وسنرى من سيصدقون بيننا"، رد محمد الذي لم يستطع إخفاء ذعره.

"لن نخبر عنكم أحداً"، قال الشاب الأول، "نحن نريد أن نلعب أيضاً". أخرج علبة جديدة من أوراق اللعب من جيب سترته ولوح الآخر ببعض الفواتير البالية في الهواء ليتأكد أننا فهمنا أنهما كانا يقصدان القمار. "يجب أن تخجلا من نفسيكما"، قال محمد وهو يدفعهما نحو الباب. "أنتما مقامران! عار عليكما!"، أغلق الباب. ظننت أنه كان عدائياً جداً.

فقدنا ذلك المنزل كما فقدنا غيره الكثير. بدأ الصيف بمظاهرات دامية وقتلى واستمر ذلك لعام كامل. لكن الآن، في عيون الجوار وقوى الأمن، لم يكن كل اثنين أو ثلاثة من الشباب العازبين الذين يتشاركون غرفة باحثين عن متعة الجسد، وإنما كانوا يخططون لاغتيالٍ آخر.

حان الوقت كي أعود إلى منزل عائلتي. استأجر والداي شقة جديدة بعد إصرارنا، أنا وإخوتي، عليهما كي ينتقلا خارج بيتنا القديم دون أن يتركا أثراً إلى أين ينتقلان. الجامعة لديها العنوان القديم وكان تعقبي إليه سهلاً. لكن البيت الجديد لا أحد يعرفه: منزل آمن جديد.

كانت شقة والديّ الجديدة في الطابق الأرضي من بناء ذي طابقين يقع بين ميدان الثورة وحديقة التوليب. رسمياً اسمها حديقة الملكة فرح نسبة إلى زوجة الشاه لكن الاسم تغير إلى التوليب، رمز الثورة. لم يكن الموقع هو الأفضل في أي اعتبارات أمنية. لكن الموقع كان همي الثانوي بما أنني خططت للبقاء في المنزل والحد من اتصالاتي. عرفت أن "الحرس الثوري"، بمساعدة من مئات الطلاب المتحمسين المؤيدين للحكومة، كانوا يدورون في الشوارع دون انقطاع، ويختطفون الناشطين من الطلاب. لم يعد لدي فرصة للتنفس خارجاً.

كنت بحاجة إلى مكان لأكمل الدراسة الثالثة التي عملت عليها في السنتين الأخيرتين. أصبحت دراستي الأولى عن الحركات الطلابية وحاجتها إلى الاستقلال عن السياسات الحزبية، المخطط التقريبي لمجموعة طلاب جديدة، منظمة "الطلاب الفدائيون". وكانت الدراسة الثانية، التي أعطيتها العنوان العام المفهوم الماركسي للنظرية والتطبيق، اختباراً نقدياً لليسار المعارض للمثقفين والفشل في ربط نماذجها المجردة بالوقائع الحسية للمجتمع الإيراني. سمعت من مصادر مختلفة أنها ولدت فعلاً أسئلة جدية بين قادة عدد من المجموعات الماركسية. عملي الأخير، الذي كنت متلهفاً لإنهائه، خُطط لقضايا براغماتية من "التحريض" و"الدعاية". كتبت أكثر من مئة صفحة، ولدي أكوام من بطاقات الفهارس مع اقتباسات من مصادر يسارية مختلفة، لكنني كنت بحاجة شديدة إلى مكان أنشرها فيه وأستفيد منها.

مع أن عودتي إلى المنزل أراحت أبويّ، فإن عملي على هذه المواضيع المخربة أرعبهما. أخفيا رفضهما بلباقة خشية أن تدفعني أي معارضة علنية إلى العودة إلى الشوارع متنقلاً من منزل "آمن" إلى آخر. أفضل ميزة للشقة الجديدة أنها كانت كبيرة، وفيها قبو جاف جدرانه مطلية بالأبيض. احتاج فقط بعض التبييض والهواء النقي لتحويله إلى مكتب مقبول. استطعت أن أعمل هناك لشهور ببساطة، مع بِساط لطيف، ومكتب، وبعض رفوف الكتب. ترأست أمي العائلة كلها وحولت القبو إلى

مكان العمل الخاص بي. عملنا جميعاً مستخدمين المماسح ومواد التنظيف باستثناء أبي الذي لم تنتهِ صلاحية اشتراكه في مفهوم فصل السلطة الذكورية عن الأعمال البيتية الرتيبة حتى نهاية حياته.

أمّنت لنا الحرب مع العراق أفضل غطاء للعمل الذي كنا نؤديه في القبو. إذ إنها بدأت قبل أكثر من عام، والعراقيون وجدوا طريقة لقصف طهران بالطائرات والصواريخ. كان قبونا الآن ملجأ البناء للحماية من القنابل. كلما حذرت صفارات الإنذار من هجوم مقبل، رأينا عبر الباب الزجاجي المتجمد لشقتنا ظلال أفراد عائلة يادجار، العائلة الآشورية التي عاشت في الطابق الثاني، والسيد أخوان العازب العجوز من الطابق الثالث. "ربما نضطر إلى قضاء ساعات طويلة في الأسفل"، قالت لهم أمي، "لذا رأيت من الجيد أن نجعل القبو بيتياً أكثر". فعرضوا تقديم المساعدة في التنظيف، ما أجبرني على إبقاء مكان عملي منظماً. أضع كتبي في صندوقنا القديم، وأبقي أبوابه مقفلة، وأخزّن بطاقات الفهارس ومواد الكتابة الأخرى في صندوق أحذية تحته.

التقيت ابنة يادجار الصغرى، أول مرة قبل ثلاثة أشهر. كنت أساعد أمي في حمل أواني نباتاتها المفضلة، نبات الجيرانيوم الأحمر والوردي، من البيت القديم في سلسبيل، إلى البيت الجديد، شمال ميدان الثورة تماماً. نسيت أمي المفتاح ورنت جرس الطابق الثاني. فتحت الفتاة النافذة وقالت مرحباً بصوت عالٍ ومرِح. "سأنزل في غضون ثانية"، كان وجهها شاحباً لكن جذاباً. كانت قد التقت أمي قبل ذلك.

"مرحباً، أنا أوديت"، ابتسمت لي. تورد وجهها الأبيض على نحو ملحوظ، ونافس لون شفتيها الأحمر اللامع لون الجيرانيوم. لن يُكشف لي أبداً غموض هذا التحول السحري الذي حدث خلال الطيران عبر الدرج وعبور بوابة التجميل. شعرت بالحرج وتصرفت على نحو أخرق. كنت جزءاً من بيئة مؤدبة محافظة جعلت حتى التعارف الرسمي مسألة يجب الحذر منها. عليّ أن أتغلب على ذلك بسرعة قبل أن يشك الجيران في الجذور السياسية لحماقتي الاجتماعية.

"لطيف جداً أن ألتقي بك"، قلت ناسياً أن أعرف باسمي. "آسف على الإزعاج"، أضفت وركزت على الجيرانيوم.

استطاعت أوديت خلال الصيف أن تبقي المقارنة قائمة بين ابتهاجها الوردي ونظرة أختها البليدة. أصبح إسراعي لإخفاء وثائقي الموجودة في القبو غريزياً بعد كل تحذير من هجوم منتظر، تماماً كما هو اندفاع أوديت إلى تجميل نفسها قبل نزول الأدراج.

كان هناك أيضاً السيد أخوان الذي يقطن الطابق الثالث متقاعداً (من ماذا، لا أحد يعرف). له وجه طويل مليء بالبثور، وأنف كبير يشبه الصندوق أكثر من الأنف، وأسنان صفراء مبقعة، وعيون صغيرة برموش متناثرة. في أواخر خمسيناته. كان واحداً من أقبح الرجال الذين رأيتهم عن قرب. قالت الشائعات إنه يعمل بائعاً جوالاً ومن الممكن حتى أن يكون شحاذاً يستغل تعاطف الناس مع ذراعه اليمنى المشوهة. جعلت هجمات منتصف الليل عائلاتنا الثلاث أقرب إلى بعضها بعضاً. جلسنا في القبو تحت ضوء الشموع المرتجفة واستمعنا إلى شكاوى السيد أخوان. لم يكن الموت أكبر مخاوفه في الحياة، إذ ذكّرنا بذلك في كل مناسبة، لكنه يخشى أن يموت دون أن يترك وريثاً. "اللحظة التي أعرف فيها أن ابناً سوف يكمل تراثي هي اللحظة التي سأهز فيها يَدَي ملاك الموت وأقول وداعاً لهذا العالم"، يقول هذا ثم ينفجر بالبكاء دوماً ويسرّ بصوت مرتجف: "لكن للأسف، أعزائي، ليس هناك نار في موقدي، كيف يمكن أن يكون لدي طفل؟". أعطى صوت الانفجارات، التي كانت في بعض المرات قريبة كفاية لتجعل ملجأنا يهتز، قضية الإرث إحساساً بالضرورة الملحة.

لدي إرثٌ لأقلق عليه. بدت دراستي تصبح أقل جاذبية شيئاً فشيئاً بالنسبة إلي. لا أعرف أين آخذها، ولماذا تصلح، ومن سيقرؤها. هل سيبقى أحد بعد أن ينتهي هذا الهجوم الأخير؟ لم أشعر يوماً بهذا القدر أنه لا علاقة لي بما يحدث. التهمني هذا الشعور قليلاً قليلاً وجعل جسدي يؤلمني. ذكّرني ألم الاختلاج الذي أصاب مفاصلي ومعدتي ورأسي، بمصيري الذي بدا متذبذباً بين النسيان والإعدام.

لاحظت السيدة يادجار، وهي ممرضة سابقة، أنني غالباً ما أسير ويدي مضغوطة على الجانب الأيمن أسفل بطني.

"هل تشعر بالألم هناك؟"، سألتني أخيراً في أحد الأيام.

هززت كتفي، "لا، مجرد عادة قديمة؟".

لم يكن لدي أعراض أخرى؛ مجرد ألم غامض في كل مكان من جسدي ازدادت شدته مع تزايد أعداد المعتقلين الذين ينفذ فيهم حكم الإعدام. بعد وقت قصير هجرت الدراسة وزاد شعوري بالاختناق وقلة الراحة. صرت أجد حديث السيد أخوان عن عجزه أقل وأقل تسلية. فقدت الاهتمام بضحكات الأخوات يادجار.

توقف الجميع في البناء عن الانتباه إلى صفارات الإنذار في غضون أشهر قليلة. تحولت ضربات منتصف الليل إلى مناظر تستحق المراقبة بدلاً من كونها غارات تهدد بالقتل. نشر السيد أخوان بساطاً قديماً على السطح، وأعد زوجاً من الكراسي القابلة للطي، وأصر على أن ننضم إليه هناك لمشاهدة الأضواء اللامعة التي تطلقها مضادات الطيران.

أُصبت بالحمى، ما جعل التفسير النفسي لألمي أقل منطقية. غرست السيدة يادجار إمكانية الإصابة بالتهاب الزائدة الدودية في رأس أمي وأصرت أنني بحاجة إلى رؤية طبيب.

"سنأخذك من الباب الأمامي مباشرة إلى عيادة الطبيب ونعيدك"، تعهدت أمي لي، "لن يراك أحد".

يمكن التعرف إلى وجهي بسهولة. تحدثت في عدد من التجمعات، تفاوضت مع مجموعات معارضة، وسافرت عبر البلاد لأقدم محادثات وأقود نقاشات. لم أكن مذعوراً. كنت فريسة سهلة.

أتى ابن عمي أمير، تحت إلحاح أمي، صبيحة يوم خريفي، يقود سيارته VW Bug الزرقاء. وعد أنه سيأخذني إلى طبيب قريب له يعمل في مستشفى يبعد نصف ساعة. سينزلني أمام المدخل، ويركن السيارة، ويلاقيني في الداخل.

"ليس هناك أدنى خطر"، أكد لي.

ازداد ألمي برؤية الشوارع. فمن داخل مخبئي، تخيلت أن العالم تغير. فكرت أن الندب التي خلفتها الجموع المقتولة والحرب والاغتيالات والإعدامات، ستكون واضحة على وجه المدينة. لكن بدا كل شيء عادياً. انتظر الناس سيارات الأجرة، وقفوا عند مواقف الحافلات، ساروا وتحدثوا، بحث البائعون الجوالون عن الزبائن. تمنيت أنني رأيت تعبير اليأس على وجوه الناس. كان أمير يخبرني شيئاً عن مؤهلات قريبه، لكنني لم أستطع سماعه.

الثورة انتهت.

دخلت المستشفى وانتظرت أن يركن أمير السيارة. كان هناك عشرون فرداً من "الحرس الثوري" داخل المستشفى يفتشون الحقائب ويتحققون من المرضى. أدركت فجأة أن واحداً من آخر الأماكن الآمنة للقاء قد كُشف. فعندما زادت المراقبة الرسمية، عقدنا بعض لقاءاتنا في أروقة غرفة الطوارئ. حيث كنا نستطيع الجلوس والتحدث بهدوء دون أن نثير الشكوك. انتبه أمير إلى الحراس

وهو يدخل متوتراً. أمسك ذراعي وملت عليه كي أبدو أكثر مرضاً. سأل موظفة الاستقبال عن الدكتور مفيد.

"ليس هنا اليوم"، ابتسمَت، "هل لديكم موعد؟".

قلت لأمير إنني أريد العودة إلى المنزل قبل أن يتمكن من اقتراح أن ننتظر ونقابل طبيباً آخر.

"قال إنه سيكون هنا"، حاول أمير أن يبرر. لكنني لم أستطع المجازفة بالانتظار في غرفة الانتظار كي يراني لاحقاً طبيب الطوارئ.

"لا بأس، أمير، دعنا نرجع إلى المنزل".

خرج راكضاً ليحضر السيارة. أحببت ابن عمي جداً ولم أكن أريد أن أجعله يشعر بالمسؤولية إذا كشفت الشرطة أمري. كبرنا معاً وكنا على الدوام صديقين جيدين. لسوء الحظ، أزعجه اهتياجي. حالما صعدنا السيارة، بدأ أمير الاعتذار.

بينما كنا نقترب من تقاطع جادة المزارعين وجادة العمال، المكان الذي اعتدت أن أدعوه ملتقى المنجل والمطرقة، شعرت برغبة مفاجئة في الخروج للسير. ربما كان الهواء النقي هو ما أحتاجه. كنا على بُعد بضعة أبنية من المنزل. استدار أمير يساراً قبل جادة العمال وتوقف عند الضوء الأحمر لإشارة المرور في منتصف "بولفار".

"أنا بحاجة إلى المشي"، قلت، وفتحت الباب قليلاً لأتأكد من السيارات القادمة من الجانب الآخر.

"هذا جنون!"، اعترض أمير. "هذا أسوأ مكان يمكن أن تسير فيه!".

تجاهلته وأنا أنظر إلى السيارات خلفنا. رأيت مسعود كواكبي يجلس في المقعد الأمامي من السيارة الواقفة خلفنا تماماً. وسُمعة مسعود تقول إنه الآلة الأكثر شراً لإسكات مجموعات الطلاب في الحرم الجامعي. لم يكن شخصاً يُتوقّع أن يكسب تلك الصفة، لأنه وصل متأخراً إلى الحركة الثورية التي أطاحت بالنظام القديم. فخلال حكم الشاه، لم يكن لا ثورياً ولا مسلماً مؤمناً. وبعد الثورة، أصبح مناصراً مندفعاً للنظام الإسلامي وارتفع بسرعة في رتب الطلاب المسلمين.

كان أمير ما زال يتحدث واتخذت القرار قبل أن يتحول الضوء إلى الأخضر. هل رآني كواكبي أيضاً؟ هل عليّ أن أغلق الباب وأتظاهر أن شيئاً لم يحدث؟ هل عليّ أن أخرج وأسير بلا مبالاة عبر الشارع؟ هل عليّ أن أركض؟ خرجت من السيارة وسرت ببط إلى الجانب الآخر.

لم أخطُ على الرصيف المقابل حتى شعرت بلمسة وصوت يقول: "عذراً". نظرت من فوق كتفي ورأيت رجلاً شاباً جداً متين البنية يبتسم بسخرية. عرفت أنهم وجدوني.

ركضت.

"قف!"، صاح بي. "قف!".

تابعت الجري، لكنني شعرت أنني لم أكن أتحرك.

"سأطلق النار!".

كنت لا أزال أركض، لكن المدينة بكاملها تتحرك معي.

"قف!".

عرفت أنني لن أستطيع الابتعاد أكثر. تماماً قبل أن أصل جادة العمال، ظهر حارسان آخران أمامي، راكعين مع رشاشات عوزي مضغوطة مقابل صدروهم.

"قف!"، رددوا الصيحات خلفي.

فعلت، وشعرت فوراً بفوهة مسدس تلتصق بمؤخرة رأسي. "ارفع يديك"، أمرني الرجل الذي كان ورائي. شبّك أصابعه حول وجهي دافعاً إياها على فكي ليبقي فمي مفتوحاً.

”ابصقه“، صاح الاثنان الواقفان أمامي. كنت مصدوماً ولم أستطع الرد. تعلموا من قوات أمن النظام القديم ألا يسمحوا للمشبوهين بالانتحار عبر فتح كبسولة سيانيد في أفواههم عندما يُعتقلون.

احتشد الناس حولنا. كبلوا يديّ وراء ظهري وسحبوني من ياقة قمصي إلى الخلف نحو السيارة.

”تحرك، تحرك“، أمرني الحراس محاولين أن يفرقوا المتفرجين.

توقف السير. كانت سيارة الدورية تقطع الطريق أمام سيارة أمير ورأيت وجهه مضغوطاً إلى مقدمة السيارة. وقف الناس خارج سياراتهم وراقبوا. وقف مئات المتفرجين يراقبون بصمت.

فكرت في سعادة السيد أخوان بالألعاب النارية التي تصدرها مضادات الطيران.

”ماذا يحدث؟“، سمعت أمير يصيح. وبينما كنا نقترب من سيارته، عصب الحارس عينيّ. كانوا يعملون مثل مجموعة من العمال على خط تجميع لاعتقال جماعي. كانوا متمرنين جيداً وأكفاء. لم يكن لديّ نية للمقاومة. دفعوني داخل سيارة الدورية. حشروني بين المقاعد الأمامية والخلفية، ووضعوا بطانية خشنة فوقي. ثم دفعوا أمير من الجانب الآخر.

”هل أنت بخير؟“، همس.

صفعه أحدهم ليصمت.

ذكرني سؤاله بالحمى التي أصابتني. ضغطت رأسي مقابل رأسه، ولم أشعر بالألم.

فرهاد

أعادوني إلى غرفة التحقيق.

"كيف كان الحمام؟"، قال السيد المحقق وهو يدخل الغرفة مع رائحة ماء ورد خانقة.

"جيد"، أردت إخباره أنه بدا كأنه استحم بماء الورد، لكنني لم أمتلك الشجاعة الكافية لذلك.

"اسمع، أنت الآن نظيف وجاهز لبداية أنظف. أعطيتك كل الفرص التي يمكن أن تطلبها وحتى الآن لم تبدِ أي تقدير. يبدو لي أنك لا تفهم خطورة وضعك. بتهم أقل خطورة بكثير..."، توقف ولم يكمل جملته لكن التلميح كان واضحاً وتمكنت بسهولة أن أكمل جملته له: الناس يعدمون لتهم أقل خطورة بكثير.

"أراش هنا، وكذلك إسماعيل. أخبرونا كل ما نريد معرفته. للمرة الأخيرة، أعطيك فرصة لتصبح نظيفاً. أعرف أن كاوه نظم اللقاءات وأدار عملية توزيع نشراتكم. أعرف أن إيراج عمل مع الطلاب، وأعرف أنه سلم التقارير لأراش. أعرف الاسم الحقيقي لكل واحد، أعرف..."

توقفت عن الإصغاء.

"إذاً، أنت تعرف كل شيء. ماذا تريد مني؟ لماذا لا تحضر الاعتراف وأنا سأوقع عليه. أليس ذلك ما تريده؟".

"تظن أننا مجرد مجموعة أخرى من الحيوانات المتعطشة للدماء الذين يستمدون متعتهم من معاناة الآخرين؟ انظر إلى أفعالك وأخبرني من منا هو الحيوان. ما هو عدد الناس الذين قتلهم رفاقك في كردستان؟ كم عدد الذين اغتالوهم؟ كم عدد الذين غدروا بهم؟".

"لا أعرف شيئاً عن الحرب في كردستان، لم أدافع أبداً عن النزاع المسلح بأي طريقة. لذا، لديكم حربكم لتقاتلوا. ليس لي علاقة بهذا".

"سأمنحك يوماً آخر. ثم تنتهي محادثتنا".

لا أعرف كم مضى من الساعات قبل أن يعيدوني إلى حجرتي. في آخر الليل، دخلت الغرفة التي لم يرني شاغلوها أكثر من بضع ساعات خلال الأيام القليلة الماضية بعيونهم نصف النائمة فقط.

كان فرهاد الشخص الوحيد الذي حاول أن يبقى مستيقظاً حتى أعود. كان قد حوكم وحُكم عليه بالإعدام. لكنه لم يتحدث عن ذلك أبداً. "يجب أن يبقى الإنسان إيجابياً"، كرر وهو يضع "إيجابياً" في أقواس اقتباس هوائية ليتأكد أنني عرفت أنه ليس لديه أمل. لم يكن بحاجة فعلاً إلى علامات الاقتباس. كان الحزن في عينيه عميقاً جداً ولا يمكن إخفاؤه رغم جهوده ليبدو مرحاً وهانئ البال.

"هل تذكر الشاب الذي كان يشكو الألم على الدوام في الردهة؟"، سألني فرهاد. تذكرت أنني سمعته، لكنني لم أعره أي اهتمام. "هل تعرف من كان؟ اسمه أرجنغ، طالب حقوق كان ذا دور فعال جداً في تعبئة العمال خلال الثورة. ألم تسمع عنه؟". آلمتني الفكرة القاتمة التي راودتني بأن فرهاد قد يكون جاسوساً. لم أكن أريد أن أخوض تحقيقاً آخر داخل غرفتي.

هم يعرفون علاقتك بأرجنغ. لكن ذلك كان قبل وقت طويل. أنا لم أره حتى منذ إغلاق الجامعات. لكنهم يعرفون. يحاولون أن يقولوا لك إنهم استخرجوا المعلومات عنك منذ زمن بعيد. سمها لعبة شطرنج، سمها ما تشاء، لقد خسرت. اقبل الأمر. قد يكون وجود أرجنغ ممدداً خارج حجرتي تماماً مجرد مصادفة. أما زلت تؤمن بالمصادفة؟

"لا، لا أعرف من يكون أرجنغ".

”كان في وضع سيئ. شممنا رائحة جراحه من هنا. على أي حال، لا يهم. ظننت أنك ربما كنت تعرفه“.

كنت فضولياً الآن. ”إذاً، ماذا حدث له؟“.

” أُعدم الليلة الماضية“.

أرجنغ

لمحته بالفعل دون أن أعرف من هو. كان ممدداً على أرض الممر خارج غرفتنا، يئن على نحو عفوي تقريباً. عندما تبددت الرائحة الكريهة وتوقف الأنين، استنتجنا ما لا مفر منه. لم أبدِ أي عاطفة عندما أخبرني فرهاد أن الروح التي كانت خارج حجرتنا كانت لأرجنغ وأنه لم يعد موجوداً. شعرت بقهر العار بعد أن أخبرت فرهاد أنني لم أكن أعرفه.

التقيت أرجنغ بالقرب من نهاية صخبِ خريف 1978.

لأسابيع، غطت المنشورات والكتيبات الأرصفة الباردة أمام جامعة طهران. تفرغ عمال النظافة لجمع أكوام الوثائق الورقية التي توثق الاحتكاكات بين مجموعات الطلبة. شهدت البوابة الأمامية للجامعة على الدوام الصراع الثوري الأكثر حدة: الجنود يفرضون القانون العرفي على أكثر الطلاب بسالة، والطلاب الذين يحملون قناعات سياسية مختلفة يتنافسون لتشكيل قيادة الثورة متجاهلين وجود الجنود، وطلاب من اليسار يتقاتلون بينهم على صحة اتجاههم الماركسي. سار المارة على جانبي الطريق، لأن المنشورات الكثيرة رميت فوق الرصيف، واندلعت المناوشات بين المسلمين والماركسيين. بقيت الجامعات في أرجاء البلاد مفتوحة كميادين للصراع، لكن لم يكن فيها دروس، ولا محاضرات؛ لم تصدر نتائج. توقفت الحياة الأكاديمية.

ناضلت منذ افتتاح المدارس في الخريف كي أكتشف الدور الذي على الطلاب أخذه لدفع عجلة الثورة. أثبتت الاجتماعات الطويلة في حرم الجامعة أنه لا جدوى لخلق إجماع بين الفئات المختلفة. لم يرَ الطلاب المسلمون سبباً لخلق حركة طلابية مركزية محددة، فهم ببساطة تبعوا قائدهم الذي كان في السلطة. قرر الطلبة اليساريون، الذين كان لهم تأثير في الجامعات، أن يترجموا تأثيرهم إلى وجود هادف في الثورة. آمن بعضهم أن الجامعات يجب أن تبقى في مركز الصراع السياسي، بينما أمل الآخرون، بمن فيهم أنا، أن نستخدم حرم الجامعة كمنصة لإطلاق انتفاضة بروليتارية.

على أي حال، كان هناك شيء واحد واضح: آمن الجميع أن حضور الصفوف أو الانصياع للدعوات بالعودة إلى الحياة الجامعية الطبيعية سيكون مساوياً لخيانة الثورة. آمن الجميع بذلك تقريباً. قاطعت مجموعة أُسست حديثاً باسم "الطلبة المستقلون" كل الاجتماعات، معلنين أنهم يهتمون ببساطة بنوعية التعليم ويحترمون الهدف الحقيقي للجامعة فقط. أعلنوا أنهم كانوا "لا سياسيين باعتزاز" وقصدوا إعطاء الأولوية لتعليمهم داخل الصف بدلاً من "الادعاءات الحمقاء بالقيمة التربوية للزحف في الشوارع".

كان لدى "الطلاب المستقلون" سبب جيد للتشكيك في هذه الاجتماعات والنقاشات. ففي السنة السابقة، بعد واحد من هذه الاجتماعات التي عقدت لاتخاذ قرار بمقاطعة الصفوف أو العكس، انتشرت خارج مبنى إدارة الجامعة ملصقات تذكر عشرة أسباب توجب مقاطعة الصفوف. المشكلة الوحيدة كانت أن الطلاب فشلوا خلال الاجتماع في الوصول إلى اتفاق حول أي من هذه النقاط. بات واضحاً أن القرارات كانت تخرج دوماً من هذه الاجتماعات التي يفترض أنها ديموقراطية. بعد الاجتماع، اقتربت من آنا وإيدنا (حتى أسماؤهم كانت تفشي تنشئتهم المطعمة غربياً) وفخري، القادة الثلاثة للمستقلين. شجعتهم على المشاركة في العملية. بينما كنا نقف أمام مقهى الطلاب خارج بناء كلية هندسة النسيج، أخبرتني فخري أنهم لم يجدوا مبرراً لذلك.

”حلّ ملصقك هذه المسألة، هذه الاجتماعات لا علاقة لها بالأمر. أنت تعقدها فقط لتضفي شرعية على القرارات التي اتُخذت فعلاً“.

كانت فخري العقل الموجه للطلبة المستقلين. رمى عدد من رفاقي في السنة الماضية بيضاً نيئاً وبندورة فاسدة عليها بسبب ثيابها ”المستفزة“ ومكياجها الصارخ. اتهموها بنشر الانحطاط الغربي في حرم الجامعة. بقيت لا مبالية واستمرت في وضع المكياج الصارخ وارتداء الكعب العالي. لبست كل ما أرادته. لم يكن التحدث إليها سهلاً، خاصة لشخص شعر بسهولة أنه مسحوق بكلماتها القاسية.

”هل يمكنك أن تنقل رسالة لي؟“، سألتني وهي تسحبني من ذراعي لأقترب من جسدها الممتلئ، فتجعلني أشعر أنني أصغر وأقل أهمية. ”أخبر معلمك“، قالت دون أي لمحة سخرية، ”أننا سوف نحضر اجتماعاتكم النتنة بثلاثة شروط: الأول إذا أخذت حماماً قبل الاجتماع، والثاني إذا لم تتناول البصل النيء على الغداء قبل الاجتماع، والثالث إذا كتبت القرار بعد الاجتماع وليس قبله“. عرفت من الطريقة التي صرخت بها بكلمة ”بعد“ أن المستقلين لن يحضروا اجتماعاتنا أبداً.

ستصبح فخري بعد وقت قصير مهندسة ناجحة وثرية. لكن مصيرها ينتهي بعد عشرين عاماً بإصابتها بصدمة كهربائية في حوض استحمامها، والواضح أن السبب كان خطأً في توصيل الأسلاك في القصر الذي شُيّد حديثاً وفق تصميم أعدته بنفسها.

رغم أن الصفوف أُلغيت، فإن أحداً منا لم يعرف كيف كان يفترض بنا أن نترجم ذلك إلى فرصة لقيادة الثورة. وبقيت محاولتي تشبيه الوضع الذي كنا فيه بحركة الطلاب الصينيين في الرابع من أيار/ مايو 1919، محصورة في دائرة طلابية صغيرة جداً فقط. كنت مصراً أن بإمكان الطلاب أن يصوغوا الأحداث بالاتحاد مع عمال المصانع فقط. لكن حتى تلك اللحظة بدا أن الجميع كان راضياً عن وصول القتال إلى بوابات الجامعة ومحيطها، دون أن يعبر تلك البوابات إلى الداخل.

كان لدي طاقة لا تنضب في تلك الأيام. أغادر المنزل حوالى 6:30 في الصباح لأجتمع مع رفاقي الموثوقين لنخطط اليوم. كان هذا يزداد صعوبة لأننا كنا بحاجة أن نعرف بوضوح تحركات الجنود عبر المدينة، وعدد الإصابات في اليوم السابق، وكذلك مخططات المجموعات الأخرى قبل اتخاذ القرار حول حدث اليوم. كان الخريف بارداً وملوناً على نحو استثنائي، وكنا نبدأ يومنا في الغالب بفتح المقهى في كلية هندسة النسيج، وهذا عذر جيد يبرر وجودنا في حرم الجامعة في وقت مبكر جداً من الصباح. نختفي هناك خلف نوافذ المقهى التي يغطيها البخار، ونتكوم حول الطاولة مع فنجان من الشاي المتخمر جيداً وضباب كثيف من دخان السجائر، لننتهي بعد ذلك مع الخطة نفسها تقريباً: توزيع المنشورات بين طلاب المدارس الثانوية لدعوتهم للانضمام إلى الحشود في الشوارع. وبما أننا أجرينا اتصالات جيدة مع عدد من طلاب المدارس الثانوية، كان يمكننا الآن الاعتماد عليهم في تنظيم مظاهرات صغيرة أمام مدارسهم. كانت هذه الإستراتيجية ناجحة تماماً في إضعاف الجيوش المنهكة سلفاً وعرقلة روتينها في فرض الأحكام العرفية. قبل الظهيرة، كنا نتجمع حول جامعة طهران لتبادل الأخبار والتفكير في مخطط جديد.

بينما كان نفعل ذلك في أحد الأيام، حدث شيء مختلف.

”أنتم حفنة من المخنثين“، سمعت رجلاً يصيح من وسط المحتشدين. ”الرجال الحقيقيون يقاتلون على أرض المصانع“.

تسلق السور الذي يفصل حرم الجامعة عن الشارع وتمسك بقضبان الحديد الخضراء.

”القادة الحقيقيون لهذه الثورة هم العمال الذين يعملون ليلاً نهاراً لبناء هذا البلد!“، كان يصيح بأعلى صوته، ”أنتم بحاجة إلى العمال أكثر مما يحتاجكم العمال!“، أضاف وهو يرفع قبضته ليؤكد

إضافته، وقد أظهرت نظرته المصممة التجاعيد المبكرة التي علت وجهه.
"عليكم أن تتخذوا قراراً اليوم!".
جعلت بشرته المسمرّة وجبهته العالية مظهره الخشن أكثر جاذبية بطريقة ما. لم يستطع أحد قبله تهدئة الحشد وإجبار هذه الكتلة من المتحمسين للثورة على سماع صوت واحد.
"لماذا تضيعون حماستكم الثورية أمام المؤسسة التي تهدف أساساً إلى تخليد الرأسمالية؟"، صاح.
"أنا أعرف لماذا"، تابع ملوحاً بسبابته في الهواء، "هل تريدون أن تعرفوا؟"، سأل مستهزئاً بجمهوره المأخوذ.
اتسعت عيناه الكبيرتان. بدتا كبيرتين جداً على وجهه الصغيرو هو يحاول أن يركز على الأفراد الوحيدين في ذاك الحشد من المئات. بدأ خطبته.
"يجب أن يكون لديكم الشجاعة لتغيروا أنفسكم قبل أن تغيروا العالم. أنا أتحدث إليكم باسم رفاقي الكادحين الذين ينظفون مخلفاتكم من الشوارع بعد أن تعودوا إلى منازلكم البرجوازية"، تصدّع صوته، "العمال أنفسهم الذين يجعلون حياتكم ممكنة، وامتيازاتكم ممكنة، وهراءكم الثقافي ممكناً".
سحب منديلاً من جيب سرواله. مسح العرق الذي سال فوق جبهته وخديه غير الحليقين، وتمخط من أنفه الصغير بصوت عالٍ ليوضح أنه لا يعير اهتماماً لآداب السلوك في الجامعة. ثم ختم كلامه: "نقوا صفوفكم". وانتهى بالقول: "بالانضمام إلى نضال الطبقة العاملة".
كنت أقول الأمر نفسه منذ شهور بلا جدوى. لم يقل هذا الرجل مفتول العضلات شيئاً جديداً، ورغم ذلك استطاع أن يواصل تلك المحاضرة الطويلة التي أذهلت كل من كان هناك. كان عاملاً تحدث عن عيوب الرأسمالية وعن وعي الطبقة العاملة! كان يجب أن يؤخذ على محمل الجد!
كان عليّ أن أجد طريقة لأتحدث إليه في مكان هادئ وأدعه يعرف أن هناك آخرين مثلي يؤمنون جداً بما قاله. إذا لم يكن هذا الرجل عميلاً سرياً، يمكن أن يكون الخيط الذي يربط حركتنا بالإضرابات العمالية. أحاط به جمع من الطلاب الفضوليين جاعلين الاقتراب منه مستحيلاً. وبخه البعض على عجرفته، في حين حاول الآخرون أن يعرفوا من أين أتى وما هي مؤهلاته.
بعد بضع دقائق تسلق الرجل الضخم السور ثانية.
"لا أقصد أن أقلل احترام أحد"، بدأ حديثه هذه المرة، بينما هدّأ الطلاب القريبون منه الجموع، "جميعنا متعبون من المبادرات العقيمة ونشعر أن الوقت حان للانضمام إلى الحركة العمالية في نضالها من أجل الحرية. دعونا نجتمع كلنا غداً في مصنع إسمنت طهران لننضم إلى عماله في معركتهم من أجل الرواتب المتأخرة والعقود العادلة".
أعطاه أحدهم علماً أحمر بالياً بدا كأنه من أفلام آيزنشتاين[6].

[6] سيرجي أيزنشتاين: مخرج روسي.

"في العاشرة صباحاً!"، أنهى حديثه ملوحاً بالعلم، ثم اختفى بسرعة في الحشد قبل أن أتمكن من التحدث إليه.
عندما وصلت هناك في الساعة 9:30 في اليوم التالي، كان هناك مئات من الناس محتشدين قرب المدخل الرئيسي لمصنع الإسمنت في الطرف الغربي لمدينة طهران عند الطريق المؤدية إلى مدينة الريّ. بدا العمال في الداخل مشوشون كمشرفيهم بينما انتظر الجميع خارجاً يهتفون:
يجب دفع أجور العمال المتأخرة!
يجب فضح حقيقة الرأسمالية!

تضاعف عدد المتجمعين بحلول العاشرة مع استمرار وصول قادمين جدد. بحثت عن رفاقي في وسط الحشد المتزايد.

"سننتظر أحمد"، قال أرجنغ الذي كان طالباً من كلية الحقوق في جامعة طهران وهو يركب مكبراً للصوت أحضره معه.

"من هو أحمد؟"، سألت.

"ألم تكن هناك في الأمس؟"، صاح بطريقته العادية في طرح سؤال بدلاً من الإجابة. شيئاً فشيئاً أصبح واضحاً لي أن ظهور أحمد أمام بوابة الجامعة ربما لم يكن عفوياً. عرفه بعض الطلاب أو سمعوا عنه، وكانوا يشيرون إليه بأحمد كاركر[7]، أحمد العامل.

7 العامل باللغة الفارسية.

تجنب الطلاب المسلمون هذا مع بقائهم واثقين أن الحركة الثورية كانت لهم، وليسوا بحاجة إلى ادعاء ذلك.

ظهر أحمد في قلب الحشد. تسلق السور من جديد وألقى خطاباً.

"لن نغادر"، وأنهاه بقوله، "حتى يحصل كل عامل على مستحقاته الشرعية".

قاد أحمد تجمعاً ساخطاً من الشباب والشابات باتجاه المدخل الرئيسي. السلسلة التي كانت تقفل البوابة الحديدية الصدئة كانت ضعيفة مقابل قوتنا الهادرة. انفتحت البوابة وقبل أن نخطو داخل المصنع، كان هناك دفق من المنشورات تغطي الأرض.

تسقط الإمبريالية الأميركية!
حزب "توده" للعمال الإيرانيين
يسقط السوفيات والإمبريالية الأميركية!
حزب الكادحين الإيرانيين
يعيش الكفاح المسلح!
جماعات الفدائيين من أجل الشعب الإيراني
تعيش ثورة الطبقة العاملة!
حزب الطليعة الثورية

بقي العمال واقفين يحاولون فهم ما يجري: اقتحم مجموعة من الطلبة المصنع وهم يتحدثون عن نهاية الرأسمالية، ومبدأ التعايش السلمي، والطبيعة الحقيقية للثورة الديموقراطية، والدكتاتورية والديموقراطية البروليتارية، وخيانة الاتحاد السوفياتي للشيوعيين الإيرانيين، والماوية على أنها البديل الوحيد المعقول لليسار الإيراني، والمعنى الحقيقي للفظاعات المرتكبة خلال ثورة ماو الثقافية، والإسلام كجزء من البنية الفوقية ومن ثمّ كنوع من الوعي الزائف، وهكذا.

تمكنت من إيجاد أحمد يقف وحيداً تحت مطحنة إسمنت ضخمة كانت توضع متعطلة تحت الشمس الضعيفة. قدمت نفسي إليه. كان يهز رأسه غير مصدق وهو ينظر إلى المدخنة الطويلة إلى يمينه. لم ينظر إلي.

"نجحتُ في نقل هذا الحشد اليائس من بوابة جامعة طهران إلى ساحة معمل إسمنت طهران".

بحلول الثانية بعد الظهر، كان النقاش لا يزال محتدماً بينما يذهب العمال إلى منازلهم تاركين الطلاب دون أحد يدافع عنهم. اختفى أحمد. من الواضح أن هذا لم يكن الحدث الذي سيسجله المؤرخون على أنه بداية اتحاد الطلبة–العمال. سيُنسى في الحال.

خطط أرجنغ، بعقله القانوني وسلوكه الجدلي، اجتماعاً يناقش ما الخطأ الذي حدث. قيل أنه كان هناك مجموعة من الطلبة متجمعين لإعطاء بعض التعليمات عن كيفية السلوك على أرض المصنع. بدا أننا كنا بحاجة إلى إطار عمل لتجنب الفوضى التي خلفت مئات القطع من الأوراق متناثرة خارج مصنع الإسمنت دون أن يكون هناك إشارة إلى العمال الذين قصدنا تمثيل مصالحهم.

بحلول السادسة مساء، كان أرجنغ يضع مع أحمد خطة إستراتيجية في الصالة الرئيسية لكلية الاقتصاد في جامعة طهران. كانت المقاعد الثلاثمئة في الصالة ممتلئة. قرأ أرجنغ وهو يرتدي نظارته السميكة العاتمة مجموعة من القصاصات الورقية، متوقفاً بعد كل واحدة ليحك شعره الخفيف الأجعد أو ليلعب بشاربه الضخم. حاول أن يخفي يده الممتلئة الشاحبة عن أحمد الذي بدا أنه خسر فرصة إذلال الطلبة على صفاتهم البرجوازية. بطرائق عدة، بدا أرجنغ نسخة الطالب من أحمد؛ كلاهما ذو بنية صغيرة، أحدهما ممتلئ ومستدير، والآخر ضخم. كلاهما كان عدائياً في نقاشه: الأول بالنقاشات المنطقية التي لا تنتهي، والآخر بجعل كل النقاشات في غير محلها.

افتتح عليّ الاجتماع لأنه كان طالب الاقتصاد، والاجتماع يحدث في كليته. جلست في الصف الأمامي لأتجنب رؤية بشاعة قاعة المحاضرات الرطبة ذات السقف المنخفض. أضيفت الأضواء المشعة الوامضة إلى الشعور الثقيل بذلك المكان، بينما بدأ علي يعدد المشكلات التي واجهت أحداث اليوم.

لم يصبر أحمد طويلاً على مقدمته الطويلة وقاطعه فوراً.

"المشكلة أنكم فشلتم في ترك مصالحكم في المنزل. لا أحد يهتم إلى أي حزب تنتمون"، بدأ حديثه، "أنتم تذهبون إلى المصانع لتتعلموا من العمال، لا لتعلموهم".

أُشعلت سيجارة إحباط في القاعة المليئة مسبقاً بالدخان مع كل هجوم شنه أحمد ضد الطلبة. أشعل أرجنغ سيجارته بهدوء وانطلق الدخان عبر شاربه الكثيف وخرج من منخريه الكبيرين. تابع أحمد تشدقه ضد المثقفين وهز الطلاب رؤوسهم الممانعة بالموافقة. لم يتمكن الطلاب الواقفين في الخارج من سماع ما يقال في الداخل لكنهم تمكنوا من رؤية عدد من الناس مصطفين هناك ينتظرون دورهم للتحدث. من جديد، لم يكن هذا الاجتماع قريباً من اتخاذ قرار.

اتخذنا قراراً أخيراً. قُبل اقتراحي أنه يجب ألا توزّع منشورات من أي نوع خلال هذه التحركات. قررنا أيضاً تشكيل ثلاث لجان لتنظيم الأحداث المستقبلية: لجنة البحث وهي مسؤولة عن إيجاد المواقع الممكنة لتحرك الطلاب والعمال، واللجنة اللوجستية المسؤولة عن الاتصال بالعمال وترتيب موعد للتحرك المشترك، ولجنة الحدث المسؤولة عن تخطيط الخطابات لجعل الاتصالات طويلة مع العمال في كل مصنع.

مباشرة وضعنا ترتيباً جديداً لاختبار الأمر في يوم ماطر في مصنع "خاور" لتجميع الشاحنات من نوع مرسيدس، الواقع وسط طهران. بدت هذه فرصة جيدة لأن المصنع كان داخل المدينة ولذلك تأملنا أن نجذب دعماً أكبر من الناس في الجوار. لكن، بخلاف توقعاتي، تبين أن المصنع كان صغيراً ومتواضعاً. لم يكن هناك خطوط تجميع ولا آلات معقدة على الأرض. كان مجرد مخزن كبير بنوافذ مكسورة ودزينة أو أكثر من محطات عمل فرعية لتجميع أجزاء متنوعة ومسبقة الصنع للشاحنات. كان هناك دزينة أو أكثر من شاحنات الرفع مركونة في الداخل ومغطاة بأقمشة مليئة بالغبار، في دليل واضح على أنها توقفت عن العمل منذ بعض الوقت. سمح السقف المهترئ للمطر أن يهطل فوق الأرضية الإسمنتية المشققة وغير المستوية بغزارة. بدا كل شيء على حافة الانهيار.

عرف الجميع حينذاك انجذاب أرجنغ بحماسة إلى مكبر الصوت. تخيلته، في كل مرة سمعته فيها، كمن يدلي بمرافعة نهائية أمام هيئة المحلفين في قاعة المحكمة.

"نحن نفهم"، قال مخاطباً عمال المصنع الذين بلغ عددهم ثلاثمئة، "أن أرزاقكم مهددة من أرباب عملكم الذين يرفضون دفع مستحقاتكم". توقف. "لكننا نفهم أيضاً"، قال رافعاً صوته لإيصال رسالته بكل قوته، "أن مصدر كل هذا البؤس هو الاستغلال الرأسمالي".

الرأسمالية تبني القصور
العمال يخسرون معاشاتهم
باتحاد العمال،
تختفي الرأسمالية!
اتحاد، نضال، نصر!

كان أرجنغ يصيح بأعلى صوته عبر مكبر الصوت. أشرت إليه أنني كنت بحاجة إلى قول بعض الكلمات، لكن إشارتي الهادئة لم تجد فرصة للتأثير وسط أدائه المنتشي. بُحّ صوته وكان مجبراً في النهاية على إعطائي المكبر.

تسقط الرأسمالية!
تعيش الاشتراكية!
العمال المتحدون لن يهزموا!

حاولت تهدئة الجمهور، معتقداً أن الوقت حان لإضافة مادة إلى الشعارات.

"رفاقي العمال"، بدأت بطريقة مختلفة، "نحن بحاجة أن نفهم أننا لسنا وحدنا في هذا النضال".

فشلت كلماتي في التعلق بالهواء وسقطت بسرعة فوق الأرض الإسمنتية.

"ما أُخذ منكم أكثر من أجوركم"، أضفت وشفتاي ملتصقتان بمكبر الصوت وأنا أصيح بأعلى صوتي، "إنها كرامتكم".

كانت تلك المرة الأولى في حياتي التي أتحدث فيها إلى حشد من العمال وكنت أحاول جاهداً أن أضع كامل معرفتي الزهيدة عن الرأسمالية في آذانهم غير الراغبة في الاستماع. حاولت أن أكون أكثر قوة.

"الرأسماليون تدعمهم الشرطة، والجيش، والحكومة. لكنهم لا يساوون شيئاً أمام سواعدنا العارية عندما نتحد معاً"، كانوا الآن يصفقون ويصفرون، "... عندما نشد قبضتنا احتجاجاً!".

بقي أرجنغ لأقل من خمس دقائق تحت المنصة المؤقتة بعيداً عن مكبر صوته. ثم بدأ يشد سروالي ليوضح لي أنه يجب أن يعود إلى المنصة.

"نضالنا طويل وصعب"، تابعت، بينما استمر أرجنغ يشد سروالي بقوة أكبر، وبدا أنه لم يكن يسمع كلماتي. عند هذه النقطة، لم يعد واضحاً لجمهوري أي نضال أقصد.

"يجب ألا ننسى أنّ"، تابعت وأنا أمسك مكبر الصوت بيد وسروالي باليد الأخرى، "هدفنا هو تحرير الإنسانية جمعاء".

كان أرجنغ عنيداً. فقدت زراً وكنت بحاجة إلى كلتي يدي لأحفظ سروالي وكرامتي. ربح أرجنغ.

"العمال لا يهتمون بالإنسانية جمعاء"، صرخ أحمد في وجهي موبخاً بعد أن سلمت مكبر الصوت لأرجنغ، "هم بحاجة إلى أن يطعموا عائلاتهم. المعدة الخاوية لا تبحث عن الذات".

بدا أننا لم نفعل شيئاً يمكن أن يرضي أحمد كاركر. كنا برجوازيين في الأصل وكان الأمر كذلك.

لم يعرف أحد كيف ينهي الحدث. بعد ساعات من الخطابات الحماسية والإصغاء إلى شكاوى العمال، حتى أرجنغ كان مستنفداً ولم يبدِ أي اهتمام باسترداد المنصة. سألت أحمد ماذا علينا أن

نفعل؟

"أنتم بدأتموه"، قال مستهجناً، "وأنتم تنهونه". ثم ابتعد لكنه عاد بعد بضع خطوات. وقال بصوت بدا فيه أنه سامحنا على حياتنا الآثمة كطلاب: "لا تقلق، سيغادرون بعد الخامسة على أي حال". كان محقاً. فبعد الخامسة بقي حفنة من العمال فقط، لأسباب لا علاقة لها بالثورة وفضلت ألا أفكر في الأمر.

كان مشروعنا التالي هو الأكثر طموحاً حتى الآن. انتشرت الأخبار أن الطلاب زاروا المصانع وكانوا يساعدون العمال على استعادة أجورهم المستحقة. اتصلنا بعمال من أربعة مصانع مختلفة في المجموعة الصناعية نفسها العائدة إلى الإخوة لاجوردي، العائلة الصناعية الشهيرة. عندما وصلنا إلى هناك في الصباح الباكر، كان هناك أكثر من ألفي عامل ينتظرون في الداخل، في صفين منظمين. فتح لنا البوابة اثنان من العمال ودعونا للدخول.

الخبز الذي نأكله، من عملكم!
البيوت التي نعيش فيها، من عملكم!
التعليم الذي نحصل عليه، من عملكم!
البلد الذي بنيناه، من عملكم!

كان العمال المبتهجون يقفون في الداخل بينما نحن ندخل ونسير بين صفيهما. هم صفقوا ونحن هتفنا. شعرت أن المكان غير ملائم. رغم أنني كنت صاخباً في الخارج، شعرت في الداخل أنني كنت بعيداً وهادئاً. وبدلاً من أن أكون ثورياً، بدوت لنفسي أُشبه شخصاً بيروقراطياً آت من مكتب الرفاهية الاجتماعية كي يتفاوض مع الإدارة باسم العمال. عندما تخيلت سابقاً أننا في يوم ما سننضم إلى الحركة العمالية، لم يخطر هذا المشهد في بالي. ظننت أننا سنقف في صفوف ونصفق لهم لأنهم يبقون شرارة الثورة حية. تحركاتنا قلبت المشهد وجعلت العمال يعتمدون علينا، الأمر الذي لم يكن هو ما تصورناه. أشك أن هذا ليس ما كان في بال أحمد [8] le prolétaire عندما طلب منا أن ننضم إلى النضال العمالي.

[8] بروليتاري أو عامل.

تجمع المئات من العمال في المخزن الرئيسي وسط المصنع. ألقى أرجنغ خطبته. تغلب هذا الرجل القصير مع مواعظه الحيوية تدريجياً على أحمد في كونه المتحدث المفضل في هذه المناسبات. عرفنا أن واحداً من مالكي المصنع كان في مكتبه في الطابق الثالث من البناء الرئيسي. جمعت ثلاثة من الطلاب الآخرين وذهبنا مع العامل الذي كان صلة الوصل معنا هناك إلى مكتب صاحب المصنع. "نريد التحدث مع السيد لاجوردي فقط"، قلت محاولاً إقناع الحارسين اللذين قطعا الطريق علينا بأنه لا نية لدينا في التسبب في الأذى.

لم يتحركا قيد أنملة.

"نحن هنا للمساعدة"، حاولت بخجل.

"أخرج ملعونيك من هنا!"، قال أحد الحراس غاضباً. ودفعني مع الطلبة الثلاثة الآخرين جانباً. لأننا توقعنا أن نثير غضبهم، بقي العامل الذي رافقنا في الطابق الثاني. بقي الحارس الآخر أمام باب المكتب ليعلمنا مع ابتسامة فظيعة أن واحداً منهم فقط يمكنه بسهولة أن يخرجنا نحن الأربعة. من الواضح أن أجسادنا العظميّة الثورية لم تحظَ بفرصة.

"أنتم تجعلون الوضع أسوأ"، حاولت ثانيةً على أمل أن يسمعني لاجوردي. وبالفعل، خرج من مكتبه.

"ليس لديكم عمل هنا"، قال لنا متجاوزاً حراسه.

"العمال يصبحون منفعلين جداً"، قال أحد رفاقي في محاولة لجعله يصدق أننا كنا مجرد وسطاء حياديين. ساعدت صيحات "نريد العدالة" الواصلة من القاعة في توضيح خطورة الموقف.

"أظن"، قال أحد رفاقي لإذكاء مخاوف لاجوردي، "أن التحدث إلى العمال سيساعد في تهدئة الوضع".

عاد لاجوردي إلى مكتبه مع أحد حراسه دون أن ينطق بكلمة. "دعونا نذهب"، قال بعد بضع ثوانٍ عندما عاد للظهور وهو يرتب ربطة عنقه الحمراء الفاقعة.

نزلنا الدرج وتبعنا في الخلف محاطاً بحراسه. بقي هادئاً لكن حراسه بدوا مذعورين وغير متأكدين مما سيحدث.

كان أرجنغ لا يزال يلقي اتهاماته.

"الرأسماليون المتطفلون مثل هذا الرجل"، قال وهو يرفع صوته بينما يشير إلى السيد لاجوردي، "يمصّون دم العمال، يمصون دم الأمة، يمصون دم فلاحينا، يمصون دم أطفالنا بإجبارهم على العمل قبل أن يبلغوا الثانية عشرة، يمصون دم أمهاتنا وآبائنا بحرمانهم العيش بكرامة في شيخوختهم. يجب ألا تأخذنا الرحمة بهم. يجب ألا نسامحهم. يجب أن نهد قصورهم ونتعقبهم في ملاجئهم الآمنة".

لم يربك خطاب أرجنغ العنيف لاجوردي فحسب، وإنما حيرنا كلنا.

"هذا الرجل مجنون"، همس أحمد لي محاولاً تنبيهي إلى نتائج خطاب أرجنغ العنيف الملتهب، "ليس لديه فكرة ماذا يريد هؤلاء العمال".

قبل أن يصل لاجوردي إلى طاولة مراقب العمال حيث حاكمه أرجنغ وأدانه، حضّر العمال أنشوطة داعين إلى شنقه. "يجب أن يدفع حياته ثمناً"، صاح أحدهم وهو يؤرجح الحبل قبل أن يرميه ليلتف حول عارضة حديدية، "لا يهمنا المال، نريد الدم!".

دفع أحمد أرجنغ جانباً.

"إخوتي"، ناشد العمال محاولاً أن يخمد نار الجنون التي أشعلها أرجنغ، "نحن لا نقتل. لسنا مثلهم. نريد العدل لأنفسنا وللآخرين. خصمنا هو طبقة وليس شخصاً".

غيّب مكبر الصوت أرجنغ عن وعيه كما يحدث دوماً. بدا غير واعٍ للكارثة المنتظرة التي سببها.

"أنت يجب أن تخرس"، قال أحمد وهو يدفعه جانباً، "سيقتلون الرجل!".

انتهى بنا الأمر، بمساعدة الحراس الشخصيين وعدد من العمال، بمرافقة لاجوردي إلى خارج المصنع. بعد أن أصبح في مأمن، وهناك بعد أن أصبح في مأمن في المقعد الخلفي لسيارته المرسيدس، جلس لاجوردي منتحباً.

من باب المصادفة، مدّعي الثورة الذي وقّع عقوبة موت أرجنغ كان اسمه لاجوردي. لكن هذا الشخص لا علاقة له بالرجل الذي دعا أرجنغ، دون قصد، إلى شنقه في المصنع.

بعد واقعة المصنع، فقد أحمد الأمل في مقدرة رفاقه البرجوازيين، ولم يظهر مرة ثانية في أي حدث آخر. استمر في العمل لتأسيس حزب ثوري للعمال، وأُعدم بعد ثلاث سنوات بأمر من المدعي نفسه.

بقيت واثقاً رغم مصائبنا أننا كنا على الطريق الصحيح. كنا بحاجة إلى تعلم الصبر فقط. لم نكن نستطيع تحويل العمال إلى ناشطين ثوريين بالاعتماد على حدث واحد. كان علينا أن نتغلب على إغراء الحصول على نتائج سريعة.

اختُبرت عزيمتي للمرة الثانية في تحركنا التالي في مصنع كهرباء "جنرال" على بعد خمسة عشرة كيلومتراً غرب طهران. علمنا أن العمال لم يتلقوا أجورهم منذ أكثر من أربعة أشهر. سيكون هذا المصنع ذو الاسم المميز مع أكثر من خمسة آلاف عامل مكاناً مثالياً لإعلان قضيتنا. إذا كان الاتحاد بين حركات الطلاب والعمال سيحدث، هذه بالتأكيد اللحظة الحاسمة.

وصلنا عند الظهيرة تقريباً وانتظرنا الطلاب الآخرين لينضموا إلينا قبل أن نقترب من بوابات المصنع التي كان يحرسها جنود مسلحون. حالما أصبح عددنا نحو أربعمئة إلى خمسمئة شخص، زحفنا باتجاه المدخل. لم يزعج الجنود المرهقون أنفسهم حتى بتحذيرنا ولم يشتبكوا معنا بأي طريقة. فتح العمال البوابة من الداخل بينما اتكأ الجنود على أسلحتهم بلا مبالاة. أدى العمال تقليد التصفيق، بينما لوح الطلاب بقبضاتهم في الهواء:

عمال، عمال، عملكم يعطينا الحياة!
عمال، عمال، أنتم تطعمون الأمة!

أدركت في الحال أننا في هذه المرة دخلنا مجالاً يحتاج إلى تنظيم أكثر بكثير ربما مما حضرناه. كان العمال قد قرروا أن يعتصموا حتى تُحل مشكلتهم. كانت تحركاتنا السابقة قد صممت لاجتماع يوم واحد، لكن هذه المرة، خطط العمال الجلوس حتى تتحقق طلباتهم. درجة الحرارة في ذاك اليوم الشتوي البارد بقيت تحت التجمد وبدت أرض المصنع باردة أكثر من الهواء في الخارج، لأن كهرباء المصنع كانت مقطوعة. كنا بحاجة إلى طعام وأغطية، والأهم أننا كنا بحاجة إلى احتمال مصلحة آلاف العمال لأيام قبل أن يتضاءل العدد. لجنة من سبعة أشخاص، أربعة طلاب وثلاثة عمال، تشكلت لتخطيط نشاطات كل يوم.

انتشرت أخبار الاعتصام في "جنرال إلكتريك" بسرعة. ومع نهاية اليوم الثاني، تلقينا رسائل دعم من عمال النفط المضربين في الجنوب، ومن العمال في مصفاة تكرير طهران، ومجتمع رجال الدين المتشددين، المنظمة الأساسية لقيادة الكهنوت في الثورة. لم ترسل الأخيرة مجرد رسائل. الأهم أنهم أرسلوا بطانيات وطعاماً. كنا قلقين لأن كل خطاباتنا العنيفة ضد الرأسمالية لم تحظَ بفرصة لجذب العمال مقارنة مع الوجبات الساخنة التي وعد رجال الدين بتأمينها. خشينا أن العمال سيقدرون مساهمة رجال الدين الملموسة أكثر من وعودنا بالاشتراكية الذهبية.

الشيء المهم في اليوم الثالث كان أداء مسرحية بريشت *Die Mutter* [الأم الشجاعة]، المأخوذة عن رواية **الأم** لغوركي. كان الطلبة في قسم الدراما قدموا المسرحية قبل مدة واستعدوا لعرضها في لمح البصر. أملت أن يفهم العمال عبر الفريق الكبير من الممثلين، والرسالة الجوهرية للمسرحية، مع قصة الإضرابات والتضحيات، أن نضالهم كان مهماً وأن له نتائج خارج جدران المصنع الواقع على أطراف طهران. أردتهم أن يروا التفاؤل والمرح الذي أوصل به بريشت رسالته الثورية، وكيف أنه حول شكاوى الجوع والبؤس خلال المسرحية إلى اتهامات لاذعة للرأسمالية. استمتع العمال كلياً بالمسرحية. صفقوا وصفروا بعد كل حوار عاطفي خاصة إذا كانت تؤديه امرأة.

"كيف كانت المسرحية؟"، سألت عاملاً شاباً بعد نهاية العرض.

"هل كل تلك الفتيات متزوجات؟"، رد.

استمرت الشاحنات المحملة بالوجبات الساخنة بالقدوم كرماً من رجال الدين المتشددين.

خططنا لأداء أغنيات ثورية من جوقة جامعة شريف التكنولوجية في اليوم الرابع. طلب العمال أربع أغنيات شعبية، ولبت الجوقة طلبهم. بقيت الفتيات الثوريات الطليعة الأكثر شعبية. بزيادة وعينا، تغير اتجاه تفكيرنا، لكننا أردنا أن نتحمل الاجتماع ونحافظ على درجة مقبولة من الحماسة.

في اليوم الخامس، أرسل رجال الدين مبعوثاً يحمل رسالة.

"هناك ملّا هنا"، اقترب مني محمد، وهو طالب من جامعتي كان ربما أكثرنا إخلاصاً للحركة العمالية. كان مذعوراً.

"يجب ألا نسمح بحدوث هذا"، أضاف وقد جعله انزعاجه يتأتئ، "عملنا جاهدين من أجل هذا، وها هم الآن يأتون ليضعوا اسمهم عليه".

حتى وهو متحمس تحدث محمد بهدوء كبير إذ احتجت أن أركز لأسمعه. هو نوع الطلاب الذي كان أحمد كاركر يبحث عنه تماماً: شخص صبور يأخذ مصالح العمال بجدية من أجل مصلحتهم الخاصة، وليس كمجرد وسيلة لخلق التضامن أو لتحرير الإنسانية. لكنه لم يستطع أن يحل محل طالب مثل أرجنغ. حرمه جسده الرشيق والطويل والمتمايل، وعيونه الزرقاء، مع شاربه الصغير وشعره البني الفاتح الأشعث، من الوقوف على المنصة كقائد موثوق. إذا أردت القيادة، عليك أن تكون حاسماً، قاسي المظهر، معزولاً عن الآخرين، ومدخناً. لم يكن محمد أياً مما سبق.

"ليباركك الله، أخي"، حيّاني رجل الدين الشاب المبتهج وهو يمد يده نحوي ثم نحو محمد، "نريد أن ندعم العمال ونظهر تقديرنا الكبير لما تفعلونه هنا".

بدت عمامته السوداء كبيرة جداً بالنسبة إلى رأسه، وجعله زيه الأسود الطويل يبدو أطول مما هو عليه في الحقيقة.

"هل يمكنني أن أتحدث إلى العمال؟"، سأل وهو يداعب لحيته بيده اليسرى بينما يمسك يد محمد.

"سأعود إليكم"، قال محمد محاولاً كسب الوقت، "... في الحال بعد أن أتحدث إلى أصدقائي".

عقدت لجنة التخطيط المؤلفة من سبعة أعضاء اجتماعاً طارئاً. وخلصنا إلى أنه "ليس هناك ضرر في السماح له بالتكلم".

"من فضلك، اختصر"، طلب محمد من رجل الدين الشاب، "كيف عليّ أن أقدمك؟".

"علي خامنئي"، غمغم.

"لدينا شرط واحد فقط"، حذرت السيد خامنئي، "لا تحاول خلق انقسامات، ولا تحاول أن تقلبهم ضدنا، ولا تقحم الدين في هذا. نحن هنا لدعم العمال وليس لنتحارب حول اختلافاتنا".

"إذا بقيت صامتاً"، استهل خامنئي خطابه بقصيدة للشاعر المعاصر حميد مصدق:

آه!
كل هذا الصمت!
معك، الآن،
كل ذاك النسيان.
من يريد،
بيننا،
ألا نصبح "نحن"؟
منزله، كما أتمنى، سيدمر.
إذا فشلتُ في أن نصبح "نحن"
سأبقى في خلوة،
إذا فشلتَ،
ستبقى ضائعاً،
إن أنا لم أنهض،
إن أنت لم تنهض،
من سيفعل؟

إن أنا نهضت،
وأنت فعلت،
كلنا سنفعل.

نهض العمال وهتفوا. رفع خامنئي قبضته ودعا إلى الوحدة. هزّ هدير الآلاف الخمسة صوت مجتمعي البناء: اتحاد، نضال، نصر! وعندما خرج، وصل المزيد من الطعام.

سيصبح خامنئي رئيساً للجمهورية الجديدة، وبعد عشر سنوات من ذلك، في 1989، سيصبح القائد الأعلى للثورة.

وصلت الأخبار أن الناس في طهران حملوا السلاح وسيطروا على كل المباني الحكومية بما فيها مبنيا الإذاعة والتلفزيون الحكوميين. اقتحموا السجون وأفرجوا عن المعتقلين السياسيين مع اللصوص والمجرمين. ارتفع دخان داكن في أجزاء مختلفة من المدينة. تجمعنا في الخارج على طول الطريق إلى طهران واستمعنا لمذياع محمول. كانت الساعة تجاوزت الرابعة والمذيع يقرأ آخر بيان للحاكم العسكري:

يا أهالي طهران، سيُفرض حظر التجول من الرابعة بعد ظهر هذا اليوم. لكي نحمي حياتكم وأملاككم، قواتنا الباسلة لديها أوامر صارمة بإطلاق النار على أي عناصر مخربة تتحدى هذا الأمر دون اعتبار.

تبع البيان موسيقا عسكرية ثم تكرر. كان العمال في "جنرال إلكتريك" ما زالوا يطالبون بأجورهم المستحقة. وصلت الأخبار عن اندلاع معارك مسلحة في أرجاء المدينة. استطعنا رؤية دخان الأبنية المحترقة من مسافة أميال.

لم تستطع لجنة التخطيط الاتفاق على مخطط. أصر محمد أننا يجب أن نبقى هناك مع العمال.

"الثورة ستنتصر"، تذرع بالقول، "معنا أو من دوننا. لا يهم من يحكم البلد، هؤلاء العمال سيطالبون بالأشياء نفسها".

كنت متعاطفاً مع محمد لكنني لم أستطع تجاهل إراقة الدماء في المدينة. "يجب أن نكون هناك. ماذا سنقول عندما يسأل الناس لاحقاً أين كنتم خلال الثورة؟ أبواب أي سجن كسرنا؟ أي قاعدة عسكرية احتللنا؟ على أي بناء حكومي سيطرنا؟".

أدرك محمد أنه لا يستطيع أن يربح هذا الجدال. بقي بينما عاد بقيتنا إلى المدينة واحتفلوا بالنصر النهائي للثورة.

يُعدم محمد بعد ثلاث سنوات لاحقة.

وفي الوقت نفسه تقريباً، يموت أرجنغ تحت التعذيب خارج غرفتي دون أن أستطيع أن أقر بموته.

الأشياء تتفكّك

لم أتحمل فكرة أن فرهاد مخبر. ليس لأنني كنت قريباً منه، وإنما لأنه كان كل ما تبقى من عالمي المنكمش خارج غرفة التحقيق.

بعد أيام من منعي من النوم، لم أتمكن من النوم. لم أعرف هل السبب هو الخوف، أو القلق، أو الإرهاق، أو الألم، أو الخلل في الشوارد، أو أي أسباب جسدية أو نفسية أخرى. لم أكن مهتماً. أردت فقط أن أنام. تركت دماغي ينكمش مثل إجاصة مجففة.

فُتح الباب بعد وقت قصير من عودتي إلى الزنزانة. لم يحتاجوا إلى قول شيء. عرفت أنه عندما يفتح الباب، عليّ أن أنهض وأستعد للذهاب. لم أكن بحاجة إلى مساعدة الحارس للخروج من العنبر هذه المرة. خطوت خارجاً لكن الحارس شدني إلى الخلف قبل أن أنزل الدرج.

"هل نمت قليلاً؟"، سمعت صوت محققي يسأل. ماذا كان يفعل في منطقتي؟

"لا، بالطبع لا! أليس ذلك هو المقصود؟".

"أنت تكثر الكلام حين يكون عليك ألا تفعل وتصمت عندما يكون عليك أن تتكلم. أردت فقط أن أذكرك أن لدينا موعداً نهائياً اليوم. عليك أن تقرر. لا تدعني أقرر عنك".

كنت متعباً من تهديداته. ظننت أنه كان يبالغ. لكنني بقيت غير قادرٍ على فهم إستراتيجيته. عرف الكثير من الأشياء، الكثير جداً من أعضاء المنظمة، الكثير جداً عن عملي. ومع ذلك، كان مصراً أنني يجب أن أعترف بالأشياء التي يعرفها سلفاً.

ربما يريد حمايتك فعلاً؟

لكن لماذا؟ لا يمكن أن يكون مهتماً بأمري.

ربما أنت مخطئ في ما يتعلق بهؤلاء الناس.

أظن أنك تُجن. ليس لدي شكوك حول ماهية هؤلاء الناس. هم مجموعة من القتلة. ألم ترهم في إيفين؟

لكن كيف تعرف أنهم هم أنفسهم؟ ربما ليسوا كذلك.

لا أريد أن أسمع هذا.

"أردت أيضاً أن أخبرك أننا نعرف أن إسماعيل هو أخوك".

اهتز صوته الواثق في الهواء. ارتعد جسدي كله. انهارت ركبتاي وأسندت ظهري إلى الجدار خلفي.

ركلني الحارس بأقوى ما عنده. "انهض، أيها الكلب الجبان".

"دعه"، قال المحقق للحارس بهدوء. ثم جلس قربي لبضع ثوانٍ وبدأ خطبته من جديد. "أنت ترى كم هو صعب عملي. أشعر بنوع الغضب نفسه الذي يشعر به هذا الأخ نحوك. نحن نريد أن ندفع الثورة إلى الأمام. لدينا مسؤوليات أكبر بكثير من التعامل مع حفنة من معارضي الثورة. لدينا أهداف مقدسة. ونحن بالتأكيد نعلم أننا سنحققها عاجلاً أم آجلاً. مع كل يوم يقضيه هذا الأخ واقفاً هناك يحرسك ورفاقك يزيد غضبه عمقاً ويكبر استياؤه. وأنت تجلس هنا مرتاحاً وتفكر أنك تخدعنا. أنت تحتقرنا وتظن أنك أذكى من كل شخص يعمل هنا بجدٍّ. أنت تظن أن آلهة التاريخ في جانبك. أعرفك. أعرف كم أنت ضعيف وحقير. يمكنني فقط أن أمضي الآن وأترك إخوتي هنا يجعلونك ترى ما هي عقوبة الخداع".

"أنا لا أخدع أحداً".

"إذاً، أخبرنا. أين أخوك؟".

في وقتٍ ما بعد منتصف الليل وقبل شروق الشمس، بعد عدد غير معروف من الأيام والليالي من التحقيق، شعرت أنني لم أعد قادراً على التفكير في كذبة. لم أعد قادراً على التفكير.

أخبرهم. سيكتشفون بطريقة أو بأخرى. أخبرهم.

لكنه أخي.

ما الفرق الذي يسببه ذلك؟ كل شخص هو أخ، أو أختٌ لأحدهم، أياً كان. أخبرهم.

"أعرف، لكنني لن أخبرك. الآن، لا يمكنك أن تقول إنني أخدعك. أليس ذلك ما تظنه الحقيقة؟ ألا تظن أنني أعرف لكنني لن أقول؟ حسناً. أنت ربحت. أعرف ولن أقول. ألم تقل إنكم لا تعذبون الناس هنا؟ أنتم تعاقبونهم على الكذب فقط؟ الآن، أنا أخبرك الحقيقة. أعرف وسأحتفظ بما أعرفه لنفسي".

"تظن نفسك ذكياً"، غادر وتركني وحدي مع الحارس.

عدت إلى زنزانتي هذه المرة بعد يومين ربما. تجمع رفاقي في الزنزانة فوق الأرض حول سفرة صغيرة تشاركوا فيها عشاءهم. كان فرهاد غائباً. لم يكن لدي رغبة في الحديث. وكأنه عرف أن عيني كانتا تبحثان عن فرهاد، نظر الكولونيل صيرفي مباشرة إليّ وقال: "أُعدم فرهاد الليلة الماضية". غمّس قطعة كبيرة من الخبز في كأس الماء ودفعها في فمه. "كان يعرف وكان مستعداً"، تابع الكولونيل وفمه مليء.

"دع المسكين يجلس لثانية"، صاح به درويش. مشيت إلى زاويتي دون أن أنبس بكلمة. "يجب أن تأكل"، قال صيرفي متجاهلاً درويش. "لا تريد أن تموت من الجوع. إذا كانوا سيقتلوننا، فسيقتلوننا. تلك هي فلسفتي".

"على الأقل نحن نعلم أن سنوات خدمتك في الجيش لم تذهب سدىً. جعلت منك فيلسوفاً"، كان درويش الوحيد الذي استطاع أن يقول كل ما تمناه، "لو كان لديك بدل المعرفة الفلسفية بعض الرصاصات، ربما كنا سنكون في مكان أفضل الآن".

"كنت محترماً جداً على الدوام"، صاح الكولونيل، "لكنك تصعّب الأمر عليّ كل يوم. ما الذي تريده مني؟".

جلس الآخرون بهدوء بينما تبادل الاثنان جولتين إضافيتين من الإهانات. لاحقاً سأعرف أن مصدر عدائية درويش تجاه صيرفي جاءت من حقيقة أن الأخير كان مسؤولاً عن تسليم أخ الأول. كان الكولونيل واحداً من قادة محاولة الانقلاب الفاشلة. من الواضح أنه كان مسؤولاً عن الغناء مثل العندليب، كما كان محققي يقول، وعن إعطاء أسماء كل من شارك في التخطيط للانقلاب الفاشل. رغم أن درويش عمل مستشاراً اقتصادياً للرئيس الأول للجمهورية، فإن اعتقال أخيه أثار حوله الشبهات، وانتهت مهمته السياسية وكلفه الأمر حريته. لذا، لم يكن لتبادل الإهانات الذي حدث في تلك الليلة علاقة بي أو بفرهاد.

استؤنف روتين التحقيق باكراً في الصباح التالي. ذهب الآخرون إلى الحمام قبل الفجر، ونزلت أنا معصوب العينين. لم أستطع تذكر الأسئلة، والأسوأ: لم أستطع تذكر الإجابات التي أعطيتها.

عاودني صداع الشقيقة.

صارت متابعة الوقت أصعب كل يوم. كنت مقتنعاً أنني سأفقد عقلي إن تخليت عن معرفة اليوم أو الساعة. قرروا هذه المرة أن ينقلوني بين غرف تحقيقٍ مختلفة، وأنا فقدت الإحساس بالاستمرارية فعلاً عند خروجي من تلك الغرفة التي كان فيها النقش: "هذا أيضاً سيمر". عرفت أنهم سيغيرون غرفتي كل يوم إن أمكنهم ذلك.

”إذاً، دعنا نجد أساساً مشتركاً“، أصر المحقق، ”سأعرض عليك مجموعة جميلة من الصور وستكتب تحت كل صورة ما تعرفه عن أصحابها، وتضيف إذا كنت تعرف أياً من أسمائهم المستعارة. لا بد أن هذا بسيط“.

ترك كتاباً ضخماً من الصور على الكرسي. وكالعادة، اختفى.

لم أفتح الكتاب. بدأت أتحرك في الغرفة بدلاً من ذلك، محاولاً التركيز على شيء آخر. عاد عقلي إلى أيام الجامعة، وتذكرت عندما نظمنا، أنا وسايروس، بعض الحفلات الموسيقية في حرم الجامعة. ظن الجميع أننا كنا مجنونين لنطلب من مجموعة من الطلبة أن يجلسوا في قاعة ويستمعوا لموسيقا كلاسيكية.

كم كان غريباً أن سايروس كان من معجبي سيبيلوس. كان هذا الطفل من لنغرود مفتوناً بموسيقا الملحن الفنلندي. ادعى أن الرابط بينهما كان الطبيعة: الأشجار والينابيع والجبال والبحر. ما الفرق بين أن تكون طبيعته مثلجة جداً ومتجمدة ودائمة الخضرة، وبين طبيعة الفصول الأربعة التي أعيشها على شواطئ بحر قزوين.

ماذا عن المرة التي أراد أن يضع فيها En Saga[9] كمقطوعة افتتاحية لسلسلتنا؟ ظن أن المقاطع القليلة الأولى كانت تماماً مثل جولة مبهجة في الغابات: غموض، انتعاش، سعادة.

9 سيمفونية للملحن الفنلندي جان سيبيليوس.

لكنك أردت قطعة مألوفة أكثر وكالعادة وضعتها بطريقتك.

لكنني كنت محقاً. يمكن لمجموعة الطلبة الذين لم يسمعوا في حياتهم نوتة كلاسيكية أن يتعلقوا بملاحم عدة لكن ليس En Saga، ليس سيبيلوس.

أنت فقط لم تكن تثق بذائقة غيرك الموسيقية.

لا، أحببت ذوق سايروس. أنا أيضاً كنت معجباً بسيبيلوس. ألم أطلب منه أن يكتب ملاحظات البرنامج؟

نعم، ثم غيرت كل ما كتبه.

لا، ذلك ليس صحيحاً. كتب مقطعاً جميلاً عن ”shur“ لأمير عميروف.

عمل عليها لأسبوعين. ”shur“، أذكره يكتب في دفتر البرنامج، ”أعجوبة الموسيقا الكلاسيكية في أذربيجان السوفياتية“.

تذكر أنك أضفت كلمة ”السوفياتية“ إلى النص. أردت أن تدخل إيحاءً بالاشتراكية وتتأكد أنك تعيد بعض الفضل بإبداع عميروف إلى تربيته الاشتراكية.

ألا يمكنك أن تستمتع بهذا دون مقاطعات؟

”ارجع إلى مقعدك. وجهك إلى الجدار“.

فُتح الباب ووضعت صينية على الأرض. الفطور. فنجان من الشاي الفاتر بلا لون، حبتان كبيرتان من التمر، كسرات من الجبن، مكعبان من السكر. كانت التمور جديدة على صينية اليوم. كانت طرية وطازجة.

إذاً، أين كنا؟

”shur“ مقام سيمفوني، جمع الفن الارتجالي مع الصلابة البنيوية للأشكال السيمفونية، بدلاً من التناقض في التعبير. لكن ذاك هو سر جمال هذا العمل. مليء بعدد لا منتهٍ من الاحتمالات، المبادرات، المقترحات، اللحظات التي تتطور معاً، لكنها تبقى غير كاملة.

كان من الواضح أن لها قصة فعلاً عند سايروس. هي تحكي قصة راعٍ يبحث عن قطيعه الضائع. ليس لدي فكرة من أين جاء سايروس بهذه الحكاية، لكنها حققت المعنى الأفضل. يبدأ صوت الكلارينت المنخفض القصة بصورة محزنة من الوحدة والضياع. ثم يمنح قرعُ الطبول الضعيف الكلارينت إحساساً بالحركة، والبحث، والانتباه. تصور الأوركسترا لوحةً بعد أخرى من بحث الراعي. ترسم مشاهد مختلفة من حياته، بعضها مليء بمقاطع بسيطة من الفرح، وبعضها مشحون بتنافر معقد من الألم. لكن الكلارينت تصمت من جديد، وتُعزف مع

إحساس بالهدف. تظهر الألحان الفلكلورية المألوفة وتختفي وتعطي المستمع شعوراً بلحظات عابرة من المتعة. تضاف ألفة هذه اللحظات المسحورة إلى الإحساس العميق بالترقب، بقلب صفحة. لكن ذلك في النهاية ليس ما يجده الراعي. الشيء الوحيد الذي يبقى هو قرع الطبول، يتلاشى الباقي في الخلفية. هل كان ذلك بحثاً منتهياً أو مستمراً؟

أدركت أنني أستطيع أن أعزف المقطوعة كاملة في عقلي، من البداية حتى النوتة الأخيرة، خلال عشرين دقيقة تماماً. وجدت طريقة رائعة لتتبع الوقت. عزفت "shur" في رأسي مراراً وتكراراً، كل ثلاث مرات تساوي ساعة واحدة.

لكن عزف "shur" في رأسي لم يعطني حلاً لمشكلة ألبوم الصور. كان هناك مئات من الصور في الكتاب السميك، تتضمن صورة وجهي التي كانت في هويتي الجامعية. كتب اسم "أكبر" بخط اليد أمام "الأسماء الأخرى" تحت الصورة. لم يكن هناك الكثير مما يمكنني إضافته إلى ما اكتشفوه فعلاً. شعرت على نحو غريب أنني كنت مرتاحاً لأنني لن أتحمل عبء كشف هذه الأسماء. شعرت بالراحة على نحو مخزٍ.

أعطاني الكتاب أيضاً إحساساً زائفاً بالأمان. بدأت أصدق ما كان يغرسه المحقق في رأسي بأنه عرف أكثر مما قال إنه يعرفه. زاد هذا مصداقيته بالنسبة إلي. ظننت أن بإمكاني أن أتشارك معه شيئاً فشيئاً بعض المعلومات التي كنت أعتبرها "عبئاً". فكرت أن بإمكاني أن أعطيه بعض العناوين القديمة التي كنت واثقاً أنها هُجرت قبل وأكسب ثقته.

أعطيته أربعة عناوين، كل منها في يوم منفصل. أردت أن أتأكد أنه في حال كان أي منها لا يزال قيد الاستخدام سيتمكن الآخرون من أخذ احتياطاتهم على الأقل. لعبوا هذه اللعبة أفضل بكثير مما فعلت.

احتفظوا بالعناوين وخططوا للهجوم عليها في آنٍ واحد. أخذوني معهم أيضاً. أقحموني معصوب العينين بين المقاعد الخلفية والأمامية. كنت آمل أن أتمكن على الأقل من رؤية بعض حياة المدينة في الشوارع. لكن ذلك كان طلباً كبيراً جداً. كنت محقاً في العناوين الثلاثة الأولى. الناس الذين عرفتهم رحلوا قبل زمن طويل. كانت المحطة الأخيرة مختلفة. فتح أحد المشتبه فيهم الباب. طلبوا مني أن أزيل العصبة، وألبس قناع التزلج، وأجلس في المقعد الخلفي. قادوا السيارة قرب المنزل وهم يتحدثون إلى الرجل الذي فتح الباب. "انظر إليه"، ضغط الحارس المسدس على صدغي بقوة، "هل تعرفه؟". كانت عيناي مشوشتين من ضغط العصبة عليهما، وصداع الشقيقة، والآن فوهة المسدس الطائشة. "أحتاج دقيقة لأرى". قربوني من الشارع. تأكدوا أن الرجل الذي فتح الباب لن يراني. اقتربوا من البناء ثانيةً ومن المقعد الخلفي للسيارة عرفت جامشيد.

ما الذي يفكر فيه؟ لماذا لا يزال هنا؟

هذه خدعة. اعتقلوه مسبقاً وهم يحاولون أن يختبروا صدقك. أخبرهم أنك تعرفه. هم سلفاً يعرفون... أنت لا تخون أحداً.

مخطئ. لا يمكن أن تكون هذه خدعة. هو مجرد أبله ما زال يعيش في المكان نفسه الذي كان يفترض به هجره قبل أشهر.

"هل تعرفه؟"، ضربني الحارس على رأسي بالمسدس.

"لا. لم أرَ هذا الرجل في حياتي".

"سأطلق النار على دماغك الآن وهنا. ما اسمه؟".

"لا أعرف. قلت لك. لم أرَ هذا الرجل في حياتي كلها".

"تظن أنك تستطيع أن تضللنا بمثل هذه التصرفات؟ تظن أنك تستطيع أن تفلت من العقاب". وضع المسدس تحت ذقني وضغطه بكل قوته. استطعت أن أعيد كلمات "لا أعرفه" مرة ثانية.

"أنت تقتله"، حاول السائق أن يهدئ الحارس.

"إذاً، ماذا؟ عليّ أن أتركه يحتال علينا بهذه الطريقة؟". أرجع السائق نفسه إلى الخلف ودفعه بعيداً عني. كان هناك حارس آخر في المقعد الأمامي قرب السائق. بقي ذاك الحارس هادئاً واكتفى بمراقبة الآخرين يتشاجران حول كيفية التعامل معي.

"للمرة الأخيرة ألقِ نظرة وانظر هل تعرفه". دفع وجهي قبالة نافذة السيارة. لم أفتح عينيّ حتى. خرج الحارس الذي كان جالساً قربي وانطلقت سيارتنا.

أردت أن أبكي. لكنني لم أستطع أن أبدي أياً من علامات الخوف أو الضعف أو الندم أو أي مشاعر أخرى للأشخاص الذين كانوا يعيدونني إلى الحجز. منعتني الفكرة غير المحمولة عن اعتقال جامشيد أن أدرك أنني كنت أجلس في المقعد الخلفي للسيارة ودون عصبة عينين. كان بإمكاني أن أرى المدينة الهادئة. لكن ذلك لم يكن مهماً.

فكرت أن هذه الإستراتيجية الكارثية قادت إلى اعتقال رفيق آخر. زاد ذلك ألم الشقيقة وأعماني أكثر.

"هل يمكن أن نقف عند صيدلية؟"، كنت يائساً.

"ماذا تحتاج؟"، أجاب السائق كأننا كنا في نزهة في آخر الليل.

"أحتاج بعض المسكنات لرأسي... لدي ألم شقيقة سيئ".

"ألم يعطوك مسكنات في المستشفى؟".

"فعلوا، لكن لديهم أسبرين فقط. لدي حساسية منه".

"إذاً، ماذا يحدث إذا تناولت الأسبرين؟".

"أصاب بصدمة فرط حساسية".

"أليس ذلك جيداً"، تكلم الحارس الآخر لأول مرة، "أنت تقصد الموت، أليس كذلك؟".

"نعم، قد أموت".

"ابنتي لديها الحالة نفسها"، تدخّل السائق. "نعطيها الأسيتامينوفين. أليس ذلك ما تريده؟".

"ذاك ما آخذه". لم يكن قوياً كفاية لكنه كان أفضل من لا شيء.

"حسناً. سأتوقف عند صيدلية. هناك واحدة قريبة تفتح على مدار الساعة".

لم أكن أريد المسكن فقط. سمعت من الآخرين الذين كانوا في الخارج في مهمات التعقب هذه أنها تعطي للشخص أفضل فرصة للهرب. كلما توقفنا أكثر، كانت الفرصة أكبر. لكن لم يكن لدي فكرة كيف يمكن لأي موقف في منتصف الليل في هذه الشوارع الهادئة أن يكون مهربي العظيم المحتمل.

قبل أن تتوقف السيارة، طلب مني أن أعيد عصبة العينين وأندس بين المقاعد الخلفية والأمامية للسيارة. وقف إلى جانب الطريق وطلب من الحارس الآخر أن يحضر الدواء بينما ننتظر. أخبره أن يتأكد من إحضار بعض المسكنات الخالية من الأسبرين.

هذه فرصتك. فقط انهض واخنقه بأصفادك. سيستغرق الأمر مجرد دقيقة. اخنقه وخذ السيارة. يمكنك أن تقود وأنت مقيد اليدين. قبل أن يعود الحارس الآخر ستكون ابتعدت.

حاولت أن أستجمع قواي لأقتل رجلاً. كنت مشبعاً بفكرة أنني لا أستطيع قتل رجل. أضف إلى ذلك، أين سأذهب من هنا؟

هل أنت خائف أن يهزمك؟ وماذا إن فعل؟ هل ستذهب إلى مكان أسوأ من هذا؟

لا، هذه ليست نذالةً. ربما هي كذلك. لكنني لست نذلاً لأقتل.

"سيكون الأمر جيداً، إن شاء الله"، قال السائق دون أن يوضح هل يتحدث إليّ أو إلى نفسه. "أنا متفاجئ كم هي مزدحمة الصيدلية في هذا الوقت من الليل"، تابع.

أقول لك: هذه فرصتك. يمكنك فقط أن تقود مباشرة خارج المدينة وتجد طريقك خارج الحدود. تذكر رسالة كاك رضا. يمكنك أن تغادر البلاد في يومين.

"هل تريدني أن أرفع المكيف؟". لم يكن يعرف كم كانت ساخنة فكرة قتله التي تولدت قبلُ في المقعد الخلفي.

"أنا بخير"، تمكنت من التلفظ ببعض الكلمات. عاد الحارس الآخر بعد بضع دقائق. رمى الحبوب على المقعد الخلفي وهو يلعن بصوت منخفض.

سأعلم بعد بضعة أشهر أنهم لم يعتقلوا جامشيد أبداً. ظننت أنني كسبت بعض المصداقية في الإشارة إلى أثر قديم. وبالركوب في السيارة ورؤية المدينة ليلاً، كسبت أيضاً زخماً جديداً. أعطاني هذا قوة غير متوقعة لأواجه غضب المحقق بسبب الإخفاق في محاولة الاعتقال الجماعي.

سمع رفاقي في الغرفة أخبار بعثة المدينة بشكوك عميقة. عرفوا جيداً العواقب الوخيمة. لم أستطع إخبارهم أنني عرفت أن هذه الهجمات لن تثمر تقريباً. تظاهرت فقط أنني وصلت إلى أقصى حدود تحملي. أملت أن يكون أحدهم مخبراً ويخبر محققي أنني كنت مكسوراً في النهاية. لكن ذلك لم يحدث.

تناولت الفطور في الغرفة في اليوم التالي. لم يتلفظ أحد بكلمة، باستثناء الكولونيل الذي رأى فيّ تبريراً للتبرئة من أعماله، "هذا فطورك الأول معنا". حشا فمه بقطعة كبيرة من الخبز اليابس. بدا كأنه تغلب على قلقه بالتحدث وفمه مليء. "كلنا لدينا تقلباتنا..."

"دعه وشأنه"، لم يسمح له درويش أن يكمل جملته، "ستقتل شهيته". فكرت أن درويش رأى أنني لم أكن أستحق ذاك النوع من التواصل الذي كان الكولونيل على وشك أن يقيمه معي. راقب الآخرون المحادثة دون أن يتدخلوا. سأعرفهم على نحو أفضل لاحقاً، لكن حتى الآن ما زال وجودهم عابراً.

"إذاً، عشت مغامرة حقيقية الليلة الماضية"، حيّاني محققي بهدوئه المعتاد. ثم توقف عن التحدث وجال في الغرفة خلفي كأنه يفكر في حركته التالية. جلست صامتاً.

"أظن أن الوقت حان لأدعك تعرف من يوجد هنا وكيف نعرف كل شيء عن نشاطاتك السرية. أنت تعرف كاوه، صحيح؟ كنتما صديقين مقربين وفعلتما الكثير من الأشياء معاً، قبل الثورة وبعدها. صحيح؟ لا أريدك أن تظن به سوءاً، هو لا يزال صديقك ويعرف أن نوع الأخطاء التي ارتكبتموها ليست فاحشة. ويظن أنه بمرور وقت أطول ستكونون جميعاً قادرين على رؤية أين كانت أخطاؤكم. لكن حدث أنك اعتقلت وحُرمت فرصة أن تعيد التفكير في ماضيك بشروطك. أوافق أن هذا حظ سيئ. لأنه الآن أياً كان ما تقوله عن أخطائك الماضية لن يساعدك أنت ورفاقك. أنا صادق جداً معك. أنا لا أقول إنه ليس هناك أمل، لكن ذلك الأمل باهت جداً ويتلاشى بسرعة.

أنا لا أريدك حتى أن تقول أي شيء عن نفسك. ذاك انتهى. ملفك أغلق وأياً كان ما نحتاج إلى معرفته، عرفناه. أنا فقط أريدك أن تعطينا بعض المعلومات عن كاوه. علينا أن نتحرك بسرعة. لدينا أطنان من الملفات المتراكمة".

"أخبرتك مسبقاً كل ما عرفته..."

"أصغِ، أنا لست هنا لأناقشك في أي شيء. نحن انتهينا. فقط اربط أطراف بعض الخيوط السائبة ولن تسمع صوتي مرة ثانية أبداً".

استغل الفرصة. هل أنت تعب من سماع صوت ابن العاهرة المأفون هذا؟ كم عدد الأيام التي مرت؟ انتهى الأمر، فقط أعطه ما يريد ولن تسمع صوته ثانية أبداً.

لكن ألن يقتلوني مباشرة بعد أن أخبرهم ما يريدون سماعه؟

ماذا إذاً؟ سيقتلونك مهما كان الأمر. لماذا لا تنهي الأمر على نحو أسرع؟ تريد معجزة؟ ذلك لن يحدث. كن واقعياً.

لكن إن كنت سأقتل على أي حال، فلماذا عليّ أن أزعج نفسي بالتحدث؟ سأبقي فمي مغلقاً.

يمكنك إبقاء فمك مغلقاً، لكن يمكنهم أن يفتحوه لك. أنت لا تريد أن يحدث ذلك. إذا فتحوه لك، أنت لا تعرف نوع الكلمات التوريطية التي ستخرج منه. عليك ألا تجازف بذلك. دعهم يظنون أنك رأيت الضوء.

"أنا لا أريدك حتى أن تخبرنا أي شيء. أخبرنا كاوه كل تفصيل عن نشاطاتكم ولست بحاجة إلى أي تأكيد منك. أنا بحاجة إلى أن أعرف فقط هل يمكنك أن تضيف شيئاً على ما اعترف به عن نفسه".

عرفت أن كاوه لا يمكن أن يكون المصدر الوحيد لمعلوماته. لكنني أقنعت نفسي أن معظم ما يعرفه كان منه.

ماذا تنتظر؟ ألم يكن كاوه آخر شخص فكرت أنه قد يغدر بك؟ تذكر ما كان يقوله دوماً بفخر: الثورة يجب أن تحلق كنسر، عالياً دوماً، بعيون حادة وعزيمة ثابتة. الثوريون المترددون مثل الغربان. يطيرون على ارتفاع منخفض ويتغذون من فتات الآخرين. الآن هو يحلق منخفضاً جداً. لماذا عليك حمايته؟

لكن كيف أعرف أن ما يقوله المحقق هو الحقيقة؟ ألا يمكن أن تكون هذه خدعة أخرى؟

من يعرف كل هذا عنك أيضاً؟ هل تظن أنه يخمن؟

قرأ قائمته الشاملة تقريباً لنشاطاتي. اعترفت بها كلها، لم يكن هناك فائدة من إنكار أي منها. ثم قرأ سلسلة من التهم الموجهة ضد كاوه. بدأت كل جملة بـ"يقول، إنه قام...". وكانت جميع التهم صحيحة. أكدت أيضاً ما قاله عن كاوه دون إضافة أي شيء إلى القائمة. كل ما عرفه كان دقيقاً وصحيحاً.

غادر الغرفة وعاد بعد مدة قصيرة. أخذني خارج الغرفة وطلب مني أن أتبعه. دخلنا غرفة أخرى وطلب مني أن أنظر من تحت عصبتي. رأيت كاوه يجلس مواجهاً الجدار. ثم طلب مني أن أقول اسمي الكامل وشهرتي بصوت عالٍ. فعلت. "ألم تقل إن كاوه كان مسؤولاً عن تنظيم اجتماعات الحي؟".

انهار عالمي.

"لا!"، قلت.

"ألم تقل إن كاوه كان مسؤولاً عن تجميع مواد الأخبار لينشرها في صحيفتكم؟".

"لا!"، كررت.

"ألم تقل إنه كان مسؤولاً عن ثلاث مجموعات دراسية؟".

"لم أقل شيئاً من هذا".

"انتهيت منك"، سحبني خارج الغرفة ودفعني مقابل الجدار ويده على حنجرتي. "سأريك ما يعنيه التعاون. ستعود وتتوسل من أجل الرحمة. سترى".

بينما ألهث للحصول على الهواء، رماني على الأرض ونادى سيد، بطل التعذيب الأصم الأبكم، ليأخذني. عاد إلى الغرفة حيث كان كاوه. سمعتهما يتناقشان. أفسدت مخططه لكنني لم أكن أعرف كمية الأذى الذي سببته فعلاً.

أنت لم تخلق لهذا. أنت ضعيف وتفكر في نفسك فقط. لماذا لم تصغِ إليّ عندما أخبرتك أن الطريقة الوحيدة للخروج من هذا بكرامة هي بالبقاء صامتاً؟ أبقِ فمك مغلقاً، أنت أبله.

لكنني فكرت أنني أستطيع أن أنقذ نفسي وأحمي الآخرين بالتظاهر أنني كنت مكسوراً ومستعداً للتعاون.
نعم، أنت محق أنت أردت أن تنقذ نفسك. لا تخدع نفسك بتخيل أنك كنت تحمي أحداً.
عرفت أنني لن أستطيع إنقاذ نفسي. عرفت أنني كنت منتهياً في اليوم الذي اعتقلت فيه.

أخرجتني ركلة على جبهتي من جدلي الذي بلا فائدة. ”أخبرته أنه كان يضيع وقته“. سحبني اثنان من الحراس فوق الأرض.

”كيف نجيب إخواننا المقتولين موجة بعد موجة يستشهدون كل يوم على جبهة الحرب وفي الشوارع بأيدي هؤلاء القتلة؟ أنا خجل من نفسي. لن أكون قادراً على النظر في أعين هؤلاء الشهداء عندما أراهم إن شاء الله في الجنة، وأخبرهم أنني كنت أطعم الكفار عنما كانوا هم يخوضون حرباً مقدسة“.

”سيد، أعلمني إن احتجت شيئاً“، تركني الحارس في الغرفة تحت رحمة سيد.

بعد يومين أعادوني إلى غرفتي.

الحارس نفسه الذي أعادني طلب من الكولونيل أن يجمع أشياءه. ”يومك محظوظ“، قال لي الكولونيل، ”ستحتاج أشيائي أكثر مما سأفعل“. فوجئت كم بدا هادئاً. ظننت أنه سيخر راكعاً على ركبتيه يتوسل فرصة أخرى لكنه بقي متماسكاً. ”درويش، أنا آسف. أنا لست مقامراً جيداً“، ارتعد صوته، لكنه استعاده بسرعة، ”أطلب المغفرة من الله“. عانقه درويش.

”انظر إلى نفسك“، أخرج الكولونيل سرواله الخاكي القديم من كيسه، ”أنت فوضى كاملة“. كانت ثيابي كلها مغطاة بالدماء وممزقة. كنت نتناً من مزيج الروائح المتعفنة التي يمكن للشخص أن ينتجها. لم يستطع أن يقترب مني أكثر لكنه ترك السروال على الأرض. ”قد يكون قصيراً قليلاً، لكنه مثل الحياة“.

أُعدم الكولونيل مع اثني عشر آخرين بمن فيهم شقيق درويش.

غاب محققي الخاص جداً عن اللقاءين التاليين. كانت اللقاءات أشبه بجلسات مراجعة. ”كلما أسرعنا في إكمال هذا“، قال المحقق الجديد الذي بدا أكبر من السابق، ”أسرعنا في محاكمتك“. لم أكن متأكداً هل عليّ أن أكون شاكراً أو خائفاً من إمكانية محاكمة مبكرة.

بعد يومين، قُدّمت إلى المحاكمة، عقب تحقيقي الأخير.

رحلة إلى شالوس

لمحت سايروس من تحت عصبة عيني وأنا على الدرج في طريقي للمثول أمام المحكمة للمرة الأولى. وضعت يدي على كتفه وضغطت بلطف دون أن أعلم هل رآني. لم نكن قادرين على تبادل الحديث على أي حال.

لم يكن هناك إشارة إليه في استجواباتي لكنني غالباً ما فكرت فيه وفي حبه للموسيقا.

همهمت بضعة ألحان من En Saga، مقطوعتنا المفضلة، بهدوء قدر الإمكان. أحبَّ هو سيبيليوس بقدر ما أحببت مالر. سألني ذات مرة: "هل ترى غموض الغابة في جمل الافتتاحية؟ كم هو مدهش سيبيليوس بهذا الصمت الثقيل؟".

لم يتحرك.

جربت أن أهمهم جملة موسيقية من المقطع الذي تعزفه الآلات الوترية بصوت أعلى قليلاً.

لمس إصبعي بإصبعه.

كشف كل شيء في جسده وسلوكه أصوله القزوينية من لحظة لقائنا الأولى: الأنف المعقوف، الرأس المسطح، الجسم الممتلئ، الخطوات القصيرة السريعة، اندفاعه المتحمس للتحدث. كل العلامات الواضحة التي لا لبس فيها عن موروثه. في أحد أيام الشتاء الأولى عام 1978، بينما هو ينزل الأدراج المكسورة لمنزلهم المتهاوي العائد إلى عهد الاستعمار في لانجيرود، بدا لون خدي سايروس المنتفخين قرمزياً أكثر من المعتاد. سمعت صوت أمه الواهن يأتي من إحدى الغرف السبع الرطبة في تلك الفيلا التي كانت رائعة ذات يوم.

"احذر على تلك الأدرج"، قالت، "ولا تقترب من تلك الأفاعي، دعها...". اختفى صوتها المرتجف وسط صوت قطرات المطر.

أسرع سايروس نازلاً متجاهلاً توسلات أمه، "تعالَ هنا"، قال بحماسة صبيانية، "أريد أن أريك شيئاً".

كنت مسحوراً بذاك المنزل القديم والحديقة الكبيرة التي تحيط به. وقف سايروس أمام المنزل متجاهلاً المطر، ولوح بيده فوق رأسه.

"هيا انزل"، قال وعيناه مثبتتان على الفراغ الواطئ تحت المنزل. "هل رأيت في حياتك وكراً للأفاعي؟"، سأل بصوتٍ مضطرب محاولاً أن يخفي خوفه. "حقاً ليس هناك ما تخشاه. عليك أن تحذر الأفاعي فقط عندما تضع بيوضها، فهي تصبح عدائية جداً". حاول أن يظهر تفوقه في الحديث عن سلوك الأفاعي على فتى المدينة الذي هو أنا. "ترى"، قال وهو يلتقط غصن شجرة من الأرض ويمده أمامه، "هذا نداء الطبيعة، غريزة الأمومة لحماية الطفل. تماماً مثل أمي، ألم تسمع توسلها؟ لو أنها فقط تملك قوتها القديمة...". أدار رأسه نحو غرفة أمه لجزء من الثانية.

بدت أمه ضعيفة وأكبر بكثير من أن تكون أماً لشاب في العشرين. رغم أننا قضينا مقداراً كبيراً من الوقت معاً، لم نتحدث عن حياتينا أبداً؛ تحدثنا في السياسة فقط. كنا رفيقين عزيزين، لكن لم نكن صديقين مقربين. هل كانت زوجة أبيه؟ وما هي قصة أخته غير المتزوجة، مع من عاش في طهران، من هذا الذي كان أكبر منا بثلاثين عاماً تقريباً؟ وهذا القصر القديم؟ هل كان ملكاً لأبيه؟ هل يعود إلى طبقة النبلاء صاحبي الأملاك؟ كنت متلهفاً لإيجاد إجابات عن هذه الأسئلة أكثر من رؤية زوج من بيوض الأفاعي. نعم، كنت فضولياً وعصبياً نوعاً ما، لكن القصر المتهاوي، نصف الفارغ

مع شرفته الأمامية الواسعة المخفية خلف الأعمدة المنحوتة الجبارة، بدا لغزاً أكبر لي. لم أتجرأ على سؤاله.

تحركت بحذر بين قطع البناء المكشوفة، ونزلت الدرج بعشر خطوات حذرة وسريعة. "الوقت مظلم قليلاً الآن وربما لا نكون قادرين على رؤيتها"، قال وهو يرتدي وجه الخبير بينما بدأ يرمي بعض الحصى نحو الوكر. وقبل أن أخطو في الساحة، بدأ يقفز إلى الأعلى وللأسفل، "أسرع، إنها هنا!".

مد ذراعه دون أن يتلفظ بأي كلمة، حماني خلف ظهره، فهو بعد كل شيء الشخص الذي عرف ما كان يتعامل معه. مدت أفعى كبيرة رأسها من داخل وكرها المظلم.

"أوه، حسناً"، قال سايروس وهو يرمي غصن الشجرة بعيداً. "ما زلت أفكر أنك يجب ألا تذهب إلى شالوس، تأخر الوقت ولن تصل هناك قبل الظلام".

لم أذهب إلى شالوس أبداً من قبل. أدركت في مكان ما في عقلي غباء ما أفعله. كانت الساعة الرابعة وحسبت أنني برحلة أربع ساعات إلى شالوس سأصل هناك حوالى الثامنة. سيكون الظلام حلّ، لكن البلدة لن تكون خلت ويمكن دوماً أن أجد شخصاً يدلني على متجر أنسجة أخيه. قال لي عزيز، قبل مغادرة طهران، إن المتجر كان يبعد قليلاً عن آخر موقف للحافلة ويمكن لأي شخص في الجوار أن يدلني إلى متجر منسوجات "ممتاز".

"تأخّر الوقت على النقاش"، قلت لسايروس، "قررت، وعزيز ينتظرني".

لم يتوقع هذا. عكس تعبير الخبير الواثق بنفسه المرتسم على وجهه اضطراباً وقلقاً حقيقياً.

قلت له بلطف: "لا أريد أن أجعله يقلق".

"لكن هذا ليس آمناً". أصر سايروس، "البقاء خارجاً بعد أن يحل الظلام أمرٌ خطير، إنهم يشتبهون في الجميع هذه الأيام. تعرف ذلك أفضل مني. آمل فقط أنك تعرف الجحيم الذي تفعله".

عادة، عندما لا يتفق معك، يبدأ مخالفته دوماً بـ: أنا أوافقك، أنت محق، لكن...

فاجأ سايروس نفسه بشراسته. "أقصد هذا خطير"، تابع بلطف، "يمكنك أن تذهب باكراً في الصباح، سيعرف عزيز أنك علقت في مكان ما".

فهمت مشكلته مع تهوري. كنت أيضاً منزعجاً من مخططي المجنون لتسليم منشورات سرية لعزيز. لكنني وعدته أنني سأكون هناك وليس هناك ما يمكن أن يغير ذلك. تشبثت برأيي ولم أقدّر إصرار سايروس على تأجيل رحلتي. أمسكت حقيبة ظهري، أخرجت آخر منشوراتنا السرية ووضعتها في الجيوب العميقة في بطانة معطفي الشتوي الثقيل. وبدأت السير نحو المنزل.

"أين تذهب؟"، سأل سايروس بصوت عالٍ.

"لأودع أمك"، قلت.

"لا تزعج نفسك، لن تتذكر على أي حال. دعنا نذهب. سأصحبك إلى المحطة".

كان المطر قد ازداد غزارة وضوء النهار يتلاشى بسرعة عند الرابعة. "يجب ألا تذهب"، ترجاني من جديد. اكتفيت بالنظر إليه هذه المرة، وكان ذلك وافياً.

كانت المحطة مزدحمة بمئات الناس، وجميعهم متلهفون لصعود الحافلة. وفي اللحظة التي فتحت فيها المركبة بابها، اقتحمها حشد هائج وشق طريقه إليها بقوة. احتاج الأمر القليل من عدائية المنافسة، وهو ما افتقدته. مرت نصف ساعة وأنا لا أزال واقفاً غير قادر على تأمين مقعد. لم أجد فرصة في ذلك التدافع والتسابق. وفوق ذلك كنت عنيداً جداً لا أريد الاعتراف أنه كان مخططاً غبياً.

لو كان سايروس مكاني، لكان الآن في منتصف الطريق إلى شالوس. وراء سلوكه الهادئ كان داهية على الدوام، كما في هذه المرة. فبعد أن اختفى لوقت وجيز، عاد وأمسك معصمي وسحبني نحو مكتب المحطة. دخلنا واقترب منا شاب يمسح يديه المتسختين بقطعة قماش قذرة. ''اذهب مباشرة وراء الكراج وانتظر الحافلة الصغيرة البنية ذات الخطوط الوردية على جانبيها''، تمتم، ''قل للسائق أرسلني يادي''.

''يكلف هذا ثلاثة أضعاف''، همس سايروس في أذني، ''لكنني اهتممت بالأمر''.

تبعت سايروس قلقاً إلى وراء الكراج، حيث كانت الحافلة وصلت قبل وقت طويل. تبادلنا ما يشبه عناق الوداع. بعد احتضان سريع، ركبت الحافلة الصغيرة المتجهة إلى شالوس، مع تسعة رجال آخرين وسيدتين. جلس الناس أبعد ما يمكن عن بعضهم بعضاً وحاولوا التغلب على ارتعاشهم بفرك أيديهم وخفض رقابهم ضمن ياقات معاطفهم.

''سيدي السائق''، توسلت إحدى السيدتان، ''هل يمكن أن تزيد حرارة المكيف قليلاً، من فضلك؟''.

ثبت السائق مرآته الأمامية على وجهها. ''إنه معطل، سيدتي. لكن الجو هنا أدفأ من الوقوف خارجاً وأصابع قدميك متجمدة!''.

جعلت المنشورات التي دسستها في سروالي، تحت قميصي، الجلوس غير مريح أبداً، ليس جسدياً فقط، وإنما لأنها ذكرتني بمهمتي باستمرار. لم أرَ عزيز منذ أكثر من ستة أشهر، منذ غادر الحي الفقير زور آباد على الأطراف الغربية لطهران خوفاً من انكشاف مخبئه بعد اندلاع الاضطرابات في الحي.

عرفني إليه أخي الأكبر قبل عامين. كان عزيز ابناً لأبٍ يعمل في حفر الآبار وأمٍّ نساجة من جبال تالش، وقد كرّس نفسه خلال المدرسة للعمل في قضايا غريبة تخص العدالة الاجتماعية، تحديداً تلك التي ترتبط بما يخص الحياة الريفية والعمال الموسميين المدنيين. لم يظهر المثقفون تعاطفاً مع قضيته واعتبروا مثل هذا الحنين الرومانسي لحياة القرية القديمة أملاً عقيماً في وجه التمدد الرأسمالي. لهذا السبب، لم يتردد في التعبير عن شكوكه العميقة في المثقفين، سواء أكانوا من اليمين أم اليسار. ''عليك أن تفكر في أولئك الذين تنتفخ عروقهم في رقابهم عندما يتحدثون عن العدالة، لكنهم يتجاهلون ألم الغالبية العظمى من الشعب، الفلاحين''. آمن بقوة أن الإنسان لا يستطيع التحدث عن المعاناة دون أن يختبرها. ''أنت لا تتحدث عن العدالة''، اعتاد أن يقول، ''أنت تمارسها!''. كان ماويّاً قبل أن يعرف من هو ماو تسي تونغ.

لم يرفع عزيز صوته حتى خلال أكثر النقاشات حدة، ونادراً ما بدا متشدداً. لا يتغير لون وجنتيه السمراوين، وغالباً ما تظهر تكشيرة محيرة على وجهه. هل كانت ابتسامة متواضعة، ابتسامة لطيفة، أو إستراتيجية جذابة لربح النقاشات؟ في كل الأحوال، ظن أنني كنت قابلاً للخلاص وأن ثقافتي المدنية ذات السنوات الثماني عشرة لم تصل بعد إلى الطور المزمن. كان أكبر مني بأربع سنوات فقط، لكنه كان يبدو أكبر في كل شيء: طريقة لباسه وحديثه، إضافة إلى أسلوب تعامله مع الآخرين، بمن فيهم أنا.

انتقل إلى زور آباد بعد أن بدأت عامي الأول في الجامعة. ورغم أنه عرف جيداً أن دخولي الجامعة كان بحثاً عن روابط سياسية أفضل للمشاركة في الحراك، فإنه رأى أن صداقتنا كانت على مفترق طريق واضح في تلك اللحظة: أحدنا انضم إلى الشعب الحقيقي، والآخر أصبح مفتوناً بالمعارضة الطلابية الطفولية الصاخبة.

ضمت زور آباد روح شعبه. بناها العمال الموسميون المهاجرون خارج حدود المدينة، ومعظمهم كانوا من أرياف كردستان وأذربيجان. ظهرت الغرف المبنية من الطين وصفائح الألمنيوم على التلتين بين عشية وضحاها في تحدٍّ واضح لمخطط تطوير المدينة، ومن هنا جاء اسمها، زور آباد، بنيت بالقوة. ليس فيها كهرباء، ولا مياه جارية، ولا نظام صرف صحي. بالإضافة إلى مكتب رئيس البلدية، كان المطر عدوهم الأسوأ، فهو غالباً ما سبب انهيارات أرضية وأزال عدداً من المنازل. لا يمكن لأحد أن يترك مكانه خالياً، حتى لليلة واحدة، إذ يمكن لأي شخص أن يحتله، بما أنه ليس هناك عقود أو أوراق ملكية. إضافة إلى كونها تشكل عبئاً على موارد المدينة، خلق النمو السريع لزور آباد خارج محيط طهران حرجاً دائماً للنظام الذي تفاخر أنه عَبَر بوابات الحضارة العظيمة، كما اعتاد الشاه أن يتباهى.

بنى عزيز مع ابن عمه مقصورة خلال ليلتين وفي الحال أصبح ناشطاً في توزيع الماء لسكان الحي. حرص أن يوزّع الماء بعدل بين السكان عندما تصل الصهاريج مساءات الخميس. كانوا يصطفون، صغاراً وكبار، يحملون أواني بلاستيكية ونحاسية وقصديرية من أحجام مختلفة لأخذ حصتهم، وهم يشعرون في كل مرة بالإحباط والعصبية والخوف من ألا يكون هناك ماء يكفي للجميع. كان عزيز ساحراً في التعامل مع الحشد، لكنه وجد في عمله اختباراً لصبره. المرة الوحيدة التي رأيته فيها يصرخ بكل قوته كانت على شعبه.

حين يبدأ السكان التقاتل على المكان أو يختنقون من كثافة المقصورات، لا يستطيع لا عزيز ولا أي أحد آخر أن يمنع الاضطرابات والهجمات على شرطة المدينة. عندما بدأت أنباء الاضطرابات تتصدر الأخبار، كان يجب تدبر الأمور بواسطة الشرطة السرية الذين سيحاولون اجتثاث المحرضين.

أخبرت عزيز قبلُ أن الوقت حان له ليغادر زور آباد. ”ستشير العديد من الأصابع إليك“، قلت له.

أصغى إليّ بانتباه، ذقنه في راحة كفه وهو يحك خده بعصبية بإصبعه الطويل. اختفت تكشيرته، وللمرة الأولى منذ تعرفت إليه بدا خائفاً.

”لن يفعلوا ذلك أبداً“، قال مجادلاً.

”إذاً مم أنت خائف؟“.

”هناك آخرون كثر يعرفون ما أفعله هناك! أولئك الذين أخاف منهم، إضافة إلى أننا لا نريد أبداً اللجوء إلى العنف، ليس الآن... ليس الآن، ما زال الوقت مبكراً جداً“.

هل كان يقصدني بحديثه؟ هل كان قلقاً من أنني أو أي من الطلاب الآخرين الذين يعرفهم سيغدرون به؟ كنا، بعد كل شيء، مثقفين–ضعيفين، وأنانيين، ومتقلبين.

زادت برودة الحافلة الصغيرة بشدة بعد أن تسرب ماء المطر من خلال النوافذ. كان الظلام قد حلّ تماماً، لكن الضوء الخافت لمنازل القرى الموجودة على جانبي الطريق والأضواء العلوية القوية للسيارات العابرة جعلتني أشعر بالراحة. طالما هناك ناس على الطريق، سيكون الأمر جيداً. باستثناء المرأة التي اشتكت من البرد التي غرقت في النوم بعد وقت قصير من بدء رحلتنا لم يتلفظ أحد بكلمة.

”كم تبعد شالوس؟“، سألت الشاب الذي يجلس في المقعد أمامي، ليس لأكسر الصمت فقط، وإنما لأنني كنت بحاجة ملحة إلى استخدام المرحاض. بدأت أسمع هديراً عالياً في أحشائي وشعرت بحجارة ثقيلة في بطني. سألت لأعرف هل أستطيع الانتظار حتى نصل إلى شالوس.

"ما زال هناك حوالى ساعتين"، قال بطريقة تبين أنها لم تكن افتتاحاً لمحادثة. استدار وأسند جبهته إلى النافذة محدقاً في الطريق.

حصلت على جوابي، وعرفت أنني لن أستطيع الانتظار طويلاً.

بقدر ما يقدم المطر إحساساً بالهدوء، يمكن أن يجعل الحياة بائسة. كان المطر، في آخر مرة، أعظم المنقذين لعزيز. بعد خمسة أيام فقط من اندلاع أولى الاضطرابات، تم تحذير الشرطة وأشارت الأصابع بالفعل إلى ابني العم اللذين يعيشان قرب قمة التل. كانت زور آباد ليلية. بنيت المنازل وأزيلت خلال الليل. ذهب الناس إلى العمل قبل شروق الشمس وعادوا بعد الغسق، وشنت الشرطة الاعتقالات تحت جنح الظلام.

توجه خمسة من أفراد الشرطة السرية المسلحين قبل منتصف الليل لاعتقال عزيز وابن عمه المسكين، ضحية أجندته البريء، كما اعتاد أن يقول بأسف. أخبرني عزيز بعد أنه كان يحمل نسخة من الترجمة الفارسية لـ **الكتاب الأحمر** لماو وكانت تلك الليلة الأولى التي جرب فيها أن يطلع على مخطوطه المقدس. عندما خرج ابن عمه لدعم نظام الإنذار المؤقت المصنوع من عبوات قصدير حول منزلهم، شاهد أضواء وامضة يحملها رجال يحاولون تسلق التل. ولأن جميع من يسكن في الحي يعرفون أن المطر سيحوّل طريقهم إلى نهر من الطين في غضون دقائق، كان واضحاً أن هؤلاء الأشخاص ليسوا من زور آباد. منقذو عزيز الذين أرسلهم الله: المطر، والطين، وابن العم السريع البديهة. تركا منزلهما بسرعة أكبر تقريباً من السرعة التي بنوه فيها.

كنت أتعرق في تلك الحافلة المتجمدة. لم أتمكن من ضبط نفسي أكثر. ماذا أكلت؟

"هل من الممكن أن نتوقف قليلاً في مكان ما لثانية؟"، سألت السائق بخجل، "يجب أن أدخل إلى الحمام".

"أين تريدني أن أتوقف؟ هنا في هذا المكان المجهول؟".

كنت محرَجاً جداً، لم أستطع حَمل نفسي على قول نعم، من فضلك نعم، سأفعلها في أي مكان، حقيقةً ربما يحدث هذا تماماً على المقعد الخلفي اللعين في حافلتك اللعينة.

قبل أن أتمكن من فتح فمي، شارك المسافرون الآخرون شبه النائمين في الحديث. "وصلنا تقريباً، فقط تحمل قليلاً بعد".

"كلنا بحاجة إلى دخول الحمام".

"دعنا نصل في الوقت...".

كانت الاحتمالات ضدي. لا السائق ولا المسافرون سيستلمون، أرادوا أن نصل إلى شالوس دون توقف.

"حسناً...". لم أستطع حتى أن أكمل. كان ضغط التحدث كبيراً جداً. أردت أن أدع الشيء اللعين يخرج، لكنني كنت قلقاً بخصوص المنشورات.

"يمكنني أن أتوقف"، قال السائق مازحاً، "لكنني لن أنتظرك".

استدار الشاب الذي في المقعد أمامي ورأى قطرات العرق الكبيرة على جبهتي، فسألني: "هل أنت بخير؟".

اكتفيت بهز رأسي.

"نحن قريبون جداً من شاه سوار، لم لا تنزل هناك أمام مطعم أو شيء ما؟"، حتى قبل أن ينهي جملته، رأيت بطرف عيني لوحة على الطريق كتب عليها: "أهلاً بكم في شاه سوار".

كنت مجبراً على اتخاذ قرار حاسم: أتغوط هنا وأتحمل ما يجري، أو أنزل في شاه سوار، وأنا أعرف أن السائق المفتول العضلات ربما يتركني وراءه. ترددت بين الخيارين: عندما يخف الضغط، كنت أفكر أنني أستطيع البقاء بينما نصل إلى شالوس، وعندما يبدو أن عضلات مستقيمي تفشل في ضبط الوضع، كنت أريد أن أنهي رحلتي وأجد مكاناً آمناً ومحدداً لأرتاح.

كان هناك القليل جداً من المتاجر في شاه سوار لا تزال مفتوحة وكنا نقترب بسرعة من نهاية الطريق الرئيسي. رأيت ضوء إشارة المرور عند التقاطع الأخير في البلدة أمامنا يتحول إلى الأصفر ثم إلى الأحمر بسرعة. وجدت نفسي، خلال ثوانٍ، أقف في الممر، ظهري متحدب بسبب الألم الشديد في أمعائي. لا أذكر ماذا طلبت من السائق وكيف نزلت من الحافلة، لكنني كنت هناك، في بلدة غريبة، تحت المطر المتجمد، حيث ليس هناك روح على مرأى البصر، ولا متاجر مفتوحة. انحنيت مقابل جدار لثوانٍ قليلة وتمالكت نفسي. المنشورات، الثورة، الإسهال، عزيز، منسوجات "ممتاز"، شالوس، سايروس، كان الضغط كبيراً جداً ويمنعني من التفكير المباشر.

نزلت في الطريق الفرعي وطرقت أول باب رأيته، بوابة خشبية قديمة، دون أجراس. طرقت بعنف. كان هناك ساحة كبيرة تفصل بين توسلي اليائس والأذن المتعاطفة داخل المنزل. كسر صوت رجل عجوز رتابة المطر الهاطل.

"من هناك؟"، صاح صوت أجش منخفض بلهجة محلية ثقيلة.

"أنا بحاجة إلى استخدام الحمام"، قلت متوسلاً، "هل يمكن أن تدعني أدخل، رجاء؟".

سمعت قلقلة المفتاح في القفل والصخب الناتج عن دوران مقبض الباب.

"من تلك الطريق"، قال وهو يشير إلى الزاوية اليمنى من الحديقة دون أن يسأل أي سؤال.

ركضت إلى مرحاض خارجي صغير، خلعت سترتي وفيها كل المنشورات، قرفصت، و...

عرفت، بعد أن رأيت نتائج هجومي الكريه على المرحاض الصغير النظيف، أنه ليس هناك مياه جارية في الداخل. أجابت طرقة لطيفة على الباب عن السؤال الذي راودني حول الطريقة التي سأنظفه بها.

"أنت مصاب بالإسهال"، قال وهو يدخل. يده تهتز وهو يحمل دلواً نحاسياً كبيراً من الماء ثقيلاً جداً عليه. "يجب أن تشرب الكثير من الشاي الأسود القوي"، تابع وأنا أحاول جهدي لكي أنظف الفوضى التي سببتها. "لو تنتظر ثانية..."، قال. كان صوته يتخلف عنه وهو يبتعد نحو بناء المنزل الأساسي، "سأجلب لك فنجاناً في الحال".

أجبرني المطر الغزير على انتظار عودته في الداخل. أعطاني فنجاناً من الشاي الأسود يتصاعد منه البخار، وهو يقول: "دون سكر، يجب أن تشربه مراً، هذا جيد لك".

سرنا نحو مكان مسقوف كلياً خلف الباب ووقفنا هناك دون أن نتبادل أي كلام. كان الرجل العجوز مهتماً بنوعية شايه أكثر من اهتمامه بمن أكون، ومن أين أنا قادم، أو إلى أين أتجه.

"هل لديك أقارب في البلدة؟"، سأل أخيراً.

"أنا ذاهب إلى شالوس لزيارة ابن عمي".

"لكن لم يعد هناك حافلات تتجه إلى شالوس في هذه الساعة"، أكد لي، "ليس عليك أن تبقى خارجاً في هذا الوقت المتأخر، هذا خطير جداً هذه الأيام".

كنت سأقضي الليلة هناك لو دعاني لفعل ذلك. لكن حتى اللطف له حدود.

"هناك نزل مقابل منزلنا تماماً"، نصحني، "في حال قررت قضاء الليل".

غادرت المنزل رجلاً جديداً. شعرت أنني أستطيع السير إلى شالوس دون أن أخشى شيئاً. ضمنت لي لوحة النزل أنني في حال لم أجد حافلة إلى شالوس، لن أكون مشرداً. جعلت حركة المرور المتقطعة في الشارع من النزل الخيار الأكثر جاذبية. مرت نصف ساعة، وبدا طلب التوصيل دون جدوى. ثم اقترب ضوءان وامضان. لوحت بكلتي ذراعي فوق رأسي وتحركت إلى منتصف الشارع تقريباً. أبطأت الحافلة حركتها ومدّ فتى صغير رأسه من النافذة المجاورة للمقعد قرب السائق وصاح: ''شالوس؟''. لم نتفاوض حول السعر. جلست في الخلف في المكان نفسه الذي ركبت فيه في الحافلة السابقة. قبل أن نغادر شاه سوار، سار الفتى في الممر وطلب الأجرة.

حين وصلنا إلى شالوس، كانت المدينة مغلقة. أضواء الشوارع مطفأة، المتاجر مغلقة، والجميع على تلك الحافلة كانوا يعرفون إلى أين هم ذاهبون باستثنائي.

''أين سأنزلك؟''، سأل السائق.

''هل يمكنك أن تنزلني أمام نزل؟''.

''لستُ من شالوس، لا أعرف أي نزل قريب من هنا''، قال، ''سأضغط على الفرامل إذا رأيت واحداً قبل أن نصل إلى نهاية الخط. هناك اثنان منهما قريباً من هنا، لكنني لا أظن أنهما من نوع الأماكن التي تبحث عنها''.

لم يتوقف حتى وصلنا إلى نهاية الخط تقريباً.

''ترى ذلك الضوء الخافت عبر الشارع؟ ذلك المكان الوحيد الذي أعرفه''. أنزلني قبل أن يستدير يساراً للمضي إلى المحطة الأخيرة.

كان هناك مدخل صغير، بين صف طويل من المتاجر المغلقة، يقود إلى درج ضيق مظلم مناراً من الأعلى بفانوس لا يكاد مرئياً. قمت بخطوات ثابتة ومزعجة لأعلم من كان هناك بوجودي، محاولاً ألا أنشغل بالوسط المحيط بي، لأنني عرفت أنه ليس لدي خيارات أخرى لتلك الليلة. حين يكون أمامك طريق واحد فقط يكون من الأسهل جداً عليك أن تكون جريئاً. دخلت مكتب الاستقبال الصغير المليء بالدخان حيث كان هناك رجلان يرشفان الشاي بهدوء على ضوء فانوسين وبضع شموع ذائبة.

''سرير واحد؟''، قال الرجل وهو يرشف الشاي من فنجان صغير، ''تبقّى لدينا ثلاثة فقط''.

''نعم''، أجبت بهدوء، كما لو كنت أعرف تماماً ما أطلب وكأنني أتردد دوماً على فنادق سائقي الشاحنات.

لم يظهر أي فضول حول ظروفي والطريقة التي جعلتني أظهر في المكان.

''املأ هذه''، قال وهو يضع استمارة على المنضدة الدبقة، ''مطلوبة من الشرطة''.

الاسم، العنوان الدائم، المهنة، الغرض من الزيارة... الرهن.

''كم هو الرهن؟''، سألت.

''هل لديك رخصة قيادة؟''.

''نعم!''.

''إذاً، لا تقلق بخصوص ذلك، اتركها معي فقط''.

أرفقت رخصة قيادتي الجديدة بالاستمارة متردداً وأعدتها إلى الرجل الذي بدا أنه مالك ما كان يسمى بما يكفي من الحذق ''فندق شالوس''.

أمسك شمعة ومشى فتبعته. غافلاً عن قطرات الشمع التي كانت تسقط على أصابعه، أشار إلى سرير في غرفة أكبر تحتوي ثمانية أسرة، تبعد عن بعضها بعضاً خمسة إلى ستة أقدام فقط. كان

هناك شخصان قد أويا إلى السرير، وغطيا نفسيهما من الرأس حتى الأصابع ببطانيات عسكرية خشنة.

"ذاك السرير"، همس الرجل قليل الكلام. كان قلبي مشدوداً، وفمي جاف، وجسدي بالكامل يرتجف من الرعب، ومن البرد، ومن الإسهال، لكنني بقيت، أو شعرت أنني فعلت، هادئاً وواثقاً من نفسي.

"هل لي بكوب ماء، من فضلك؟".

"على يمينك... قبل أن تصل إلى الدرج".

تبعته إلى المدخل. أشار إلى مبرد ماء وعاد إلى مكتبه، دون أن يتمهل أو يدير رأسه. تلمست طريقي في الظلام وصولاً إلى الفنجان المعدني الكبير الذي كان معلقاً بسلسلة صغيرة على الجانب. ملأته حتى الحافة وابتلعت كوبين قبل أن يروى عطشي ويهدأ خوفي.

عدت إلى الغرفة. وضعت المنشورات تحت وسادتي واندسست بهدوء في السرير بكل ملابسي. تقلبت لأكثر من ساعة، ارتعشت على نحو خارج عن السيطرة، بسبب القلق والجوع. جربت أن أتجاوز الوضع بالتفكير في معنى أوسع لما كنت أفعله هناك. فشلت. شلّ الشك في الوقت والمكان والظلام والبرد والجوع، والأسوأ من كل ذلك، وجود غريبين في الغرفة، شل كل هذا قدرتي على التفكير في الحركة ما عاد حالتي البائسة. أخيراً نهضت ومشيت إلى المكتب حيث كان الرجلان، عالقين في جمود زمني دون أي حديث، لا يزالان يرشفان شايهم الساخن في مكتب مليء بالدخان.

"هل هناك مكان قريب من هنا يمكنني أن أحصل منه على ما يؤكل؟".

من الواضح أنني أقلقت سلامهما.

"لا!"، قال أحد الرجلين وهو يرمقني بنظرة خاطفة من خلال البخار الذي كان يتصاعد من الفنجان. "ليس هناك مكان مفتوح في هذه الساعة. المدينة تقطع الكهرباء لتجبر المتاجر على الإغلاق باكراً. يقولون إنهم يريدون أن يوفروا الطاقة. لماذا؟ عليكم اللعنة. وفروا طاقتكم الملعونة ما بعد موتي".

لم أستطع تحمل فكرة العودة إلى سريري. خرجت على أمل أن أجد شيئاً أسكت به جوعي. كان المطر قد توقف، الأمر الذي سمح لي بالسير حول البناء خارج الشارع الرئيسي. هناك حياة أكثر في الممرات والأزقة الضيقة. استطعت رؤية بعض الناس يقفون على أبواب بيوتهم يتحدثون وعابرون متقطعون يرمون السلام. لم تبدُ تحية غريب أمراً جيداً أبداً. بعد وقت قصير، سمعت من بعيد صوت بائع متجول. اقتربت من الصوت.

"شمندر أحمر ساخن، حلو، طازج مخبوز"، سمعت الهتاف من نهاية الزقاق. كان يسير في الطريق نفسه الذي أسير فيه.

أسرعت لأصل إليه. كان شاباً في مثل عمري، وبأسلوب إيقاعي جمع العصارة من قاع القدر الكبير بمغرفته ذات الذراع الطويلة وسكبه فوق الشمندر اللامع الذي يتصاعد منه البخار. "إذاً، ماذا تبيع؟"، سألته مازحاً، "الأماكن مغلقة كلها في وقت مبكر الليلة، أليس كذلك؟".

"نحن نفتح على الدوام، سيدي، على الدوام"، ابتسم بفخر، "نقدم هنا أفضل شمندر في البلدة"، كأنني كنت بحاجة إلى تشجيع إضافي لأتناول أكثر ما يمكنني تناوله.

"هل يمكن أن أحصل على واحدة كبيرة من القاع؟".

"كلها جيدة، إنها تأتي من مزرعتنا".

سحب قطعة شمندر ضخمة بواسطة سكين التقطيع، ووضعها بحذر على صحن بلاستيكي صغير. قطعها بسهولة إلى قطع صغيرة قبل أن يسلمها لي.

"تلذذ".

كان الهواء حول عربته دافئاً. سألته كل أنواع الأسئلة التي ليس لها معنى حول من كان وماذا يفعل ومتى ينتهي موسم الشمندر. لم يسألني شيئاً، مشى ببطء فقط متابعاً صب العصارة فوق الشمندر. تساءلت هل يعرف أهميته لي. فبفضله، لامست قدماي الأرض مجدداً. تمتمت كلمات لديكنز وغوركي وشعرت بالحياة تعود إلى جسدي، بمساعدة صغيرة من صحن الشمندر.

كنت أوشك على تناول اللقمة الأخيرة عندما قاطعت صيحات جماهير محتشدة محادثتنا الأحادية الجانب. أوقف مطبخه النقال بهدوء، وأزال الفانوس، وبدأ يركض بعيداً عن الحشد. تبعته حائراً. أصبحت الأصوات أعلى قبل أن تتفرق بصوت إطلاق نار. فجأة بدا أن الصياح وإطلاق النار يأتي من كل الاتجاهات. بقيت أتبع رجل الشمندر وأساعده لدفع عربته بسرعة أكبر على أرض الأزقة الضيقة غير المرصوفة. لم يكن لدي ملجأ آخر. انسكبت عصارة الشمندر على وجوهنا وستراتنا. أطلقت السيارات أبواقها، علت صفارات الإنذار، أضاءت النيران السماء.

أين يذهب؟ هل من الأفضل الاستمرار بالتحرك أو الاختباء في مكان ما؟

كنت معارضاً خبيراً لكنني شعرت بالوهن. أخبرتني غريزتي أن أتبعه حتى تخف الضوضاء. بعد دقائق من الركض مذعورين، ركن عربته في نهاية زقاق هادئ واختبأ خلفها، كان هذا تهوراً تماماً في أي دليل للاضطرابات المدنية. لم أكن في وضع يسمح بتعليمه القواعد. اندسست قربه وسألته بتردد هل سيؤيدني ويخبر الشرطة، إن هم أتوا، أننا نعمل معاً؟ أدركت من نظرته المذعورة أنه كان يفكر أنني لا بد شخصٌ مجنون. وضع رأسه بين يديه وزفر بصوت عالٍ.

انتظرنا عشر دقائق طويلة في الوضع نفسه دون أن ننبس بكلمة. ثم نهض وركز عربته المائلة.

"أنا ذاهب إلى المنزل"، غمغم.

أردت أن أعوضه بطريقة ما، أن أدفع له ثمن شمندره المفقود. لكنه اختفى في الظلام. كنت ضائعاً بأكثر من طريقة. لم أكن أعرف كيف أعود إلى فندق شالوس. حلّ الهدوء من جديد والفرق الوحيد كان رائحة الضباب المليئة برائحة الإطارات المحترقة والرصاص. رغم أنني لم أرَ المحتجين، عرفت تماماً ما حدث. أصبحت هذه الاحتجاجات الغوغائية المزيفة شائعةً أكثر.

حاولت أن أجد طريقة لأعود إلى الفندق بتتبع أثر طريق هربنا. كان عليّ أن أكون أكثر حذراً كي لا أصادف الشرطة أو الجنود. طالب من طهران، دون قصة مقنعة تبرر وجوده هناك، مغطى بلطخات من عصارة الشمندر الحمراء على وجهه وثيابه... أي دليل أكبر يحتاجونه كي يستنتجوا أنني كنت مخرباً؟ فكرت وأنا أسير في سيناريوهات موثوقة لأقدمها إلى الشرطة إذا صادفتهم فعلاً. كيف وجدت الفندق أخيراً، ما زلت لا أعرف.

استيقظت قبل الفجر على صوت رجل يرتدي حذاءه قربي. لكنني تظاهرت أنني ما زلت نائماً. لم أرد أن أشترك في محادثة مع غريب. نهضت من السرير بعد أن غادر الغرفة مباشرة. كان المكتب مغلقاً ولم أتمكن من تسجيل الخروج. فكرت أنه لا بد أن يكون هناك مقهى لطيف للسائقين قريب من المحطة الأخيرة. مشيت في ذلك الاتجاه ووجدت مكاناً مزدحماً بنوافذ يغطيها الضباب. كنت مستعداً لفطور تقليدي كبير من "الحليم"[10]: قطع الدجاج الرومي والشعير المطهوة ليلاً في آنية الفخار مع القرفة والسكر، محضر من أجل هؤلاء الذين يتناولون وجبة واحدة في اليوم. وجدت مقعداً بسيقان طويلة وطلبت طبقاً من "حليم". عاد الدم إلى وجنتيّ مع اللقمة الأولى، وذكرني لماذا قطعت كل هذه

الطريق إلى شالوس. جلست طويلاً على تلك الحال بينما خف الازدحام. شربت فناجين من الشاي الأسود القوي قبل أن أعود إلى النزل لأجد المدير في مكتبه لا يزال في ثياب النوم. ألقى عليّ نظرة ناعسة وأعاد إلي رخصة قيادتي.

10 نوع من الحساء المشهور في الشرق الأوسط وآسيا الوسطى والقارة الهندية. يشمل اختيارياً القمح أو الشعير واللحوم والعدس، ويعرف بـ"الهريسة".

"هل انتهيت؟"، سألته بأدب.

"نعم"، قال وهو يدقق الأوراق الموجودة فوق مكتبه.

لم أزعجه حتى بسؤاله هل يعرف أين يقع متجر منسوجات "ممتاز".

سألت أشخاصاً في المحطة الأخيرة بدلاً من ذلك، لكن لم يعرف أحد أين كان. أخيراً قال لي أحد السائقين إن عليّ الذهاب إلى سوق تجار النسيج الذي يبعد خمسة عشر إلى عشرين قطاعاً أسفل الطريق الرئيسي.

"هل يمكن الوصول إلى هناك سيراً؟"، سألته.

"إذا كنت مستعداً. يستغرق الأمر نصف ساعة بسهولة".

يبدو أنه كان المكان الصحيح، فكرت. بدا السير فكرة جيدة. سأصل هناك في الوقت الذي يفتحون فيه المتجر.

عندما اقتربت من السوق، كانت الشرطة قد أغلقت الطرقات.

"ماذا يحدث؟"، سألت أحد المارة.

"جنازة أخرى، ربما"، أجاب دون أن يتوقف.

ابتعدت عن الحشد ووضعت المنشورات في سلة قمامة. لم يكن هذا مكاناً لأُكتشف فيه وأنا أحمل شحنة من المنشورات التوريطية. شققت طريقي عبر الحشد الذي كان يصبح أكثر كثافة وحماسة على نحو أكبر. رأيت العلامة الضوئية الزرقاء لمنسوجات "ممتاز" على بعد مسافة مني. كان هناك جسد ملفوف بكفن أبيض يُحمل بعيداً في الجانب الآخر من الميدان. لوّح الناس المتجمعين بقبضاتهم في الهواء، يبكون فقيدهم ويطالبون بالعدالة.

كان عزيز واقفاً أمام المخزن. ورغم أنه لمحني من بعيد، بقي غير مبالٍ. حرك رأسه بهدوء ليحييني. عرفت أنه كان شارداً. ذهبت إليه بالأسلوب الفاتر نفسه. تصافحنا بقوة أكثر من أي وقت مضى، وبينما نظر إليّ مباشرة، قال: "لقد بدأت، ولم يعد متعلقاً لا بي ولا بك. لها حياتها الخاصة".

المحاكمة

عقدت المحكمة في البناء نفسه، في طابق التحقيق نفسه، في "كوميتِه مشترِك". دخلت معصوب العينين. تلا محققي التهم. ثم سألني صوت آخر، يفترض أنه القاضي: "هل هذا صحيح؟".

"نعم".

"أردت أن تطيح بالنظام الثوري".

"ليس لأنه كان ثورياً، وإنما لأنني، ظننت حينذاك، أنه أدار ظهره للثورة".

"هل كتبت كل هذه المنشورات، منشورات الدعاية المخزية، هذه المقالات المخادعة المعادية للثورة؟".

"نعم، فعلت".

"هل ساهمت مالياً في دعم منظمتك؟".

"لا".

"أخبرني الحقيقة، وإلا سأعيدك إلى الغرف المجاورة حتى يحصلوا منك عليها".

"لقد اعترفت"، ضحكت، "بتهم تدينني أكثر بكثير من الدعم المالي".

ذكّرني هذا بأبي. اعتاد أن يتمعن في صفحة منشورنا التي نطبع عليها الأسماء الرمزية للأشخاص الذين ساهموا بدعم المنظمة مالياً. أردناهم أن يعرفوا أن المال الذي يرسلونه يصل عبر القنوات الصحيحة إلى القيادة. كان يقول دوماً إنه علينا ألا نهدر أموالنا في هذه المنظمات. "هذه الأشياء لا تصل إلى مكان"، اعتاد أن ينصحني. "انتبه إلى تعليمك وأسس لنفسك مهنة حقيقية. رأيت الكثير من الأشياء في حياتي. عندما يصبح الوضع صعباً، سيتخلى عنكم هؤلاء القادة. سيجدون ملجأ لطيفاً لأنفسهم وستدفعون الثمن". كان الثمن بالنسبة إليه يحمل معنىً حرفياً وآخر مجازياً، لأنه ظن أني كنت أدفع المال للمنظمة. أخبرته أخيراً أن المنظمة تدفع لي وليس للطرف الآخر، لأنني كنت واحداً من هؤلاء الذين ظن أنهم يجدون ملجأً آمناً بالمال الذي يقدمه داعمو الحزب.

أي ملجأ آمن وجدت.

"تظن هذا مسلياً؟".

"لا. لكن أولئك الذين لم يستطيعوا أو لم يريدوا أن يكونوا مشتركين فعلياً ساهموا مالياً".

"لكن هل ساهمت في دعم منظمتك مالياً في مكان ما أو لم تفعل؟".

"نعم، فعلت"، لم أرد أن أستثير غضبه من أجل نقطة لم تكن ذات صلة على الإطلاق بتحديد مصيري.

"حسناً، ها أنت ترى، إذا تعاونت، ربما نجد أساساً مشتركاً. لكن لسوء الحظ، تأخر الوقت كثيراً على هذا. الطريق الذي اخترته يقود فقط إلى...".

قبل أن يتمكن من إنهاء جملته، قاطعته وقلت: "حقل الخزافين"، في إشارة إلى المكان الذي دفنوا فيه "الكفار".

"إذاً، أنت شاب ذكي. تعرف جيداً ما فعلته والثمن الذي عليك أن تدفعه جراء ذلك".

كان يفترض أن تكون هذه نهاية المحاكمة. فهذه المحاكمات تستغرق غالباً من خمس إلى عشر دقائق. "هل أنت نادم على ما فعلت؟"، أشعل أحدهم سيجارة. توقعت أنه القاضي، فلا أحد آخر يتجرأ على التدخين في قاعة المحكمة.

"هل يمكن أن أحصل على سيجارة أيضاً؟"، كان هذا بالتأكيد أفضل سؤال طرحته في حياتي.
"أشعلوا له سيجارة"، أمر القاضي الحارس.
"لدي الكثير لأندم عليه"، قلت. استنشقت الدخان للمرة الأولى بعد أربعة شهور تقريباً. "أظن أنني ارتكبت عدداً من الأخطاء في حياتي السياسية. لكن لا يستوجب أي منها التشكيك في نياتي".
"أي نيات هذه؟ الإطاحة بالنظام الثوري؟".
"لا، الدفاع عن المظلومين، القتال لمصلحة الطبقة العاملة. ما أندم عليه هو أنه لم يكن لدي رؤية واضحة كيف أخوض هذا النضال. لن أقبل أي تهم تشكك في نياتي".
"حسناً. من فضلك، أخي، هل تقف لثانية"، طلب من أحد الموجودين في القاعة، ربما أحد الحراس، "أسألك: هل كنت تعرف هذا الشاب قبل أن يعتقل؟".
"لا"، أجاب الحارس.
"هل تعتبر نفسك رجلاً عاملاً؟ هل تنتمي عائلتك إلى ما يسمونه... ماذا كان هذا مجدداً... البروليتاريا؟".
"نعم، سيادتك"، تبع الحارس قائده.
"هل ناضل هذا الشاب يوماً من أجلكم أو دافع عن مصالحكم بأي طريقة أو صيغة؟".
"بالطبع، لا". شعرت بالابتسامة ترتسم على وجوههم. لكنني قررت أن أستمتع بالسيجارة فقط.
"هل ترى، ها هي الطبقة العاملة تشهد ضدك. أنت ناضلت لغرورك. أردت أن تبيع البلد لأسيادك. لا يهم إن كان أسيادك هؤلاء من الشرق أو الغرب، أنتم مجرد دمى في معارضهم. أردت أن تخدم الفقير، لماذا لم تذهب لتشق طريقاً، أو لتبني جسراً، أو لتبني له منزلاً؟ لكن لا! أردت أن تطيح بالحكومة الوحيدة في تاريخنا التي تمثل المظلومين. وأنت تدعي أن نضالك باسم الطبقة العاملة؟".
"كما قلت، أنا لا أدافع عن كل الأشياء التي فعلناها. لكن نياتي كانت صافية. ألم يقل آية الله مطهري في كتابه *Divine Justice* [العدل الإلهي] إن الله يحب أولئك الذين يعملون لرفاهية الآخرين؟ ألم يقل إن العمل من أجل العدالة كالصلاة؟"، بذلت ما في وسعي لاستحضار معرفتي الضئيلة بالتشريع الإسلامي في المحادثة بذكر أحد أكثر المنظرين تأثيراً في الثورة، "ألم يقل إن هؤلاء الذين يحبون المظلومين من قلوبهم يعودون إلى إحدى دوائر الجنة؟".
"آية الله مطهري لا يجلس هنا، وبصراحة، لا يهمني ما يقوله عن حقوق الكفار. هل كان يواجه دمار الدولة الإسلامية عندما قال كل ذلك الهراء؟ هل كان ليقول الأشياء نفسها التي قالها لو كان يعلم أنه سيُقتل على يد واحد من هؤلاء القتلة، الذي ادعى أنه كان يعمل باسم الشعب؟ الأزمنة مختلفة، والمآزق مختلفة، والتفاسير مختلفة. هذا ليس دفاعاً ولا يبرر جرائمك".
"أنا لا أحاول الدفاع عن نفسي. أنا أعرف أنني لا أستطيع أن أقنعك أو أي شخص آخر أن نياتي كانت ولا تزال صافية. هذه مسألة قلب وغير قابلة للتوضيح". لم يكن مهتماً بمحاولتي الوجدانية لخلق بعض التعاطف، ولم يكن معجباً بجهدي غير المحترف لاستعراض القليل الذي أعرفه عن نظرية مطهري عن العدالة الإسلامية. "كما أخبرت محققي، أنا مستعد لعقوبتي، إن لم تكن مجرد انتقام".
"تلك مسألة قلوبنا، وكما قلت، غير قابلة للتوضيح. نحن لا نعاقب انتقاماً. نحن ننفذ إرادة الله".
تابعت إخباره عن حالات عرفتها عن أشخاص أُعدموا دون أن يحصلوا على فرصة لإعادة التفكير في أفعالهم. أصغى دون مقاطعة وقدم إلي سيجارة أخرى. أصبح التنفس أصعب في الغرفة الصغيرة. وبطريقة ما، جعلت العصبة التنفس أصعب أيضاً.

”هل تعرف فريدة هيماسي؟“، سألتُ القاضي.
”لا تطرح عليّ الأسئلة، لكنني متأكد أن لديك قصة أخرى عنها ترويها لنا“.
”كانت في السادسة عشرة عندما حُكم عليها بالموت لأنها سهلت اغتيال ثلاثة من ’الحرس الثوري‘. لكن أُجّل إعدامها شهرين بسبب نفوذ والديها. وخلال هذين الشهرين، غيرت عقلها وبدأت التعاون مع السلطات ضد المنظمة نفسها التي كانت مسؤولة عن ارتكاب تلك الفظاعة. لذا، أنا أسألك، كم عدد فريدة هيماسي اللواتي أُعدمن؟“.
”قلت لك: لا يمكنك أن تطرح الأسئلة عليّ وأنا تأخرت على صلاة العشاء“.
”أنا آمل فقط أنني في حال أعدمت، سيستخدم إعدامي كوسيلة لتنوير الآخرين ودفعهم ليفكروا بعمق أكبر في أفعالهم بدلاً من استمرار العنف والدمار. أنا مستعد“.
”حسناً، لم نتخذ قراراً بعد“، للمرة الأولى، كان اللين واضحاً في صوته، ”إذا كنت تظن أنك صادق ولم تعمل في خدمة قوى أجنبية، ولم تمثل العداوة لله، ستقربك عقوبتك في هذا العالم من البراءة. سيرحمك الله في ما بعد“.
قضينا أكثر من ثلاث ساعات بالتدخين ورواية القصص في تلك الغرفة الخانقة. عندما خرجت منها، كانت مكاتب الادعاء قد أغلقت في ذاك اليوم. وبذلك، كانت عقوبتي ستصدر في الصباح التالي.
عدت إلى غرفتي بعد العشاء. انتابني شعور غريب بالرضا. ”إعدام!“. لم يقل أحد شيئاً. إذا تمت المحاكمة في سجن إيفين، المحكوم يعدم غالباً بعد المحاكمة مباشرة. لكن من هنا، يستغرق الأمر عادة أسبوعاً قبل النقل إلى إيفين.
بعد بضعة أسابيع في إيفين، قرأت في صحيفة قديمة أن القانون تغير في اليوم نفسه الذي حوكمت فيه. صار من الواجب أن تراجع المحكمة العليا كل عقوبات الإعدام. لو انتهت محاكمتي قبل 5:30 في تلك الظهيرة، لكنت قد أُعدمت.
أنقذت السجائر حياتي.

عيد ميلاد السيد أمين صالحي الخمسون

”نجتمع اليوم على شرف رجل يعيش فقط من أجل إيران. وجوده مرادف للوطن. يذكرنا كل جزء من جسده المعذب بالندبات التي ترك التاريخ آثارها على وطننا المحبوب. شعره الفضي هو ثلج قمة دماوند. تذكرنا الخطوط المعرجة على وجهه المجعد بتربة صحراء لوط الجافة تحت شمس الصيف. تخبرنا روحه الواهنة حكاية المعاناة التي تحملتها محبوبته إيران. نعم، أنا أتحدث عن السيد أمين صالحي، رمز الفخر الإيراني وشعار الشرف الفارسي“.

هتف الحشد، المؤلف من أربعة رفاق في الزنزانة، بسعادة بتحية النازية: ”يحيا صالحي، يحيا صالحي!“.

”بالنسبة إليه، الذات ليس لها معنى. هو لا يطلب شيئاً إلا الخير للأمة. لا يثق بأحد إلا بالوطنيين. في الأسر والحرية، في كل لحظة من حياته وللأبد، في الواقع وفي أحلامه، رغبة واحدة فقط، واحدة فقط، أعطت معنى لحياته: عودة إيران إلى حدودها السلجوقية في القرن الرابع عشر: عودة أفغانستان، يريفان وكامل القوقاز، طاجيكستان، أوزبكستان، البحرين، العراق، باكستان، إلى الوطن الأم“.

يصيح السجناء الأربعة: ”يحيا صالحي! يحيا صالحي“.

”والآن، أدعو ضيفنا الشريف، بطل فارس، لتنويرنا ببضع كلمات من حكمته الخالدة“.

يدخل السيد صالحي المسرح بينما ينهض الحشد ليرحب به بالهتافات.

يتحدث صالحي، بعيون دامعة، بعد تحية قصيرة.

”كيف يمكنني أن أرد على هذا الإظهار الملهم للحب؟“.

”يحيا صالحي! يحيا صالحي!“.

”من فضلكم، أصدقائي، من فضلكم. أنا متأكد أنكم تعرفون أنني أنا، الخادم الوضيع لإيران، أطلق سراحي أخيراً من السجن. آه، كيف يمكنني حتى أن أقول أطلق سراحي؟ في الواقع، نقلت من سجن إلى آخر. لأن فخرنا بتراثنا الزرادشتي هوجم بلا رحمة في وقت ما، الحرية مجرد كلمة فارغة أخرى. شهدنا مرة جديدة تراجع إمبراطوريتنا الأبية إلى أمة صغيرة مع ماضٍ منسي وحاضر غير مؤكد. أردتكم أن تعرفوا أن إيماني الآري العميق الصادق بالوطن هو ما حافظ على جسدي قوياً وأبقى روحي القتالية حية تحت التعذيب القاسي. صرخت بأقوى ما استطعت تحت التعذيب البربري الذي يمارسه أولئك الذين يجب ألا يخضع لهم من يحمل الروح الفارسية النقية، صرخت أنني لن أرتاح حتى أرى الألوان الثلاثة لعلمنا المحبوب مرفوعة فوق السهل الإيراني كاملاً. أي أيام قاسية وليالٍ مؤلمة. لكنني لا أريد أن أزعجكم بالحديث عن نفسي. أنا متأكد أن هناك آخرين بينكم اختبروا المعاناة نفسها“.

”يحيا صالحي! يحيا صالحي!“.

”لكن عندما عرفوا أنهم لن يتمكنوا من ردعي، وأن قلبي لن يتوقف عن النبض من أجل إيران، أطلقوا سراحي. ستبقى جبال ألبرز شامخة، ولا يمكن للرياح من أي جهة كانت أن تحني ظهرها. سأتحدث اليوم، وغداً، وإلى الأبد. أصدقائي الشباب: يجب أن تستمدوا قوتكم من ألبرز، عمقكم من قزوين، وأن تتدفقوا إلى الأبد مثل كارون. لقد حرروني لأن عزيمتي كانت ثابتة“.

يتبادل أعضاء الحشد النظرات بعجالة قبل أن يهتفوا: ”يحيا صالحي!“.

يدخل حارس ثوري المشهد ويقول بضحكة غاضبة: ”من جديد ها أنتم تستخدمون كلمات أكبر من فمكم، سيد صالحي! أنت تكثر الكلام! ألم نقل لك إننا لا نريد أن نراك تختلق قصصاً حول هرائك الفارسي؟“.

يتحرك الحارس نحو السيد صالحي لسحبه عن المنصة.

يتوسل صالحي بصوت مرتجف وعيون ممتلئة بالدموع: ”أخي العزيز، لم أقل أي شيء خطأ. كنت فقط أخبر هذا الحشد كيف اعتدت أن أفكر وكيف ساعدني السجن على رؤية الضوء. كنت أخبرهم كيف سيتعفن جسدنا الفارسي في هذه الأرض الإلهية إذا فشل في الارتباط بروح الإسلام. كنت أخبرهم كيف فُتحت عيني في إحدى الظهيرات في السجن على هذه الحقيقة التي كنت غافلاً عنها طوال حياتي“.

يصيح الحارس الثوري ملوحاً بيده فوق رأسه: ”أنا لا أفهم هذا الهراء. سأدعك هذه المرة، لكن الله حرّم ذلك. إذا رأيتك تعقد هذه الاجتماعات مرة ثانية... أنت تعرف الباقي“.

ينحني صالحي قدر ما استطاع، تقريباً ليقبل قدم الحارس، وهو يتمتم: ”لا يمكنك أن تجد مثل هذه الشفقة الإسلامية في أي دولة عربية“.

ينهي صالحي المشهد ويعود مع كعكة عيد الميلاد.

كانت الكعكة مصنوعة من فتات الخبز، والتمر المهروس، والتين المجفف المنقوع، ومسحوق الحليب، ولمسة من معجون الأسنان لتبدو مغلفة بالسكر، وخمسة عيدان ثقاب محترقة من أجل عيد ميلاد السيد أمين صالحي الخمسين.

اندفع صالحي ليعانقني وهو يبكي بصوت عالٍ، ويقول لي كم استمتع بتقليدي له. يستمر في تقبيل جبهتي وخديّ، مكرراً أن هذه كانت أفضل حفلة عيد ميلاد له في حياته، بينما تقدم الآخرون ليهنئوه.

نجحنا أخيراً في تهدئة السيد صالحي والسيطرة على حماسته المتقدة. أجبرناه أن يجلس بحيث يمكننا أن نضيء الشموع ونبدأ تناول الكعكة التي أعددناها بأعجوبة دون علمه في هذه الزنزانة الصغيرة.

قفز صالحي من جديد وقال: ”انتظروا، انتظروا، لا تشعلوها. لدي شيء صغير أود أن أتشاركه معكم كلكم“.

اتجه إلى سترته التي كانت معلقة على مسمار صغير فوق الجدار الآجري المجصص بطبقة سميكة. ولتصادف مرور المدخنة خلف الجدار في المكان الذي علق فيه السيد صالحي سترته ومنشفته، سمح ذلك بإبقائها دافئة وسمح له باستخدام هذه السترة مثل وسادة تدفئة.

فتش جيوبه بتوتر وأسرع عائداً إلى مكانه.

”هنا، كنت أخبئها لليلة كهذه“.

لوح أمامنا بفخر بعلبة من سجائر Winston.

”لكن كيف، من أين حصلت عليها؟“.

”لا تقلقوا بشأن التفاصيل، استمتعوا بها فقط“، أجاب بهدوء.

تناولت العلبة من يده ووزعتها بين المدخنين منا بالتساوي.

ابتسم السيد صالحي الذي كان واضحاً أنه لم يكن سعيداً جداً بطريقتي الاشتراكية بالتعامل مع علبة سجائره، وقال ممتعضاً: ”حسناً، سيدي المخرج، أضئ الشموع“. وانفجر ضاحكاً.

أنهينا سجائرنا بعد أربع نفخات أو خمس، وأشعلنا السيجارة الثانية من الأولى كي نوفر عيدان ثقابنا. كانت السجائر شيئاً نادراً خاصة Winston. بالطبع، إن لم نتمكن من الحصول على سجائر،

فإن أي شيء قابل للتدخين، من أوراق الشاي المستعملة القديمة إلى نوى التمر المطحونة، يكون نافعاً. لكنني لن أدخل في التقنية المعقدة لكيفية طحن نوى التمر في غرفة سجن. المثير أكثر أنني عرفت شخصاً اعتاد أن يدخن المضادات الحيوية، واعتقد أنه بذلك لا يشبع حاجته إلى التدخين فقط، وإنما يقوي جسمه ضد العدوى أيضاً. وضعت حداً لنفسي عند هذا غير قادر على إقناع نفسي بتدخين المضادات الحيوية مع رائحتها الكريهة الشبيهة برائحة المجاري.

استمرت حفلة عيد الميلاد مع حكايات صالحي المملة التي سمعتها مرات عدة وحفظتها عن ظهر قلب. تساءلت كيف من الممكن أن يرويها مراراً وتكراراً بالحماسة نفسها. كان هناك بالطبع الكثير من الاختلافات والتعديلات في القصص. سايرناه، فبعد كل شيء، كانت الليلة هي ليلة السيد صالحي. تركناه يتشارك مغامرات شبابه معنا. أشفقت عليه رغم أن الآخرين وجدوه غير متعاطف تماماً. ومع أن جميع من في غرفتنا استاؤوا منه، لم يكن صعباً جداً إقناعهم بالمشاركة في حفلة عيد ميلاده. أحب الجميع فكرة تأليف قصة هزلية مضحكة يمكننا أن نقول فيها كل ما نفكر فيه عنه برفق.

أخيراً أتى السيد درويش منقذاً.

"آه بابا"، اعترض، "لا يمكن أن نقضي الليل بالتحدث فقط، ماذا عن الغناء والرقص؟".

"لكن من فضلكم، من فضلكم، أبقوا الأمر بهدوء، تعرفون... هل أنتم متأكدون أنها فكرة جيدة؟"، سأل السيد صالحي.

ولأن السيد درويش كان يعرف تمام المعرفة أن السيد صالحي لن يستسلم للغناء أو الرقص، سأله: "ماذا عن لعبة المدن؟ أنا أقول اسم مدينة والشخص التالي يقول اسماً يبدأ بالحرف الأخير للاسم الذي قلته. لعبة سهلة والجميع يمكنه أن يشارك، ونعم، سنبقى هادئين".

"همدان"، بدأ السيد درويش.

"نون، أحتاج نون... نون... نون"، كرر صالحي، "نورنبرج".

دوري: "جرجان".

"نون أخرى؟"، يقول أصغر بسرعة: "نطنز".

بعد دورة كاملة، عاد الدور إلى صالحي مرة ثانية، وكان بحاجة إلى حرف دال.

"ماذا عن دوسلدورف؟".

قال السيد صالحي في المرة الثالثة برلين من أجل حرف الباء وفي المرة الرابعة ميونيخ من أجل حرف الميم. عند هذه النقطة شعر الجميع بالغيظ؛ لماذا يختار المدن الألمانية فقط؟

كان السيد درويش أكبر الموجودين في الغرفة وأعطته لحيته الفضية الحق باستخدام لسانه بحرية. "حاج آغا، لسنا بحاجة إلى عناوين متاجر السجاد خاصتك في ألمانيا"، ابتسم، "نحن نلعب هنا فقط، يمكنك أن تخرج من ألمانيا. سنقبل ذلك".

لا أعرف لماذا دعاه السيد درويش باسم حاج آغا، الشخص الذي ينفذ واجبه الإسلامي بالحج إلى مكة. لكن السيد صالحي قبِل ذلك، لأنه من الواضح اعتقد أن أي شخص يُخاطب بحاج آغا سيُنظر إليه إيجابياً في السجن. لكنني شككت جدياً في أن السيد صالحي قد توقف يوماً في المملكة العربية السعودية وهو في طريقه إلى أوروبا. لفهم مصدر شكوكي، يجب أن تسمع قصصه الجنسية عن النساء الألمانيات ولقاءاته بنساء عرفن كيف يضاجعن بألف وضعية مختلفة، ودور السينما XXX، وفتيات الاستعراض في شارع ريبربان[11]. كان يشير بعيون لامعة إلى صديق ذهب إلى "نافذة التسوق" في هامبورغ ("أكثر من ثلاثة، يعرف الجميع ماذا يعني هذا"، كان يقول) واستمر بالقذف

قبل أن يدخل. "تخيل فقط!"، صاح. تقودك ابتسامته البشعة ووجهه الشبق إلى التفكير في أن الأرض المقدسة الوحيدة التي وطأها هذا الرجل في حياته هي سانت باولي.

11 ريبربان: شارع ترفيه معروف في حي سانت باولي في هامبورغ.

كانت الغرفة مليئة بدخان Winston. "نحن نصنع غرفة إعدام بالغاز"، قال السيد صالحي بمحاولة باهتة للمزاح. بدأت أغير رأيي حول حفلة عيد ميلاده.

كانت كعكة الميلاد لذيذة. أو هل كانت كذلك لأننا نسينا فقط كيف يفترض أن يكون مذاق الكعكة؟

سأل حميد كوجيكه السيد صالحي كيف وجد كعكته.

"الأفضل، إنها أفضل كعكة حصلت عليها في حياتي كلها!".

هل ظن أننا كنا شباباً شيوعيين فقيرين لم نتذوق كعكة من قبل أبداً؟ ربما كان هذا حقاً أفضل حفل عيد ميلاد في حياته، لكن الكعكة الأفضل؟ قررت أنني يجب ألا أنتقد كعكتنا لأنها كانت الأفضل في ظل الظروف. بدت جيدة: الألوان صحيحة، وحلوة في الوسط، وفوق كل شيء كانت تضم ثلاثة أرباع ما تحتاجه أي كعكة جيدة.

تماماً عندما بدأنا نتعب ونملّ، أُطفئت الأضواء وبدا أن الكهرباء قُطعت عن السجن بكامله. غرقنا في ظلام كامل غير قادرين على رؤية أجسادنا. لم تكن المرة الأولى التي يحدث فيها هذا، لكن الخوف الذي ولدته هذه المرة كان جديداً تماماً. الصوت الوحيد الذي استطعنا سماعه همس صلاة السيد صالحي. ولأنه لم يكن في غرفتنا أي نافذةٍ تطل على العالم الخارجي، عنى انطفاء الأضواء ظلاماً كاملاً. كان لدينا نافذتان صغيرتان تطلان على الفناء الخارجي لكنهما مملوءتان بخرسانة بسمك ثلاثة أقدام.

لم يعد الظلام بذاك السوء بعد الصدمة الأولى. أعطاني فرصة لأرى أشياء التي كانت تحرمنا الجدران حولنا رؤيتها. عندما لم أتمكن من الرؤية، شعرت بعينيّ. استجاب الله لصلاة السيد صالحي وحصلنا على الإنقاذ في بضع دقائق. لكنهم أناروا الأضواء الموجودة في الممر فقط وكان نصيبنا من هذا التدخل المقدس شعاعاً أصفر رفيعاً من الضوء لم يكد يدخل حجرتنا عبر الشقوق الموجودة في الباب الحديدي. أصبح كل شيء في الداخل مرئياً من جديد.

فُتح الباب قبل أن نبدل بيجاماتنا الرثة. وفي الضوء الساطع، دخل رجل آخر الزنزانة. أُغلق الباب وظل الرجل الحائر واقفاً. كالعادة، اندفع السيد صالحي نحوه لإظهار إيمانه، يقول بأرقّ وألطف صوت يمكن تخيله، "السلام عليكم، أخي، أهلاً بك".

شكَّ السيد صالحي أن كل الوافدين الجدد جواسيس يُزرعون في غرفتنا لمعرفة ما يجري في الداخل. فكر أن القادم الجديد واحد منهم، ووُضع هنا ليعرف حقيقةً أي نوع من الأشخاص هو أمين صالحي فعلاً.

عبرت رأسي فكرة شيطانية.

"دعونا نكمل حفلتنا الليلة"، همست للآخرين. ذهبت إلى السيد صالحي وأخبرته أن يسايرنا فقط وألا يفسد المرح الإضافي.

"لماذا أنت هنا؟"، سألت الرجل.

"ليس لديّ أدنى فكرة".

"كيف هذا؟".

"أنا فقط لا أعلم. أحضروني إلى هنا وقالوا إنهم سينظرون في قضيتي قريباً؟ ماذا عن الشباب؟".

"نحن تماماً في الوضع نفسه. اتهموا كل واحد منا بتهم لا صحة لها على الإطلاق. السيد صالحي هنا، على سبيل المثال، متهم بالتحرش بطفل وباللواط. أصغر متهم بسرقة السيارات، وحميد كوجيكه ببيع الثلاجات والمعدات الأخرى في السوق السوداء. لا أريد أن أتحدث عن نفسي. أنت تعرف مثلنا أن هذه كلها تهم مفبركة ليس لها أساس في الواقع".

فرك يديه بعصبية وقال: "أوه، أعرف، أعرف".

تدخل السيد درويش: "هل اعتقلت للتو، أو أنك منقول؟".

"لا"، أجاب بأدب، محترماً لحية السيد درويش الفضية، "كنت في زنزانة أخرى في الطابق السفلي".

تابع السيد درويش مستمتعاً باللعبة الجديدة.

"كيف هي الأوضاع هناك؟".

بدا القادم الجديد حائراً في السؤال.

"بأي معنى؟"، سأل.

"أنت تعرف"، قال السيد درويش بجدية، "المساحة، الطعام، ظروف النوم، تلك الأشياء".

أجاب القادم الجديد تحت الضغط: "كنت في الانفرادي، والطعام، حسناً، الطعام هو ما يحصل عليه الآخرون، أظن".

مستمتعاً بشدة غمزني السيد درويش وسأله: "تقصد أنهم أطعموكم الدجاج المشوي، والحساء، والسلطة مع المياه الغازية وكل شيء؟ يستمر هؤلاء الأوغاد بإخبارنا أننا الوحيدون الذين نحصل على تلك الأشياء هنا؟".

يمكن لهذا أن ينسف كل شيء، فكرت. هذه كذبة واضحة جداً ستفسد مرحنا.

"لا بد أنك تمزح"، يقول القادم الجديد.

عرفت هذا؛ انتهت الحفلة. نظر إلينا ونحن لا نزال نرتدي ثياب حفلتنا. مشهد نادر الحدوث في سجن أن ترى السجناء يلبسون ثياباً في الزنزانة. ربما فكر أننا كنا مختلفين، وربما يقدمون إلينا الكباب والسلطة مع المياه الغازية.

استفاد السيد صالحي من تشويشه وسأله: "ماذا عن السجائر، هل يعطونكم سجائر؟".

"نعم، بالطبع"، قال الرجل وهو يفكر أنه سجل نقطة في النهاية. "من أي نوع؟"، كان السيد صالحي متشوقاً ليظهر علبة سجائره Winston. "قرف وطني أم مستورد؟".

"وطني بالطبع"، قال الرجل الذي بدا غاضباً. "Zar وأحياناً Zarrin".

"ماذا؟"، شحذ السيد صالحي نبرته الناعمة، "أيها المسكين، أنا مفاجأ أنك ما زلت تتنفس. أنت محظوظ جداً، تعرف. الوطني كله سم. خمس سنوات، ذلك ما سمعته، تدخنه خمس سنوات، ثم تنسى أنه كان لديك رئتان يوماً".

سأل القادم الجديد، بعد أن وقع ضحية كمين السيد صالحي الساخر، "ماذا يعطونكم؟".

"Winston". لوّح السيد صالحي بعلبة السجائر خاصته بانتصار أمام عيني القادم الجديد المستديرتين الكبيرتين. "نحن دوماً نحصل على Winston. لكن، انتظر لحظة"، تابع السيد صالحي، "أنت لست واحداً من أولئك المعتقلين السياسيين، أليس كذلك؟"، ودون أن ينتظر جواباً من القادم الجديد حذرنا: "أظن أنه كذلك. كلما أحضروا واحداً منهم إلى غرفتنا، تصبح الأمور أسوأ. علينا أن ندفع ثمن غبائهم. لماذا يجب أن نخسر امتيازاتنا بسببهم؟ لا يمكنني أن أدخن أي شيء آخر".

مشوشاً، غاضباً، بحنجرة جافة، غمغم الرجل لنفسه: "لماذا أحضروني إلى هنا؟".
اقتربت منه وسألته عن اسمه.
"صمد"، أجاب. همست في أذنه: "عزيزي صمد، إذا طلب منك السيد صالحي أن تنام قربه، قرب الجدار الدافئ والمريح، أنت تعرف... الجميع هنا بريء من أي خطيئة. كل تلك التهم لا أساس لها، هذا كله صحيح، لكننا يجب أن نحمي أنفسنا. دعنا نبقى في الجانب الآمن. تعالَ واستلقِ مع البقية في الجانب الآخر من الزنزانة".
كانت تلك القشة التي قصمت ظهر البعير. رد بقلق: "لماذا أحضروني إلى هنا؟". اندفع صمد نحو الباب.
قفزت وأمسكت ذراعه وأنا أقول: "انتظر، انسَ الأمر". عانقته وقبّلته على كلا خديه الخشنين، "أهلاً بك في زنزانتنا". عرفت أنه لا بد يفكر أن هذا مستشفى للمجانين وليس زنزانة اعتقال. أخبرته كل شيء عن حفلتنا الصغيرة وكيف وسوس لنا الشيطان عندما دخل.
ومضت الأضواء وعادت من جديد، وللمرة الأولى، ألقينا نظرة أفضل على قادمنا الجديد.
قال لنا صمد وهو ما زال يهز رأسه: "تعرضت للمزاح قبل، لكن هذه كانت جيدة. لا أصدق أنني صدقتها".
قاطعه السيد صالحي: "كلما كبرت الكذبة، بدت أكثر قابلية للتصديق!".
"هل هو"، قال وهو يدور بعينيه نحو السيد صالحي، "متدين؟".
كنت متأكداً أن السيد صالحي أغرته فكرة أن يظنه صمد مسلماً مؤمناً. ولكن للأسف، كما يبدو، لم يكن صمد جاسوساً ليخبر آمر السجن بإيمان السيد صالحي.
"كيف خطر لك ذلك؟"، سألت صمد.
"من شكله فقط".
كان محقاً. بدا السيد صالحي مختلفاً جداً على غريبٍ. نحن اعتدنا شكله، وعرفنا من يكون، ولذا لم يخطر السؤال أبداً في أذهاننا. لا بد أن لحيته الرمادية القصيرة، والبقعتين الداكنتين فوق جبينه، واستخدامه المبالغ لكلمة "أخ" تثير الشكوك في أنه خرج يوماً من مثلث البيت، الجامع، العمل. زوجٌ وفيّ وأبٌ مثاليّ لم يفوت يوماً صلاة خلال السنوات الست والثلاثين منذ بلوغه.
عندما التقيته أول مرة، لم يكن لديه أي بقع تدل على الورع فوق جبهته. قضى ساعات عدة كل يوم يقرأ **القرآن** ويصلي، الأمر الذي لا بد كان شعيرة جديدة عليه، لأنه أمل أن يثبت براءته بها. وكجزء من ذلك، كان يجلس في زاويته يسجد ويحني جبهته إلى الأسفل على قطعة من الطين أمامه على الأرض. لم أدرك أنه فرك جبهته على قطعة الطين لخلق بقع تبدو للناظر أنها قديمة وتعود إلى ثلاثين عاماً، وأنتجها في أقل من شهرين كجزء من المكيدة الكبرى. كان يشحذ حافات الطين سراً ولذا صنع الطين جروحاً صغيرة جداً في جبهته حين يصلي، وتحولت هذه في الحال لتشبه البقعة. كان ذكياً جداً لأننا لم نرَ أبداً قطرات دم على جبهته.
قلت لصمد إن السيد صالحي لم يكن ما يبدو عليه، وإن عليه أن ينتظر يومين فقط وسيكتشف الأمر. سرنا، أنا وصمد، جيئة وذهاباً في الزنزانة التي مساحتها ثلاثة أمتار مقابل أربعة، بينما انشغل الآخرون بتنظيف مخلفات حفلتنا الغريبة. بدأ السيد صالحي تلاوة **القرآن** بصوت عالٍ. رفع يده أمام وجهه ونظر إلى السقف العالي بعينيه المليئتين بالدموع. ربما كان يصلي كي يكون صمد مخبراً. أراد أن يتأكد أن القادم الجديد عرف كم كان تقياً.
صرت أتمنى أن يكون واحد منا جاسوساً. كرهت أن أرى هذه الصلوات تذهب سدى.

”هل انتهيت من التحقيق؟“، سألت صمد.
”أظن ذلك“، أجاب بصوت غير واثق، ”ماذا عنك وعن الآخرين؟“.
مر أسبوعان على محاكمتي.
”هل عليّ أن أخبره؟ ألن يفسد ذلك الحفلة؟“، سألت نفسي.
بعد صمت قصير قلت: ”حوكمت أخيراً“.
”و؟“.
”لا شيء، لا شيء مفاجئ، تماماً كالآخرين. حُكم عليّ بالموت. أُعدم فرهاد قبل أسبوع من محاكمتي. أصغر ينتظر على لائحة الموت منذ ثلاثة أشهر. شقيق السيد درويش أُعدم قبل بضعة أسابيع وحالته لا تبدو واعدة كذلك. ليس واضحاً ما هي حالة السيد صالحي. السروال الذي أرتديه الآن كان للكولونيل صيرفي، أعطاه لي قبل أن يُعدم“.
وضعت يديّ حول كتفيه محاولاً أن أريحه: ”لم يخب أملك لأنهم أحضروك إلى هنا، أليس كذلك؟“.
ركز نظره على الأرض محاولاً تجنب النظر إلى عينيّ.
”لا، بالطبع، لا“، قال. ثم سأل: ”لكن هل سجائر Winston حقيقية؟“.

الاعتراف

أتى العشاء باكراً هذه المرة، حوالى الرابعة. امتزج توزيع قدور الصفيح الضخمة التي ضربت الأرض أمام صف الزنزانات الطويل بالهزل المبتهج. جلس السجناء خلف أبوابهم المغلقة، ومعداتهم المتذمرة تفشي القلق الناتج عن تبكير وقت العشاء. علمنا أن التغيير لا يكون أبداً نحو الأفضل. من السهل أن تشعر بالرضا بالروتين القمعي للحياة اليومية: ثلاث وجبات من الطعام، ثلاث مرات استحمام لدقيقتين، وعشر دقائق في الهواء الطلق. كنا نعرف أنه ما لم يستدعَ أحدٌ إلى التحقيق، أو تُجرى تنقلات، أو يُطلب من أحد ما أن يجمع أغراضه، وما لم يشعر الحراس فجأة بالود الفائض أو العداء الشديد، وبقي الطعام قليلاً وبارداً، فالأمور على ما يرام. أردنا أن نبقى كذلك، لأنه لا فائدة تنتظر من أي تغيير.

بدؤوا توزيع الطعام من الزنزانة رقم 7 في نهاية الممر الذي له شكل L في الطابق الثاني. سبقت رائحة الأرز صوت احتكاك القدر الكبير بالأرض وهم يسحبونه فوقها. تساءل مئة شاب جائع في الزنزانة التي مساحتها ثمانون قدماً في ثمانين: كيف يهدؤون الصراع بين السعادة التي حملها طبق الأرز النادر، والكارثة التي ربما يبشر بها. كان محسن، العائد من جولة تحقيق جديدة، يقف معصوب العينين أمام الباب بانتظار أن يفتحه الحراس له.

"تحرك، تحرك"، أمره الحارسان معاً، "لماذا لست سعيداً؟".

وقف محسن بهدوء بينما يعنفه الحارسان.

"ستصبح كذلك قريباً جداً"، قال أحد الحارسين بسعادة وهو يفتح قفل الباب.

نزع محسن عصبة عينيه ودخل متجاهلاً الحارسيَن المبتهجين.

"خذوا عشاءكم"، أمرنا الحارس، "استعدوا لعرض الليلة في السادسة".

زحف محسن إلى زاويته. دفن وجهه بين ركبتيه. اصطف الرفاق الجائعون للحصول على الأرز الساخن مع بقع صغيرة جداً مما بدا أنه كقطع من الدجاج. تجمع شركاء الطعام في مجموعات من أربعة أشخاص لالتهام العشاء قبل أن يبرد. محسن لم يأكل.

مع ذهاب كل أثر للأرز والدجاج، بدأنا نفكر في عرض السادسة.

"أعرف ما هو العرض"، قال محسن مجبراً الكلمات على الخروج من حنجرته المشدودة، "أخبرني محققي أن حسين روحاني تراجع. ظننت أنه كان يخدعني لكنها حقيقة. المرح في الخارج هو الدليل". حدق في الأرض. رمش بعينيه بسرعة ليحبس دموعه.

تفاوتت ردود فعل الرفاق في الزنزانة. كان البعض مذهولاً، في حين لم يشعر آخرون أنهم ملزمون إخفاء سعادتهم. وكثيرون كانوا بين الحالتين. ثبت أن الولاءات السياسية كانت أكثر جرأة من المودة بين السجناء. شعر هؤلاء الذين رفضوا الخط الفدائي للمنظمة الشيوعية "بيكار" – التي كان روحاني المتحدث الرسمي باسمها – بالنصر. ظنوا أن حدث الليلة سيثبت مرة جديدة أن الشيوعية لم تكن سوى فوضى طفولية. وفكروا شامتين أنها ستقود حتماً إلى الإنكار أو العار. بالنسبة إلى الآخرين، مثّل روحاني جيل الثوريين الأصليين الملتزم العدالةَ الاجتماعية. جسّد روح الثورة في ظل كلٍّ من استبداد الشاه وإرهاب العهد الحالي.

"يجب أن نرفض حضور هذا العرض"، قال أحدهم.

"سنُعاقَب جميعاً على مثل هذا القرار"، اعترض آخر.

"لماذا يجب أن يسبب هذا الصدمة لأحد؟"، سأل رفيق معارض لبيكار، "عرفنا من البداية أن هذا النوع من التطرف محكوم عليه بالهلاك".

"إلى أين سيأخذك دعم النظام، صديقي الطيب؟"، أجاب أحد الداعمين لبيكار بغضب، "ها نحن نتقاسم الزنزانة نفسها، ألسنا كذلك؟".

"ربما لا، ربما يحصلون على امتيازات إضافية لا نعرفها مقابل محاباتهم. هل نعرف أين يذهبون حين يفترض أنهم يستدعونهم إلى التحقيق؟".

"على الأقل روحاني استسلم تحت التعذيب، ماذا عنك؟".

"من الأفضل أن تحفظ فمك!"، كاد الأمر يتطور إلى اشتباك بالأيدي.

"نحن لسنا جواسيس. لا تلُمنا لأن قائدك اللعين يأكل خراءه".

كان يمكن للشجار أن يتطور إلى معركة بين الجميع لولا تدخل منصور الذي صاح: "توقفوا!".

توقف الجانبان بتردد.

"الشيء الوحيد المؤكد حتى الآن هو الأرز الذي تناولناه للتو"، قال في محاولة لتخفيف الوضع، "ونحن نعرف أيضاً بالتأكيد أن هناك دجاجاً طار فوق قدر الأرز".

لم يكن أحد في مزاج يسمح بالضحك على النكت السخيفة. أعادته كلمة "اخرس!" التي صاح بها أحدهم بصوت عالٍ إلى الواقع.

"لا نعرف هل هذا صحيح أم لا. هل تراجع؟ ربما، ربما لا! لا نعرف ما الذي سيقوله، وهل حتى سيظهر".

أنهى ارتجاج الأبواب الحديدية التي تفتح وتغلق الشجار في النهاية.

"هل هناك شيوعيون هنا؟"، كان الحراس يفتشون الزنزانات الأخرى. ولأن الزنزانة رقم 2 كانت مخصصة للشيوعيين، لم يُطرح السؤال فيها، "ضعوا عصباتكم واخرجوا".

تناوب الحراس في التعبير عن تسليتهم بالحدث.

"أيّ حفلة هذه".

"من يريد أن يجلس في الصف الأمامي؟".

"سيدفعون أكثر ليلقوا نظرة جيدة على "قائدهم الأعلى!".

"سيقول: أوه، لا أعرف ماذا كنت أفعل. الرحمة. سامحوني. لقد خُدعت! نعم، سيقول سيد الخداع إنه خُدع ويطلب المغفرة".

أدّوا حركات ساخرة بوجوههم ومدوا ألسنتهم في وجهنا محاولين بطريقة طفولية أن يستجروا جواباً منا. زحف مئات من السجناء الشيوعيين معصوبي العيون بهدوء عبر أرضيات السجن المتجمدة واتجهوا إلى قاعة المحاضرات التي بُنيت على ما يبدو من أجل مناسباتٍ كهذه. لم تنفع الريح الباردة جداً في تهدئة الشجارات غير المنتهية. واتضح من هدير الشعارات المفاجئ الذي ارتفع في البناء أن زنزانتي، رقم 2 في العنبر 2، لم تكن استثناءً على الإطلاق في تذكيرنا بشهية اليسار للاقتتال الداخلي.

"الراديكالية استُنفدت... الفدائيون يجب أن يهزموا!"، صاح المئات بصوت واحد.

"اخرسوا!"، صاح حارس.

"لا، دعهم يتعاركون"، ضحك حارسٌ آخر.

"عارٌ عليكم! عارٌ عليكم! يوماً ما سوف يلتفتون إليكم!"، أجاب مئات الآخرين بصوتٍ واحد.

بدا أن كل شيءٍ مخططٌ له رغم أنه لم يكن كذلك. اعتقد الحراس أن كل الشيوعيين ينتمون إلى نوعٍ واحدٍ من الإلحاد والانحطاط. ربما كانوا يراقبون عرضاً أفضل بكثير مما توقعوا.

قسّمت ستارة سوداء منخفضة القاعة المزدحمة إلى قسمين: واحد للرجال وآخر للنساء. وهناك منصة كبيرة في الأمام كانوا يذيعون منها المحاكمات المهمة عبر التلفزيون الوطني أحياناً. بعد أن استقر السجناء في أماكنهم، وصل أسد الله لاجوردي، مدعي الثورة السيئ السمعة الذي كان يعرف ببساطة بحاج آغا، وسط هتافات حادة من الحراس. لم تظهر على وجهه أي مشاعر محسوسة وهو يسير بتأنٍّ قرب الحاجز المنصف. ارتدى نظارات داكنة ليخفي عينيه القبيحتين، ‘ذ كانت إحداهما جاحظة نحو اليسار، كأنه يحاول أن يرى ظهره، في حين أن الأخرى غارقة ولا تكاد تكون مرئية. لم ينفع وجهه غير الحليق في تخفيف تشوهه القبيح. مع أن صوته كان شاباً وناعماً ولطيفاً. نادراً ما تخلى عن طبعه: تلا كل عقوبات الموت التي طالب بها بهدوء. كان يفعل الشيء نفسه الذي اعتقد أن الطرف الآخر سيفعله لو قاد الثورة. لم يكن يقوم بعمله فقط، لا، كان يعيش حلمه.

”حاج آغا“، اقترب حارسه الشخصي منه، ”هل نبدأ؟“. أشار إلى المنصة وهز رأسه ليأذن بإجراءات الافتتاح. ”لينهض الجميع من أجل صلاة المساء“، أعلن المؤذن قبل أن يبدأ دعوته. جلس معظم السجناء بتحدٍّ. أدار المؤذن رأسه برصانة نحو الحشد الصامت وأدرك أنه مع بعض الاستثناءات بقي السجناء جالسين. رفع ذراعيه فوق رأسه وسبّابته تشير إلى الجنة، مذكراً الآثمين بالله المنتقم، وتلا دعوته مرة ثانية بكل قوته. لم يتحرك أحد. كانت هذه المرة الأولى التي يرفض فيها السجناء الامتثال جمعياً في السجن حيث أصبحت الحياة أرخص من الطابع الذي يوضع في ذيل قرار الإعدام.

بدأ الإمام الصلاة.

”تعرف“، خاطب حاج آغا الإمام مقاطعاً الصلاة، ”أن صلاتك غير مقبولة إذا كان صفّ المصلين خلفك متصدعاً“.

”ربما“، أجاب الإمام حاج آغا بسذاجة، ”لم يكن لديهم فرصة للوضوء قبل القدوم إلى هنا“. مضى في نصح الشيوعيين الكفرة بمزايا النظافة. ”جربوا هذا“، قال مستغلاً الفرصة لإعطاء محاضرة، ”كونوا نظيفين ومستعدين للصلاة في كل وقت لأربعين يوماً وسوف ترون كيف سيغير هذا حياتكم“.

”هذا يكفي“، سخر منه حاج آغا، ”فعلت ذلك لأربعين عاماً ولم يتغير شيئاً في حياتي. عزيزي الإمام، عد إلى المكان الذي تنتمي إليه، أنت لا تعرف هؤلاء الأوغاد“.

نظر حاج آغا خلفه، وبإشارة انطلاق أخرى من رأسه، أمر الحراس أن يقدموا السيد روحاني إلى المنصة.

بدا روحاني مذهولاً. مع هذا، حاول أن يبدو متزناً في هذا المسير الأطول في حياته. وقف قرب حاج آغا الذي سمح لحراس الموت أن يهتفوا كل شعاراتهم أولاً.

الموت لأعداء الثورة!
الموت لبيكار!
الموت لجواسيس أميركا!
الموت لروحاني!
الموت! الموت! الموت!

بدا روحاني معزولاً.

سأله حاج آغا بأدب: ”هل نبدأ؟“.

كان روحاني قائداً مهماً على نحو استثنائي. انضم إلى صفوف الثوريين قبل عشرين عاماً بصفته طالباً مسلماً من عائلة مؤمنة. في ذاك الوقت، لم تكن التقسيمات الأيديولوجية هي ما فرقت بين تشي غيفارا والإمام الحسين وإنما مرور الزمن. أوصى الإسلام بالاشتراكية والاشتراكية أعطت معنىً جديداً للإسلام. تعساء العالم اليوم كانوا في الأمس الإسرائيليين المحكومين بالعبودية لفرعون، والمسيحيين الذين اضطهدهم الرومان، والمسلمين المحرومين الذين غدر بهم الخليفة. أصبح روحاني مقاتلاً مدنياً مسلماً، متغلباً على إغراءات الالتزام وداعماً لإخوته الذين اغتالوا المستشارين العسكريين وموظفي المخابرات الأميركيين. وأملوا أن مقاومتهم سوف تلهم بقية الأمة بالثورة. ثارت الأمة، لكن ليس استجابةً لدعوتهم.

قبل خمس سنوات من اعتقاله، شارك روحاني في انقلاب تنظيمي دعاه ورفاقه "التحول الأيديولوجي". تخلوا عن الإسلام، وتبنوا الماركسية، واستلموا قيادة المنظمة. ثم أصدروا إنذاراً نهائياً لبقية الأفراد: إما أن يقبلوا مبادئ الماركسية–اللينينية وإما "تطهيرهم" من المنظمة بصفتهم أعداء للشعب. كثرت القصص حول استخدام القيادة لفوهات البنادق لإجبار الأفراد على قراءة كتاب **ما العمل؟**. بقي من غير الواضح ما الذي كان أكثر إقناعاً في هذا التحول الأيديولوجي: نقاشات لينين الفعالة أو الخوف من السلاح. بقي من غير الواضح أيضاً هل روحاني واحد من هؤلاء الذين وجهوا سلاحاً إلى رؤوس الرفاق أو قرأ الكتاب وفهمه. لكن أيّاً كانت الوسائل، نجح التحول الأيديولوجي للمنظمة. وقتلوا هؤلاء الذين رفضوا التحول إلى الماركسية.

قبل بضعة أشهر من انتصار الثورة، أعلنت "بيكار" وجودها وقدمت اعتذاراً عن أخطاء قيادتها التي ارتكبت خلال الزمن المؤلم للتحول الأيديولوجي. اعترفت أن هؤلاء الأعضاء الذين قتلوا قبل بضع سنوات لم تغتلهم الشرطة السرية، وإنما تمت تصفيتهم في ما أريدَ أن يكون في ذلك الوقت تطهيراً ثورياً. كان روحاني ينتمي إلى المجموعة التي ألفت الاعتراف الشعبي.

بدأ اعترافه جالساً قرب كرسي فارغ على المنصة خلف منضدة صغيرة: "أنا هنا بناءً على طلبي دون إجبار أو أي نوع من سوء المعاملة". شرب كوباً كاملاً من الماء، كأن اعترافه انتهى. "أود أن أشكركم جميعاً على القدوم وإعطائي هذه الفرصة".

كانت لحظة صعبة لنا نحن الذين لم يكن أمامنا خيار سوى الوجود هناك.

"أريد أن أتشارك معكم آرائي الحالية عن نشاطاتي السابقة"، لم يكد صوته مسموعاً.

دوّر حاج آغا إصبعه عالياً في الهواء طالباً رفع الصوت إلى الحد الأقصى، وطغا طنين مفاجئ على صوت روحاني، كأن مكبرات الصوت شاركت الجمهور رغبتهم.

قرّب روحاني مكبر الصوت من فمه. لم يكن جسده يحمل أي آثار للتعذيب. وبدا أن قدميه الحافيتين، اللتين كانتا متقاطعتان تحت المنضدة، لم تتأذيا بسبب السياط التمهيدية التي ترافق أي تحقيق.

"أنا هنا بناءً على طلبي"، كرر بالصوت الرتيب نفسه منحنياً إلى الأمام باتجاه مكبر الصوت.

اعترف روحاني أنه كان مخطئاً في معارضة النظام الجديد. وبدأت علامات الصدمة تظهر على وجهه تدريجياً. لم تساعد لحيته الحليقة بدقة في إنعاش بشرته السمراء. "دون قصد"، هربت الكلمات المكتوبة من فمه الجاف، "استُخدمت سياساتنا، وعدد منها ألّفته بنفسي، لخدمة أعداء الأمة". كانت الكليشيهات الاعترافية، السيناريو المألوف، الخصوم المألوفون، أفعال الخيانة المتوقعة، الالتماس الأنموذجي للمغفرة، كلها متوقعة وغير نافعة. تحدّث لكن صوته تلاشى من أذنيّ.

اعتُقل روحاني بعد بضعة أسابيع من إبعاده عن منصب رئيس "اللجنة المركزية لبيكار". بعد أن خسرت مجموعته نقاشاً داخلياً حول مستقبل المنظمة، قررت الغالبية تعليق عضويته وحرمانه الوصول إلى موارد المنظمة. أُنذر بإخلاء الملجأ الذي أمّنته له "بيكار" خلال بضعة أسابيع. أُعطي مبلغاً من المال كآخر دعم مالي قدموه إليه، وشاحنة خفيفة يمكن أن تستخدم كمصدر للدخل، وأُذن لزوجته بمرافقته في رحلته الجديدة. كان هدفاً معروفاً. أجرى "الحرس الثوري" دوريات في شوارع المدن الكبرى يفتشون عن وجوه "أعداء الثورة" المعروفين. وكان معروفاً أن السيد روحاني سيكتشف عاجلاً أو آجلاً. ودون وسائل تنظيمية، لم يكن يستطع أن يذهب بعيداً دون أن تمسكه الشرطة. اعتُقلت زوجته أيضاً رغم أنه لم يعرف شيئاً عن مصيرها.

سأكتشف لاحقاً أنني تشاركت مع روحاني فريق التحقيق نفسه، وأن الجلبة التي سمعتها في الممر خلال واحدة من جلسات التحقيق معي كانت عندما اعتقلوا الكادر الكامل لـ"بيكار". عندما أخبره محققه أن رفاقه كشفوا كل ما هم بحاجة إلى معرفته عنه، لم يجد السيد روحاني صعوبة في تصديقه. رأى أن رفاقه سلموه بالفعل إلى السلطات حتى قبل اعتقاله.

عرف كل من في القاعة الرواية المتوقعة حول خيانة "بيكار" للثورة وتخريب الإنتاج في المصانع، وأن المنظمة تبعت ظاهرياً أسيادها الأميركيين، وأنها كانت تمثل "المخابرات المركزية الأميركية". نعم، نعم، ما هو الوقت الآن؟ ألم ينتهِ هذا بعد؟ أتعبت جمله المطولة ومفرداته المكررة حتى حاج آغا، الذي مثلنا لم يستطع انتظار انتهاء العرض، لكنه لم يتمكن من مقاومة متعة عصر القطعة الأخيرة من كرامة روحاني.

"طلبت واحدة من أخواتنا"، قال الشامت حاج آغا وهو يحمل قطعة من الورق ليوقف اعتراف روحاني المضجر، "فرصة لعرض جرائم السيد روحاني".

كان حاج آغا رجلاً واثقاً ولم يكن يخشى المخاطر. لذا، رحب بالسجينة غير المعروفة ودعاها إلى المنصة.

رفعت جسدها الضعيف إلى المنصة. كانت عظام كتفيها بارزة من تحت العباءة السوداء التي غطت جسدها. وبدا أن وجهها النحيف أثار حاج آغا.

بدأت بسرعة قبل أن يتمكنوا من جرها إلى الأسفل.

"اسمي مُنية هدائي"، أعلنت بصوت يناقض ضعف جسدها.

"أنا هنا لأعتذر لرفاقي الذين أظهروا اليوم أن المقاومة ليست ميتة. الموتى هم الناس مثلي الذين لم يكونوا أقوياء كفاية ليبقوا صادقين مع أنفسهم ومع رموزهم. أنا هنا لأعتذر لأخي الذي أعدم الشهر الماضي لأنه لم يرد أن يكون ميتاً قبل موته"، تحدثت دون أن تتنفس ولم تترك هواء للآخرين ليتنفسوا كذلك.

"إلى الأسفل أيتها المرأة الخسيسة!"، زأر الحراس بقسوة.

أسكتت كلمة "هسس!" عفويةً وآمرةً القاعةَ.

ذُعر الحراس. ظنوا أن هناك اضطراباً يتحضّر.

شعر حاج آغا أنه خُدع لكنه بقي هادئاً بينما غادر نصف الحراس القاعة وأغلقوا الأبواب من الخارج.

"الموتى هم أمثال روحاني ومثلي"، تابعت باتهام أكبر، "نحن الذين لبسنا عباءة القيادة لنغطي ضعفنا. أنا هنا لأعترف أنني خنت رفاقي وأطلب منكم المغفرة. لست هنا لأبرر أفعالي. لست هنا لألقي خطاباً. أنا هنا لأقول لكم إن قادتكم ميتون، تعيش المقاومة!".

لم يتلفظ أحد بكلمة. سواء كانت هناك مذبحة على وشك الحدوث، أو... ليس هناك "أو"؛ المذبحة ستحدث.

"أنا أشعر بالشيء نفسه!"، صاح روحاني، وأمسك مكبر الصوت، "أسألكم المغفرة أيضاً. كنت ضعيفاً. ما فعلته لا يُغتفر. دمائي فقط يمكن أن تغسل خطاياي".

حتى في خطابه المسرحي يفكر في الصيغ المبتذلة فقط، "كنت سأخبركم أن هذا ما شعرت به عندما قاطعتني".

لم يكن السؤال الرئيسي الذي دار في أذهان الجميع إن كان ميتاً أو حياً، وإنما أي من السجناء سيعودون إلى زنزاناتهم. هل هذه مؤامرة إبادة جماعية؟

أنهى حاج آغا عرضه الكارثي. أمر منية وروحاني أن ينزلوا من المنصة، بينما غادر القاعة للنظر في الوضع والتخطيط لحركته التالية.

اصطف الحراس خارج القاعة، مقابل شرطة السجن، مع أسلحتهم المجهزة. وفي الداخل، أجبر الحراس جميع السجناء على التجمع في زوايا الصالة الأربع. ثم طلبوا منا أن نزحف باتجاه باب الخروج الوحيد في صف مفرد. بقي الحراس المسلحون في الخلف بينما شكّل مجموعة من السجناء التائبين قفازاً واقياً عبرنا خلاله ونحن نُضرب.

أعادنا الموكب المؤلم إلى الطابق العلوي من العنبر 2، الزنزانة رقم 2. لم ينظر أحد إلى أحد. لفّ زنزانتنا شعور غير معروف: مزيجٌ من الرعب، والخلاص، والسعادة، والحزن، والحيرة.

أدلى منصور بفكرته: "متى العرض التالي؟".

"سنكون هناك، أليس كذلك؟"، قال محسن وهو يبتسم بلطف رغم أنفه النازف. لم يكن واضحاً تماماً إلى من وجه السؤال. إلى نفسه؟

أعدمت مُنية هدائي بعد شهرين من رفضها سحب إنكارها لتراجعها. ألقى حسين روحاني اثني عشر خطاباً آخر: ظهر في ثلاثة منها كماركسي وُلد من جديد يدافع عن سنواته في "بيكار"، وفي ثلاثة أخرى كماركسي رفض أجندة "بيكار" السياسية، لكنه دافع عن أيديولوجيتها الثورية. وظهر خلال محاضراته الستة الأخيرة كناقد إسلامي للماركسية وأعلن أنه أخيراً وجد الله بصدق.

أُعدم بعد وقت قصير من ذلك.

سيمفونية مالر الأولى

كنت أصفّر المقطع الذي يؤديه الناي من الحركة الثالثة من سيمفونية مالر الأولى. طالما فتنني التأثير الساخر المضاد الذي يحدثه نغم الناي. فهو يأتي تماماً بعد بضع جمل مفردة لصوتين عميقين مزدوجين يقدمان اللحن المحزن لموكب جنائزي. ويبقى بإمكانك أن تسمع في الخلفية الخطوات الهادئة النادبة في الضربات الناعمة التي تؤديها الطبول التي تفتتح الحركة عندما يبدأ الناي. مالر سيد المحاكاة الساخرة. يأخذك في اللحظة الصحيحة، أو ربما الخطأ، تماماً قبل أن تنجرف في ارتباط رومانسي أو تغرق عميقاً في انعزال حالم. يأتي الناي صفعة على الوجه، دعوة للنادبين للاحتفال وسط الجنازة. وفجأة يتبع الجميع الناي، الطفل المشاكس للأوركسترا التي تبدو الآن أكثر شبهاً بفرقة كِلِزمِر[12] منها بأوركسترا سيمفونية، خاصة بمرافقة الصنوج النحاسية التركية المبتهجة والطبل الكبير. الناي هو الشيطان.

12 "كِلِزمِر": موسيقا يهود شرق أوروبا منذ العصور الوسطى المتأخرة.

قرأت في مكان ما لقاء مع ليونارد بيرنستاين كان يحاول أن يشرح فيه لقائد فرقة موسيقية شاب هذه السخرية المبهمة في الحركة الثالثة. كان الشاب يتساءل كيف يمكن للشخص أن يشعر بهذه الأمزجة العاطفية المتضاربة في آنٍ: التعاطف مع النادبين وأنت تخلع حذاءك لترقص بابتهاج. "هل حضرت يوماً زفافاً يهودياً؟"، سأله بيرنستاين. ذاك هو الأمر: الأم تبكي في إحدى الزوايا، العريس يثمل، العروس ترقص، الأب قلق لأنه سيدفع تكاليف كل شيء. لماذا لا يمكن أن نضع ذلك كله في قاعة موسيقية؟

صفرت وأنا أسير جيئةً وذهاباً. تمر سطور مالر بسرعة، مثل الحزن، المتعة، الألم، الراحة، النجاح، الفشل. كلها أجزاء من عالم غامض تماماً لنا. هل كان مالر يهتم بكل هذا؟ ليس لدي فكرة. هل كان مدركاً للرسالة العميقة المخفية في موسيقاه؟ لا أعرف. تابعت الصفير فقط.

عندما انتقلت إلى همهمة مقطع التشيلو، بدأت أسمع الكلارينت يحاول أن يحاكي الناي الساخر بنبرة ممتازة. تلفت حولي لأتأكد أن الجنون لم يأخذ عقلي بالكامل. لكنني لم أكن أسمع أي صوت. وقف الشاب ناصر خلفي تماماً بابتسامته الكبيرة التي كانت أكبر من جسده الهزيل.

"هنا يدخل الكلارينت، تماماً عند بداية المقطع 29"، قال قبل أن يتابع العزف.

كنت لا أزال أحاول أن أحدد هل عقلي يخدعني أو أن ناصر يتحدث فعلاً.

"بالطبع أنت تعرف أن مالر يستخدم كلارينت E–flat. لهذا هو يولد محاكاةً ضمن المحاكاة. فهو يدعم الناي ويقاومه".

لا يمكن أن يكون هذا حقيقياً. "بالطبع أعرف... ماذا؟"، أنا حتى لا أعرف أن هناك اختلافاً بين كلارينت وآخر. كنت راضياً أن أعرف الفرق بين الكلارينت والناي فقط.

"يبدل الناي المزاج فجأة، لكن الكلارينت هو الذي يحول ذاك التغير إلى مزاج راقص".

ناصر نفسه الذي رأيته كل يوم وطوال اليوم عندما أعادوني إلى إيفين بعد محاكمتي الأولى هو من يعطيني محاضرة حول مالر. ليس أي مقطوعة لمالر، وإنما سيمفونيتي المفضلة، سيمفونيته الأولى. اعتدت أن أشعر بالرقي الثقافي عندما كنت أتحدث مع الآخرين عن السيمفونيات، وبالتفوق وأنا أشرح الفرق بين البوق الإنكليزي والفرنسي. لكن الآن كان هذا الناصر الصغير يخبرني أن

الكلارينت الأول في سيمفونية مالر الأولى هو بالطبع E–flat. ”كم نوعاً هناك؟“، كنت متكبراً جداً لأسال.

”إذاً، أنت تحب مالر أيضاً؟“، سألته بخجل.

”أحب مالر وكنت سعيداً جداً بسماعك تصفر السيمفونية الأولى“.

سمحت له أن يمدحني أولاً قبل أن أبتلع تكبري وأسأله عن معرفته بمالر.

”تعرف“، أضاف، ”أنت تصفر جيداً تماماً، لكنك بحاجة إلى أن تربط A الأولى مع D الثانية دون انقطاع“. ثم تابع يصفّرها بطريقة صحيحة بينما ما زلت أتساءل أين كانتA الأولى وكيف أربطها دون توقف مع D الثانية. لم أدرس الموسيقا. تقريباً استمعت إليها، وبنعمة من الله، أو أياً كان من يعتني بي في هذا العالم الأرضي، كنت قادراً على تذكرها.

استغرق الأمر مني بضع ثوانٍ قبل أن أحوّل مشاعر الانزعاج التي انتابتني تجاه ناصر إلى امتنان.

”كيف تصادف أنك تعرف مالر جيداً جداً؟“، أجبرت نفسي أخيراً على السؤال.

”لا أعرف مالر تلك المعرفة الجيدة، أنا أعزف الكلارينت فقط“، أجاب بكل التواضع الذي تمكن من حشده، ”عزفت في أوركسترا الشباب والسنة الماضية أدينا سيمفونية مالر الأولى. لم يكن لدي فرصة أبداً لأستمع للمزيد من سيمفونياته الأخرى على أي حال“. لم أكن متأكداً هل يحاول أن يترك مجالاً لغروري أو أنه كان صادقاً فقط حول معرفته بمالر.

”أوه، بعد معرفة سيمفونيته الأولى لا شيء مهم“، قلت في المقابل. دون شك، كنت أظن أن سيمفونية مالر الأولى كانت أفضل سيمفونياته. لم يكن لديه أفضل منها.

سألت ناصر عن تسجيله المفضل.

”الوحيد الذي سمعته“، قال لي، ”هو برونو والتر. أخبرنا قائد فرقتنا بعد سماعه أن تفسير أي شخص آخر سيكون غير مقبول. بالنسبة إليه مالر وُجد فقط عبر والتر“.

لماذا مثل هذا التعنت؟ تساءلت. أخبرته أنني أحببت مالر تماماً بسبب هذه الأنواع من الألغاز التفسيرية التي يفرضها. بدا لي تجاهل ذلك بمنزلة مقاومةٍ للمالرية. كيف يمكنك ألا تناقش إلى أي درجة يجب أن تكون سطور افتتاحية سيمفونيته الأولى هادئة؟ الصمت. ألا تحب الطريقة التي يلحن بها الصمت؟ كم هي جميلة تلك المسافات الصامتة للأبواق واستغاثة الكمنجات وهي تصور العدم! كيف أن آلات الكلارينت تلك (لا أعلم أي واحدة منها، بالتأكيد ليست E–flat، وفقاً لناصر) تدخل وتخرج بينما يرسم لوحة خلق الوجود من العدم ليصبح حياة كاملة الازدهار! كيف أنه يحضر الابتسامة إلى وجهك بعد لحظات القلق التي سببتها البداية. هو رسام، هو شاعر، هو راوٍ، هو...

”أي أداء تفضل؟“، سأل ناصر وهو يسحبني من طربي. أصغيت إلى ثلاث نسخ مختلفة فقط: رافائيل كوبيليك، بيرنستاين، برونو والتر. من هذه النسخ الثلاث أكثر ما أحببته هو أداء كوبيليك. ظننت أن سرعة الإيقاع كانت صحيحة تماماً رغم أنه لم يكن لدي فكرة ما هو الإيقاع المكتوب، والمواقف الساخرة التُقطت بذكاءٍ كبير. أعجبتني حقيقة أن أداء بيرنستاين بدا أقل تنقيحاً، لكنني أحببت كوبيليك أكثر. ربما فقط لأن اسمه بدا أكثر غرابة لي.

السبب الآخر لمحبتي لمالر، الذي تشاركته مع ناصر، أنه ذكّرني بشاعري المفضل، أحمد شاملو. ظننت أن مالر يعمل مع الملاحظات التي خطها شاملو بالكلمات. أحببت حقيقة أن الشخص لا يعرف أبداً متى تصل قصيدة شاملو إلى النهاية. قصائده تفتقر إلى رواية، وتنتهي فجأة. يصوّر كل سطر فيها مشهداً يسحبك إلى الداخل ثم يتركك وحيداً على متن طائرة لا تعرف في أي اتجاه تذهب أو أي

خطوات عليك أن تتخذها. "هل ترى كيف يفعلان الشيء نفسه؟"، سألت ناصر الذي بدا أكثر ضياعاً مني حتى.

أعطيت لناصر مثالاً عن قصيدة لشاملو لأضيف بعض المعنى على الهراء الذي كنت أتحدث به.

"لحظة الإعدام"

دار المفتاح في القفل.
ارتجفت الابتسامة على شفتيه،
مثل أمواج مائية ترقص على السقف،
انعكاساً لأشعة الشمس.
دار المفتاح في القفل.
في الخارج،
لون الفجر البهيج،
مثل نغمٍ ضائعٍ وحيد،
يبحث عن ثقوبٍ ناي الخيزران،
عن بيته...
دار المفتاح في القفل.
رقصت الابتسامة على شفتيه،
مثل أمواج مائية على السقف،
انعكاساً لأشعة الشمس.
المفتاح
دار
في
القفل

تجمعت دمعة في زاوية عين ناصر اليسرى بانتظار أن تشق طريقها عبر جفنه السفلي. وقف دون حراك وهو يخشى أن يبكي. "أخي..."، مسح عينيه دون أن ينهي جملته. "لم أقرأ شعر شاملو أبداً، لكنني أرى التشابه. هذه المشاعر المتناقضة التي تسحبك في اتجاهات كثيرة... ألا تجد هذا مخيفاً؟".

"ماذا في رأيك يجب أن نفعل من أجل السنة الجديدة؟"، جربت أن أغير الموضوع. كانت تلك أسوأ قصيدة استطعت اختيارها من متحف شاملو الواسع. كان النوروز بعد بضعة أيام، بداية الربيع وبداية العام الجديد.

"هل مسموحٌ لنا الاحتفال؟".

"لا أعرف".

كان هذا النوروز الأول لجميع من في السجن ولا أحد يعرف هل مسموح لنا أن نحتفل به. يبدأ الربيع حوالى الرابعة فجراً. هل يمكننا أن نتحدى إطفاء الأضواء في الساعة 10:30 ونبقى حتى "سال تحويل"[13]؟ فكرت أن هناك طريقة واحدة للاكتشاف، وهي الاحتفال.

13 لحظة نهاية العام وبعدها يبدأ العام الجديد.

ليس من السهل إقناع نحو مئة رفيق في زنزانتنا المزدحمة، يتجادلون على الدوام على كيفية تقسيم تلك المساحة الضيقة بيننا – من أجل النوم، السير، الجلوس، التنفس – أن يخوضوا في المجهول.

"دعنا نفعل شيئاً ما مع شاملو ومالر، فلنصنع أغنية". كان ناصر جديداً ولا يعرف مداخل ومخارج السياسات في الزنزانة. "دعنا نعمل معاً على هذا: لحن مالر الجنائزي الراقص وقصيدة شاملو... لا أعرف كيف أصفها... دعنا نقل، اللحظة المتحدية للإعدام".

تحركت أصابعه الهزيلة بسرعة للأعلى والأسفل فوق صدره على الثقوب المتخيلة لآلته محاولاً أن يربط النوتات الصحيحة مع الكلمات الرائعة. ثم أمسك يدي وعصرها بقوة، وهو يقول: "دعنا نفعل هذا".

"ماذا عن احتفال النوروز؟".

"سنغني الأغنية للجميع، أنت وأنا. يمكنني أن أكتبها لصوتين، أنت تغني سطراً وأنا أغني الآخر. ستكون رائعة".

"سيقتلوننا".

"سيفعلون ذلك في كل الأحوال، صحيح؟".

لماذا لم يكن خائفاً؟ لم أعرف شيئاً عن قضيته. قادم جديد لم يكن حتى قد أنهى الثانوية، عازف كلارينت، وماذا بعد؟

أخبرته أننا سنتحدث إلى الآخرين لنرى هل بإمكاننا أن نخطط لاحتفال. كانت هذه قضايا حساسة تحتاج إدارةً واضحة. اعتبر آمر السجن أي محادثة بسيطة حول تخطيط أي شيء بمنزلة مؤامرة. وذكر كلمة مؤامرة في ملفك سيكون تماماً الفاصل بين الحياة والموت.

لم يعلن السجن أي سياسة خاصة حول احتفالات النوروز. بدا أن الاعتدال الربيعي لم يظهر حتى في تقويمهم. لذا، كيف يمكن أن يكون الاحتفال ضد تعاليم السجن؟ لعبت دوري في عرض الأمر على الأشخاص المهمين في الغرفة. مثّل كل شخص في الغرفة خطاً سياسياً مختلفاً، البعض فدائيون، الآخرون مجاملون، الغالبية غير محددين، معتقلين على نحو غير واضح، ينتظرون دورهم في غرف التحقيق، المكان الوحيد في العالم، كما اعتاد المحققون أن يقولوا، حيث تخرج الكلمات من نعال قدميك. انتمى ناصر إلى الغالبية غير المحددة وجميعنا حاولنا أن نبقي الأمر على هذا النحو قدر الإمكان.

مع أن القرار الجماعي يتطلّب في العادة ساعات من المفاوضات، كان هناك توافق غير مألوف في الغرفة على وجوب الاحتفال بالنوروز. لم يكن ذلك جريمة إجماع عام. إلى أي درجة يمكننا أن ندفع قضية احتفالنا لكي يتم العمل عليها. وافقت أن أنظم جزء التسلية. خطط الآخرون لارتجال منضدة "هفت سين"[14] عليها سبعة أشياء تبدأ كلها بحرف س وترمز إلى: النقاء، الصحة، الازدهار، الثروة، السعادة، الوضوح، والحب. سيكون ذلك دون شك "هفت سين" المالرية الأكثر سخرية في تاريخ الإمبراطورية الفارسية كله. خططنا أيضاً لتجميل الغرفة وتنظيف الجدران وغسل النوافذ وإزالة الغبار من كل زاوية صغيرة بوحي من التنظيف الربيعي. طرحت الأفكار وتشكلت الفرق. زالت المخاوف وعُلّقت الشجارات الفئوية.

14 السينات السبع (Haft Sin) السفرة التقليدية التي تحضر لإحياء عيد النوروز، وهي عادة منتشرة في كثير من البلاد. توضع على هذه المائدة سبعة أشياء تبدأ بحرف السين.

عملنا، أنا وناصر، على أغنيتنا. أخبرته أننا بحاجة إلى إشراك آخرين في المشروع، بما أنه كلما كانت المساهمة عامة أكثر، كنا محميين من العقوبات المستقبلية أكثر. جمعت فريق غناء مؤلف من عشرة أشخاص لترنيم بعض الأغنيات إضافة إلى جزئهم في أغنيتنا. كان ناصر شكاكاً في قدرة مجموعة من الجاهلين بالموسيقا على مرافقتنا. لكن المخاطر يجب أن تكون محسوبة.

وافقنا أن أصواتهم ستظهر في نوتتين فقط من الطبول عند البداية، ونكرر النوتتين نفسيهما من أجل الأغنية بالكامل.

"أنت تقصد اللازمتين D و A منفصلتين؟"، سأل ناصر معلناً سلطته الموسيقية.

أجبته بـ"نعم" جاهلة.

بدأنا الاحتفال عند وقت إطفاء الأنوار تقريباً. كانت أغنيتنا مالر–شاملو عن لحظة الإعدام كارثية. تصدّع صوتي في المنتصف ونسي ناصر شطراً من القصيدة. لم يتمكن أحد من أداء الأغنية، ويفضّل ألا أقول شيئاً عن الجوقة، فهم لم يتمكنوا حتى من غناء نوتتين دقيقتين بسيطتين في تناغم. فكرة من كانت هذه؟ لم يهتم أحد بالموسيقا أو بالقصيدة. لم يكتشف أحد أي محاكاة ساخرة فيها، ولم يُلحظ فيها أي تهكم. كانت نشازاً كاملاً يعتدي على آذان الجميع. لكن الأغاني الفولكلورية التي أداها عدد من الأشخاص بأصوات حققت نجاحاً كبيراً. وقوبلت المسرحية الهزلية التي كتبتها وأخرجتها عن مغامرات زنزانتنا بضحك كبير.

بقينا مستيقظين حتى الرابعة صباحاً نأكل ما لا ينتهي من الحلوى المتخيلة وأرز الأعشاب التقليدي والسمك الأبيض. وضعت التقسيمات السياسية جانباً لسهرة مساءٍ عابر، وأزهرت مشاعر حقيقية من الروح الرفاقية.

فتح حارسان غاضبان الباب بأحذيتهما في الخامسة صباحاً. جلسنا في ذهول مشوشين فوق أرضية من العظام واللحم تغطيها القمصان الداخلية التي تفوح منها رائحة العرق والبطانيات القديمة.

"انهضوا"، قال الحراس وهم يركلون السجناء قرب الباب بكل قوتهم، "أحضرنا إليكم العيدية".

توقيت سيئ لتسليمنا هدايا النوروز! سحبوا البعض خارجاً إلى الممر، وركلوا الآخرين وأجبروهم على الخروج بسرعة. كان هناك عدد لا بأس به من الحراس ينتظرون ليحيونا في الممر. جعلونا نصطف ونزحف على الأدراج خروجاً إلى الفناء المتجمد.

"تحبون تخيّل الأشياء كما أسمع"، صاح آمر السجن ونحن نرتجف. كانت الأرض متجمدة تحت طبقة رقيقة من الثلج المتساقط حديثاً. "تخيلوا الآن أنكم دافئون ومرتاحون لأنكم ستبقون هنا حتى يتحول لونكم إلى الأزرق".

بدأنا جميعنا القفز إلى الأعلى والأسفل كي لا نتجمد.

"لا قفز، لا حركة. إذا تحركتم، ستضربون"، رفع قطعة قصيرة من خرطوم بلاستيكي ثم طلب منا أن نأخذ "وضع الكرسي"، "تحبون أن تتخيلوا؟ تخيلوا أنكم تجلسون على كرسي".

كل من يسقط أو يقف كان يُضرب. أغمي على ناصر. حملوه خارجاً بعد أن ضربوه بقوة ليتأكدوا أنه لم يكن يمثّل. تمنيت لو يُغمى علي. ارتفع الثلج. تحرك الحراس إلى الداخل ليحافظوا على دفئهم ويراقبونا من خلال باب البناء المفتوح.

حين أغمي عليّ أخيراً نتيجة الوضع كان القليل منا فقط من بقوا هناك. فتحت عيني على وجه ناصر. تعرف أنك سجين عندما تبدو زنزانتك كالبيت.

فُتح الباب مرة أخرى مع أخبار جيدة عن عيدية أخرى لبعض الأشخاص المختارين، "هذا دليل إضافي على كرمنا".

تلا الحارس مجموعة من اثني عشر اسماً بينهم اسمي وناصر وطلب منا أن نخرج. كانت أصابع قدمي لا تزال متجمدة لكن أياً منا لم يكن لديه رفاهية طلب المزيد من الوقت. اصطففنا في الممر ووضعنا عصباتنا على عيوننا. وقفت خلف ناصر ووضعت يدي على كتفه الضعيف. شعرت أنني كنت مسؤولاً عن كل ما سيحدث له، فهو لم يكن لديه فكرة عن شاملو، أو كتابة أغنية، أو التخطيط للاحتفال بالنوروز. أي سوء تقدير مرعب كان هذا. فكرت هل عليّ أن أقترب من الحارس وأخبره أن ناصر ليس له دور في هذا. لكنني فكرت أن عليّ الانتظار ربما لأرى ما هي العقوبة التي

تنتظرنا. كلما مشينا أكثر معصوبي العينين، أصبحت الفرص أكثر ظلاماً. عرفت أننا كنا ذاهبون باتجاه مكتب المدعي، الاتجاه الذي لا يتمنى أحد أن يذهب إليه.

"متى كانت آخر زيارة إليك من عائلتك؟"، همس أحدهم في أذني.

"لم أحصل على زيارة منذ اعتقلت".

"متى كان ذلك؟".

"منذ أكثر من خمسة أشهر".

"لا زيارات؟".

"لا".

"لماذا؟".

كان ذلك سؤالاً صعباً. هل يفترض بي أن أعرف لماذا لم أحصل على حقوق زيارة بينما يمكن للآخرين أن يروا عائلاتهم مباشرة بعد الاعتقال مرة في الشهر؟

"لا أعرف".

"تعرف".

"لا أعرف".

"أنت تعبث معي"، تحول همسه إلى صيحة مكتومة قاسية، "أنت تعرف. أنت عدو لعينٌ للثورة، والأوغاد اللعينون أمثالك لا يملكون أي حقوق بالزيارة".

تجاوزني إلى السجناء الآخرين.

عاد لاحقاً ودفعني وناصر داخل مكتب. عندما دخلت، كان أحد المحققين يتحدث عبر الهاتف إلى شخص ما عنّي.

"هو مذنب كخاطئ"، سمعته يكرر، "نعم سيدتي، نعرف أنه طالب جامعي ونعرف أنه يحصل على شهادة في الخداع. من الواضح أنك لا تعرفين شيئاً عن حياته الغادرة. ليرحمه الله"، وأعطاني الهاتف.

"كيف حالك، ابني الغالي؟"، كانت أمي هادئة وغير منزعجة، "كنا قلقين جداً منذ اختفيت. لماذا اعتقلوك؟ أين أنت الآن؟".

جاهدت لأحافظ على هدوئي. لم أستطع التلفظ بأي كلمة. شعرت أن هناك سباقاً بين الكلمات التي تندفع إلى فمي والدموع التي ستنهمر على وجي. لم أستطع البكاء.

"أنا بخير، ماما، لا تقلقي".

"نحن قلقون، بحثت عنك في كل مكان. أبحث عنك منذ خمسة أشهر. أين أنت الآن؟".

"قلت لك لا أستطيع التحدث عن ذلك. لكن أنا بخير".

لم أعرف إلى أين يمكن أن تؤدي هذه المحادثة. فكرت أيضاً أنها ربما تكون المرة الأخيرة التي أسمع فيها صوت أمي. لم أعرف ماذا عليّ أن أقول.

كان ناصر لا يزال واقفاً أمام المكتب الآخر. تابع المحقق محاولة الاتصال وهو يقول إنه لم يكن هناك من يجيب. تمنيت أن أحداً لم يجبْ على هاتفي. لكن لا؛ أردت أن أسمع صوت أمي.

"ماما، يجب أن أقول لك شيئاً"، قررت أن أخبرها عن وضعي بما أنني قد لا أكون قادراً على التحدث إليها مرة ثانية.

"قل لي، لا يهم ما هو الشيء، سوف نهتم به. أنا فقط لا أريدك أن تقلق بشأننا".

"ماما، حوكمت الشهر الماضي".

”ذلك شيء جيد، أليس كذلك؟“.
”أخشى أنه ليس كذلك“، ترددت للحظة، ”حُكم عليّ بالموت“.
”ذاك هراء. بأي جرم؟ أنت ابني وأنت تنتمي إليّ. لا يمكنهم أن يخطفوك مني“.
”يجب أن تصدّق المحكمة العليا على العقوبة قبل تنفيذها. ربما يكون لدينا بعض الحظ هناك“.
”ذلك يكفي“، أمسك المحقق الهاتف وأغلق الخط.
استغرق الأمر مني ثانية لأدرك أنهم لم يكونوا قادرين على الاتصال بأي شخص من عائلة ناصر.
وضعنا عُصباتنا وخرجنا من الغرفة. وقف ناصر خلفي في هذه المرة. وضع ذقنه على كتفي وهمس في أذني: ”أُعدم شقيقي الشهر الماضي“.

التروتسكي

كان بالتأكيد السجين صاحب أكثر وجهٍ حليق، والأفضل هنداماً، والأكثر ارتياحاً الذي دخل زنزانتنا على الإطلاق. شكر الحراس الثلاثة بلغة رسمية جداً وهم يغلقون الباب خلفه.

"أعددت تقريراً للتو"، قال وهو يتحدث باتهام عالٍ ربما ليغطي على ضحكات السخرية التي أطلقها الحراس خلف الباب، "أعددت تقريراً للتو"، كرر، "ضد الاعتقالات غير القانونية والمحاكمات المعجّلة".

وضع حقيبته الصغيرة، وعدّل سترته العاجية الغالية ممسداً إياها فوق سرواله المكوي جيداً.

"ستنتهي هذه الفظاعة كلها قريباً جداً".

لم تكن بشرته الشاحبة، وشعره البني، وشاربه الأشقر تقريباً، وعيناه البندقيتان، هي ما أعطته مظهر الأجنبي فقط، وإنما هيئته والطريقة التي تحدث بها. استخدم كل التعابير المناسبة والجمل الصحيحة لكن بإيماءات وتراكيب غامضة.

خلع سترته وبحث عن مكان ليعلقها فيه. أخذتها منه، وطويتها بعناية، وأرجعتها إليه لأفهمه كم المساحة نفيسة في زنزانتنا المزدحمة.

"هل تريد أن تغير ثيابك؟"، سألته.

"نعم، يبدو ذلك جيداً"، أجاب بتحفظ، "المكان مزدحم هنا"، أضاف كأنه لاحظ الازدحام للتو.

نظر حوله وهو يفتح حقيبته الصغيرة المعدة لزيارة قصيرة ويتناول زوجاً من السراويل القطنية الداخلية. تساءل، كما أفترض، أين كان يفترض به أن يبدل ثيابه. لم يعتبر أحدٌ أن دخول سجين جديد هو حدث يستحق الكثير من التأمل. استأنف معظم الأشخاص في الزنزانة روتينهم اليومي، سواء التجوال الذي كان يصبح أصعب من ركوب حافلة المدينة في ساعة الازدحام، أو القراءة في زاوية ما، أو التحديق في السقف دون هدف، محاولين ألا يستنشقوا الهواء الثقيل.

بدّل سرواله ووضع بدلته المطوية في الحقيبة. وضعتها فوق حقائب الآخرين المتسخة.

"المكان مزدحم هنا"، كرر بهمس. ربما كان يهمس لنفسه أو لي.

"أنت رقم 103"، قلت له، "كلما زاد العدد، زاد المرح"، أضفت في محاولة مربكة لجعله يشعر أنه مرحبٌ به.

وجد مساحة صغيرة ليجلس، لكن بعد بضع دقائق فقط فُتح الباب وطلب منه الحارس أن ينهض.

"هيه أنت، البريطاني، اقترب من الباب".

"لست بريطانياً"، صاح، "أرفض أن تُرهبني أنت أو أي سلطة أخرى في هذا السجن".

"أغلق فمك اللعين وتعال"، صاح الحارس، "كل من تلتقيه قناة BBC يكون عميلاً بريطانياً. يجب أن يبتلع معلموك حقيقة أن إمبراطوريتهم لم تعد موجودة. أي حالٍ مؤسفة هذه، الوطن العظيم يعتمد الآن على هؤلاء الحمقى المثيرين للشفقة".

ظهر خمسة حراس آخرون أمام الباب فجأة.

"إنه هو"، قال الحارس الأول وهو يشير إلى السجين الجديد.

"هل يتكلم الفارسية؟"، سأل حارس آخر بسخرية.

"أنا أتحدث أربع لغات مختلفة بطلاقة كلغتي الأم. وبلغتي الأم نفسها، ملأت شكوى ضدك وضد معلميك".

”إنه يتحدث الفارسية“، قال حارس آخر منضماً إلى الحديث، ”إذاً، أنت تتحدث إلى أسيادك كلٌّ بلغته. هذا حقاً أمر رائع. ظننا أنك تتحدث الإنكليزية فقط. تحتاج CIA إلى عملاء أكثر من أمثالك“.
”أرفض التحدث إليك. سأتحدث إلى أسيادك وإلى المسؤولين الأعلى في مكتب المدعي فقط. عليكم أن تبدؤوا البحث عن أعمال أخرى لأنكم فشلتم في هذا العمل على نحو مريع“.
دخل الحارس الأول وصفعه على وجهه بلمح البصر بقوة كبيرة جعلته يسقط أرضاً ويضرب عظم خده بالسجادة الرقيقة الخشنة.
”يمكنك الآن أن تذهب وتقدم شكوى. كلنا آذان صاغية“.
أغلق الحراس الباب وضحكوا بخشونة وهم يبتعدون.
بقي القادم الجديد غير مبالٍ. استجمع نفسه، وصاح بتحدٍّ من وراء الباب المغلق: ”سنرى!“.
بدا الجميع الآن مهتمين بقضيته. لم يرَ أحدٌ من قبل نوبة الحراسة كلها تجتمع أمام الغرفة لتعنيف فريستهم الأخيرة. كنا جميعاً في عيونهم عملاء لبريطانيا وCIA. لم يكن هناك جديد في هذا. لكن لماذا أثار هذا الشخص كل هذا الفضول؟ عادة ما كانوا يجلبون المطلوبين النوعيين إلى العنبر النظامي مباشرة بعد الاعتقال. كان هناك عدد من الأسئلة دون إجابات، سيجيب عنها قريباً.
شهد بعد اعتقاله قبل أربعة شهور أمثلة لا تعد ولا تحصى من التعذيب والإعدامات. ولأنه كان عضواً في اللجنة المركزية في أحد الحزبين التروتسكيين، الذي كان حتى ذلك الوقت يدافع عن النظام الثوري، أُطلق سراحه بعد شهرين. قليلون جداً هم السجناء الذين خرجوا من السجن في ذاك الوقت، وتحدثوا عن الرعب الذي تركوه وراءهم. حدد مكتب BBC الفارسي مكانه بطريقة ما، وأجروا معه مقابلة لثلاثين دقيقة تحدث فيها عن الأوضاع في السجون الإيرانية.
ألقى في مقابلته اللوم بالفظائع التي ترتكب في ”إيفين“ على مجموعة عسكرية منشقة اختطفت الثورة. قال لقناة BBC إن هذه المجموعة التي أسست عهد الإرهاب بقيادة مدعي الثورة الرئيسي، ولوثت سمعة النظام. ولا يمكن لهذا الانحراف أن يدوم. لن تقاوم هذه المجموعة وأزلامها حكم القانون وصوت حكم القائد الأعلى. ستنتصر الأخلاق في النهاية، قال في مقابلته، وسيتحمل هؤلاء المسؤولون عن تلويث الروح النقية للثورة مسؤولية جرائمهم. هكذا ظن.
أصدرت محكمة الثورة أمراً باعتقاله بعد المقابلة. وبدلاً من أن يدفع للمهربين ليهربوه خارج البلد زار محامياً في الصباح التالي لصدور الأمر، وقال له إنه ينوي تسليم نفسه. قال إنه وثّق كل الأمثلة التي ذكرها في مقابلته مع BBC وسيقدمها إلى المحكمة. لم يكن هناك ما يعتذر عنه. هو الشخص الوحيد فقط الذي يعمل على إنقاذ الثورة من طيش البعض. حزم حقيبة صغيرة وارتدى بدلته اللطيفة واتجه إلى ”إيفين“، وهو ربما الشخص الوحيد الذي فعل ذلك بإرادته في تاريخ السجن كله.
سلّانا في البداية تماماً، كما لا بد أنه سلّى المحكمة والمدعي والحراس. فكرت كم هو مدهش أن يؤمن شخص بنظريته بهذا العمق كي يرغب في وضعها في هذا الاختبار الفظي: الدخول إلى أحد أكثر السجون رعباً على سطح الكوكب وهو يأمل أنه سيخرج دون أذى.
بعد النظر في قضيته مبدئياً، نُقل إلى زنزانتنا دون أن يخضع للتحقيق. وبعد بضعة أيام، أتى حاج آغا، مدعي الثورة الرئيسي، ليرى كيف كان يبدو. فتح الفتحة الضيقة ونادى باسمه. كانت نبرة توركيمادا[15] الأصلية المألوفة لنا. الصوت الناعم الذي يناقض تماماً مظهره القاسي. كان الصوت مألوفاً لنا لأنه الصوت الذي سمعناه خلف الكاميرات التي سجلت شعيرة الاعترافات العامة: يسأل المتهم أسئلة عن جرائمه ويسأله التوبة وتوسل الرحمة. فتح الحارس الباب وظهر المحقق الكبير عند العتبة.

15 توماس دي توركيمادا: راهب إسباني دومينيكاني عاش في القرن الخامس عشر للميلاد، وهو أول محقق عام في محاكم التفتيش في ذلك الوقت.

"كيف يعاملونك هنا؟"، وجه سؤاله إلى التروتسكي، "هل هناك ما يجب أن تخبر BBC عنه؟".

لم يبدُ حاج آغا شخصاً يقلقه المتهم. هو أيضاً أراد أن يرى من كان هذا الشخص. كان وجه المدعي دوماً من الصعب أن يُقرأ، وزاد ذلك هذه المرة. كان يظهر الاحتقار والتهكم والسخرية في آنٍ، ولكن ليس الكثير من الغضب.

"أنت فقط بحاجة أن تنتظر دورك كي يتم التحقيق معك"، قال بهدوء، "المكان مزدحم حقاً هنا كما قلت في تقريرك لأسيادك بالضبط. أنت عليك أن تنتظر فقط. قد يأخذ هذا وقتاً".

"تعرفون"، أضاف وهو يستدير ناحيتنا، "أن يجري تجاهلك هو أسوأ أنواع التعذيب بالنسبة إلى مخلوق عصابي. الوهم قتل الهرة".

كنت مندهشاً، ليس لأنها كانت المرة الأولى التي أسمعه فيها يستخدم مصطلح تعذيب فقط، لكن لأنه عرف أيضاً معنى كلمة عصابي. تأرجحت فكرتي عنه على الدوام بين عنيفٍ مصابٍ بجنون العظمة، ومفكر إستراتيجي داهية. سأفهم لاحقاً أنه كان الاثنين.

مرت أسابيع دون أن يأتي أحد لرؤية التروتسكي. بعد أن تجاوزنا دهشتنا الأولى شيئاً فشيئاً، أصبح لديه أصدقاء في الزنزانة. أصرّ أنه كان ضحية لمؤامرة كبرى من CIA، وقدم أنموذجاً عن تهمه. صدّق البعض نظريته، وبقي البعض مشككاً. وقفت بثبات مع المجموعة الأخيرة خاصة بعد اليوم الذي سمعته يحكي فيه قصة تورط CIA المباشر في تخريب مؤتمر الحزب التروتسكي الأول في "طهران بوليتكنيك"16 بعد الثورة.

16 تحوّل اسمها إلى "جامعة أمير كبير للتكنولوجيا" وقد أُسست عام 1956.

"حصلنا على دليل مؤكد"، قال لمجموعة من الشباب المرعوبين في الغرفة، "أن CIA هي خططت ونفذتها".

اسم جامعتي جعلني أكثر فضولاً لسماعه.

"نعرف متى التقى عملاؤهم وأين"، تابع، "دفعوا لكل فرد ما يعادل مئة وخمسين دولاراً أميركياً لنشر شائعات عن إلغاء الاجتماع. عندما لم ينجح الأمر، أضافوا مئتي دولار أخرى إلى أجرهم لجعلهم يهاجمون أعضاء الحزب المدعوين لحضور الاجتماع".

أخبرته القصة الحقيقية التي حدثت في ذلك اليوم، والتي لم تكن مؤامرة تجسس. لم يصدقني.

عاد آلاف المغتربين إلى البلد بعد انتصار الثورة في ربيع 1979؛ رحل الشاه، حُلّ جهاز "السافاك" السيئ السمعة، ظهرت نشرات جديدة من الكتب والصحف القديمة التي كانت ممنوعة، ازدهرت الأحزاب السياسية. كان بين هؤلاء الذين عادوا مئات من التروتسكيين الشباب الذين قضوا عمراً في أوروبا والولايات المتحدة أو الذين قضوا عقوداً في الخارج. قدمت الثورة إلى عدد منهم الفرصة الأولى لإنهاء حياتهم في المنفى والعودة إلى الوطن، المكان الذي سيجدون أنفسهم فيه مبعدين أكثر حتى من المكان الذي تركوه خلفهم.

عندما أعيد افتتاح الجامعات بعد الثورة مباشرة، سُمح للجميع أن يدخلوا الحرم الجامعي بخلاف الماضي عندما كان يمكن فقط للطلاب المسجلين، والهيئة التدريسية، والعاملين في الإدارة دخول مباني الحرم. أصبحت الجامعة بيت الجماهير. وبذلك، صرنا نجد هؤلاء الشباب "العائدين من الدول الأجنبية"، كما كنا ندعوهم. النساء مستلقيات على العشب يأخذن حماماً شمسياً في ساحة الجامعة،

الرجال والنساء يدردشون بحميمية في حرم الجامعة، والسير وهم يمسكون بأيدي بعضهم بعضاً كأن الثورة تضمن لهم حرية إظهار الانحلال، كما فكرنا. كنا نحن الذين بقينا في البلد وكافحنا من أجل الثورة مستائين من هؤلاء الكوزموبوليتانيين المتغطرسين الذين عادوا إلى الوطن بعد أن حل الأمان فقط. فكرنا أنهم ينتهكون مجمل الأخلاقيات الثورية التي كنا نتشاركها مع الإخوة المسلمين وحميناها بحزم طوال كل تلك السنوات. أزعج سلوكهم المتساهل أحاسيسنا الثورية الجادة. وكنا نخشى أن يهمش سلوكهم المتساهل اليسار المحلي أكثر ويبعده عن البيئة السياسية التي تدور فيها صراعات السلطة بعد الثورة.

لامت كل الفئات المتنافسة في حرم الجامعات التروتسكيين على تلويث المبادئ الأخلاقية القديمة التي ساعدت في تقدم الحركة مع أولويات شديدة. وجدناهم ''متسممين بالغرب'' جداً، وسريعي التأثر بالثقافات الغربية التي ضربت ثقافتنا، ومبتعدين عن، أو الأسوأ يعادون، أعرافنا.

لذا، عندما وصلت الأخبار عن أن ''حزب العمل الاشتراكي''، المنظمة التروتسكية الأساسية، سيعقد أول مؤتمر له في حرم جامعتنا، مهد الحركة الطلابية، بيت الشهداء الذين لا يعدون من اليسار، لم يكن هناك شك لدى أحد أنه يجب الدفاع عن ''طهران بوليتكنيك''.

أخبرني محمود، صديقي الذي كنت أثق بحكمه على الدوام، أنه عرف مموّل الحدث، وهو أستاذ جامعي في الهندسة المدنية متعاطف مع التروتسكية، ويجب أن يبقى اسمه سراً. لذا، دخلنا، أنا ومحمود ورفيق آخر لنا، مكتبه فجأة قبل يومين من الحدث.

''لا يمكنك أن تعقد هذا الاجتماع في حرم هذه الجامعة''، قال له الكورس المؤلف من ثلاثتنا.

''لم لا؟ أليس هذا ما قمنا بالثورة من أجله؟''، أجاب الأستاذ بلطف.

''لا، بالتأكيد، لا''.

''لكن ألا نريد أن نكون أحراراً؟''.

''هذه ليست حرية. هذا فسق''.

''من يحدد حدود الحرية؟''.

''لسنا هنا من أجل نقاش فلسفي. نريد أن نحذرك فقط: إما أن تلغي الاجتماع وإما أننا لن نسمح للتروتسكيين بدخول حرم جامعتنا. مسؤولية ما سيحدث تقع مباشرة على عاتقك''.

اتفقنا، نحن الثلاثة، أن علينا إيصال الرسالة بوضوح كبير. كنا واثقين أن المؤتمر لن يعقد. وكنا مخطئين.

كان يفترض أن يبدأ الاجتماع الجمعة في العاشرة صباحاً. اتصلنا بكل المنظمات اليسارية المختلفة وطلبنا منهم أن يحضروا بكل قوتهم إلى حرم الجامعة حوالى الثامنة لإغلاق كل البوابات بالسلاسل والأقفال. بحلول العاشرة، كان مئات من المتعاطفين مع التروتسكيين يتجمعون في الخارج يحاولون أن يخترقوا الحرم. في الداخل، بالإضافة إلى السلاسل والأقفال، كان هناك سلسلة بشرية من الرفاق مستعدين للدفاع ضد غزو ''الأجانب''.

في الداخل، كنا نصيح: ''لا للانحلال!''، وفي الخارج كانوا يصرخون: ''لا للستالينية!''.

وصلت الشرطة، وباستخدام مكبرات الصوت، دعوا الحشد المتفرج ألا يشترك في هذا القتال الشيوعي.

''من فضلكم ابتعدوا عنه''، سمعنا الصوت وسط صفارات الإنذار، ''هذه ليست معركتنا. دعوا الشيوعيون يقتلون بعضهم بعضاً''.

كان علينا حينئذ أن نختار بين التوسل للشرطة أو ابتلاع غرورنا والسماح للتروتسكيين بدخول الجامعة وعقد مؤتمرهم. اخترنا الخيار الثاني.

اجتمع المئات داخل الملعب الرياضي للاحتفال بالمؤتمر الأول لـ"حزب العمل الاشتراكي". اقتربت قيادة الحزب منا وطلبت هدنة. رفضنا. ظننا أنه كان هناك عدد من العمال في الحشد لم يكونوا هناك من أجل الحزب، وإنما من أجل النساء المغريات بالثياب المثيرة. "أنتم تجندون العمال بعرض أجساد النساء"، قال نيمات الفدائي دوماً لواحد من قادة الحزب.

"لكن ما هو اعتراضكم علينا؟".

"أنتم لستم جزءاً من الثورة، ولا يمكنكم أن تعودوا لحصد ثمارها الآن".

"سنعطيكم وقتاً أكثر لتخاطبوا جماهيركم. أخبروهم ما رأيكم بنا ودعونا نعقد اجتماعنا".

كان ذلك في الواقع عرضاً كريماً. قبلناه. لكن القبول كان أيضاً لحظة حقيقة مؤلمة لنا. لم يكن لدينا ما نقوله عنهم. لا يمكن أن تكون حقيقة كونهم حزباً تروتسكياً بحد ذاتها محط جدل. وهم لم يخفوا أبداً تلك الحقيقة. طلبنا خمسين دقيقة لنعدّ بياناً.

عاد خمسة منا إلى مكتب منظمتنا الطلابية وحاولوا أن يعدوا البيان معاً. لم نفلح. قال نيمات إن التروتسكيين لم يدعموا معارضي الحرب ضد فيتنام في الولايات المتحدة. لم يكن هناك وقت للتأكد من الأمر. قال آخر إنهم كانوا معارضين للثورة في أحد البلدان، وهكذا هم كانوا منافقين في دعمهم ثورتنا. كانوا ببساطة إصلاحيين. كانوا مع تحرر المرأة دون صراعات طبقية... إلى آخره، إلى آخره. كان لدينا بيان.

وقف نيمات، المتحدث باسمنا، والمنتقد الأكثر صخباً، خلف الميكروفون وقرأ بياننا نصف الجاهز. وارتجل في النهاية.

"نطلب من كل هؤلاء الذين لم يكونوا واعين للنيات الحقيقية لمعادي الثورة هؤلاء أن ينضموا إلينا ويغادروا هذا الاجتماع الآن".

لم يتحرك أحد.

أخفقنا، وغضب نيمات. أمسك راية طويلة كانت معلقة في أعلى الصالة ومزقها من السقف. حاولوا أن يوقفوه. وكان هذا ما أراده: شجار. تطايرت القبضات في الهواء وهزت الصيحات التي تنادي بالموت لهذا الطرف وذاك المبنى. وسط الشجار، والتدافع والتضارب، هربت قيادة الحزب خارج المبنى ولم يعقد المؤتمر. كُسر أنف نيمات في ذاك اليوم.

أُعدِم نيمات بعد سنة من ذلك تقريباً، في الوقت نفسه الذي اعتقل فيه صديقنا في الإقامة، التروتسكي، للمرة الأولى.

"هل تتوقع مني أن أصدق هذه القصة السخيفة؟"، سألني.

"لا أتوقع منك شيئاً. بالنسبة إلي هذا عار أكبر من أن أكون مأجوراً لـ CIA. لو كان الأمر كما تقول، كانت CIA دفعت لنا على الأقل".

"كنتَ مخدوعاً ككثيرين، يا صديقي. كنتَ شاباً بلا خبرة وحوّلتك CIA إلى أداة جاهلة تنفذ إرادتها".

لم يكن لدي رغبة في متابعة الحديث. كنت بحاجة فقط أن أخرج تلك التجربة من صدري وأحرر روحي من حماستها الثورية الطفولية السابقة.

بعد شهرين، وحتى اليوم الذي غادرت فيه الغرفة لحضور محاكمتي الثانية، لم يكن قد استُدعي للتحقيق. بدا أن ملفه ضاع بين الملفات الكثيرة للمتهمين بمعاداة الثورة. أرادوه أن يشعر أنه منسي.

وكان كذلك.

أيدت المحاكمة الثانية عقوبتي بالموت. نُقلت إلى زنزانة أخرى في انتظار تنفيذ العقوبة.

رأيته، بعد ثلاث سنوات تقريباً، في قاعة الزيارات في سجن إيفين، بينما كنت أسير لأقف خلف الستارة وأنتظر دوري. بدا نحيلاً بلحية بنية فاتحة؟ كان لديه زيارة خاصة مع زوجته الأميركية. تحدث إليها بالفارسية مع بعض العبارات بالإنكليزية. تصدّع صوته وبدا ضعيفاً. بعد بضع دقائق أعادوه إلى المكان الذي كنت أقف فيه. كنت قد فقدت نصف وزني السابق في ذلك الوقت. كانت خطواته مهزوزة وعيونه دامعة. لم يتعرف إليّ.

السمّ

لم يرغب أحد أبداً أن يسمع اسمه متبوعاً بعبارة "اجمع أغراضك واخرج". ففي ذاك الوقت، عنت تلك العبارة واحداً من أمرين فقط: إما أنهم ينقلونك إلى زنزانة أخرى، وإما، بالنسبة إلى هؤلاء المحكومين بالموت، يأخذونك لمواجهة فريق الإعدام. كلما نادى الحراس باسمي متبوعاً بالعبارة المرعبة، يخيّم صمت ثقيل على الزنزانة. أجبرتني الدعوة أيضاً على قول كلماتي الأخيرة لرفاقي في الزنزانة. غالباً ما فكرت ماذا يجب أن تكون كلماتي الأخيرة. أعددتها في ذهني لكنني لم أقل أبداً ما خططت لقوله في المرات السبع التي حدث فيها هذا خلال اعتقالي.

نادى الحارس باسمي هذه المرة، في العنبر 4، الزنزانة رقم 47، بعد سنة من محاكمتي، وطلب مني أن أجمع أغراضي. أمسكت حقيبتي لكنني تركت البطانية التي أرسلتها أمي لي من المنزل معتقداً أنني لن أحتاج إلى استخدامها. ترك الحارس الباب مفتوحاً ووقفت أمامه أفكر ماذا يفترض بي أن أقول. تبادرت إلى ذهني كلماتٌ لحافظ في اللحظة نفسها. تلوتها بصوت عالٍ:

لن أترك ما أرغب فيه حتى يصبح حقيقة دون رجعة،
حتى تصل روحي إلى السماء، ويدفن جسدي في التراب.
حين أموت وأدفن، افتحوا قبري وشاهدوا
الدخان يتصاعد من كفني، ستبقى ناري الداخلية حية تحت الكفن.

لم يقل أحد شيئاً. لم أغادر إلى المشنقة وإنما لأقضي عاماً آخر في زنزانة مع رفاقي السجناء المحكومين بالإعدام تدعى تلطيفاً "الكارنتينا[17]"، مع علي وخمسة وثمانين آخرين سيعدم ستّون منهم في النهاية.

17 الكارنتينا: الحجر الصحي.

حين سار عليّ شارداً على مهل، تحولت الهالات حول عينيه إلى الأغمق تدريجياً. توقف أمام النافذة المسدودة بالقضبان ولهث للحصول على هواء نظيف. غرقت عيناه عميقاً بين حاجبيه السوداوين وخديه الواسعين المشعرين. غطت لحيته كامل وجهه، تماماً من أسفل عينيه حتى أعلى عظم ترقوته، حيث أعطت للجلد بعض المساحة للتنفس قبل أن تلتقي الشعر المجعد الذي غطى صدره.

عندما بدأت ركبتاه تتعثران ولم تعودا قادرتين أكثر على حمل جسده الثقيل، جلس في إحدى الزوايا مستعداً، كما يقول، لإطلاق سمّه. أمسك قطعة من الورق وبدأ يكتب قصيدة جديدة.

من دونك،
القفص مقفر.
في السماء،
فوق مقابر الأغنيات،
دموع القبّرات تفيض.
مخالب الثأر القاسية
انتزعتك من أحضاننا،
خافوا أن الشرارات المنطلقة من شفتيك،
وأنت تهمس في أذن محبوبك قصيدة
في مديح الربيع،

قد تشعل النار في جذور الخريف.
من نظرتي المشتاقة، طار عصفور بعيداً.
احذروا فعينيّ
– كل نافذة مفتوحة واسعة، مقابل الأفق –
من بزوغ كل فجر حتى حزن الليل الأكثر ظلاماً،
لن ترمشا.

طوى الورقة بعجالة ودسها في ثيابه الداخلية. تمكن من إخفاء قطعة الورق، لكن لم يكن من السهل، في زنزانة مزدحمة، إخفاء تعبير النشوة الذي ظهر على وجهه حين دخلت القصائد روحه. آمن جدياً أن تلك الكلمات كانت تستحوذ عليه، محوّلة مهمة التنفس البسيطة إلى محنة تعذيب.

استُخلص السم الآن. زالت آثار المحنة عن وجهه. عاد أكثر شباباً وأخف. اختلط بالآخرين محاولاً أن يبدو مثل نفسه العادية ككل السجناء المحكومين بالموت. غير أن السم خرج هذه المرة، لكن عبء الكلمات لم يذهب. بقيت شفتاه مشدودتين، وفكه واهناً، ما جعل ابتهاجه الذي كان سهلاً في العادة مضجراً. كان يخشى أنه سينهار بعد إعدام أسد، طريقه السري إلى عالم الكلمات.

أُخرِج أسد قبل بضع ساعات فقط. وقد كتب عبارات تعبّر عن احترامه الشديد له بالفعل. شكّ أن هذه القصيدة ستكون قصيدته الأخيرة، بما أن أسد كان من أخبره في الأصل أن تلك الكلمات في عقله كانت سامة وأن عليه أن "يقذفها خارجاً" على قطعة من الورق. "سوف تخنقك إن لم تفعل". كان أسد الوحيد الذي أقنعه بأن هناك في جسده الضخم، داخل ذاك الصدر المشعر، قلبٌ رقيق يحمل ندبات لا تنتهي. مثل قاع النهر الذي تعلق فيه كلماته منتظرة الفرصة لتطفو. إذا بقيت هناك، ستركد وتتعفن متحولة إلى سم، ثم تجري في دمه وتسبب له الألم. عاد إلى زاويته منهكاً غير متحمس لاصطناع دور الاجتماعي. أخرج قطعة الورق من ثيابه الداخلية وقرأ القصيدة مرة أخرى. وخز جسده ارتياحٌ شيطاني، لأن أسد لم يكن موجوداً لينتقد قصيدته. قرأ القصيدة بحزن للمرة الأخيرة وحفظها. لم يعرف ماذا كان أسد ليقول عن قصيدة مدحه، فكرة حمقاء. لم تكن الفكرة مستحيلة بالطبع" هو نفسه فكر كيف سيشعر الآخر وماذا سيقولون في قصيدة مدحه الخاصة. كتب في الفراغ الصغير في أعلى الورقة: "إلى أسد". ثم مزقها بعناية إلى مئات القطع وأغرقها في المرحاض.

بدأ الآخرون الوقت الكسول ما بعد الظهر مستلقين على الأرض يحدقون إلى السقف بعيون مفتوحة. تظاهر البعض أنه نائم، والبعض كان كذلك فعلاً، ما جعل من الأسهل عليه أن يعود من رحلته في قاع نهر الكلمات المتعرج العميق في قلبه وكل تلك الطرق الخيالية التي اعتاد أسد أن يستعملها لوصف نوباته الشعرية.

كان هناك ثمانون شخصاً في الزنزانة. قسّم أسد السجناء في زنزانة المحكومين بالإعدام إلى ثلاث مجموعات: الذين ناموا بعد الظهيرة، والذين كانوا يتظاهرون بالنوم، والآخرين الذين أبقوا عيونهم مفتوحة. مثلت المجموعة الأولى أولئك الذين ظنوا أنه لا يمكن أن يحدث لهم هذا أبداً ولم يستخدموا حتى كلمة "إعدام". أمِلَ أفراد المجموعة الثانية أنهم لن يعدموا، لكنهم فكروا في الأمر على أنه احتمال. والمجموعة الأخيرة هم الذين عرفوا أنهم سيعدمون. بما أن عليّ لم يستطع أبداً أن يضع نفسه في أي من هذه المجموعات، جاء بمجموعة رابعة، المترددين، كان هو العضو الوحيد فيها. بالطبع، يمكن للشخص أن يتجاهل علم النفس تماماً ويبحث عن السبب الحقيقي وراء كسله في الحرارة العالية لأوقات بعد الظهيرة المضجرة تلك. كان أسد بالتأكيد عضواً ملتزماً وله صوت في المجموعة الثالثة، رافضاً "التفاؤل الأحمق"، ومقتنعاً أنهم جميعاً سيعدمون (أثبت التاريخ أن أسد

كان محقاً مع استثناء واحد. أسد نفسه لم يُعدم رغم أن أحداً لم يعرف ذلك عندما أخرجوه من الزنزانة. نقلوه إلى سجن آخر، وليس إلى الحياة الأخرى).

تزوج علي في سن مبكرة، وأصبح أباً لابن احتفل للتو بعيد ميلاده الرابع، مثل عيد ميلاده الثالث، من دون أبيه. تلقى أخيراً صورة لابنه: يرتدي سترة وقبعة رعاة البقر اللاتينية، ويضغط لعبة غيتار إلى صدره. قدّر عليّ بعمق النظرة المهيبة على وجه الفتى، التي رآها كأنه كان ينظر إلى المستقبل، إلى الوقت الذي سينتقم فيه لدماء أبيه. كان عليّ مقتنعاً أن الصورة أرسلت إليه لتوصل هذه الرسالة الحاذقة. لا يمكن أن تكون الصورة فقط أن الفتى يعرض هدايا عيد ميلاده ببساطة. لا بد أن الفتى يعرف. فوجئ عليّ بأن السلطات سمحت لتلك الصورة بالمرور، وفكر أن زوجته كانت محظوظة لأنها لم تُعتقل لتمريرها مثل هذه الرسالة الجريئة للانتقام. ألم يتمكنوا من رؤية التلميح الذي حملته الصورة مشيرة إلى المذبحة التي ارتكبت في ملعب كرة القدم بعد الانقلاب العسكري في تشيلي عام 1973؟ الغيتار، القبعة، إشارة إلى فيكتور جارا الذي غنى وعزف على غيتاره في الملعب حتى قطعوا لسانه وشوهوا يديه؟ ألم يتمكنوا من رؤية كم كان ابنه حازماً في الاستعداد للصورة؟ رغم أن السلطات، إلى جانب رفاقه الآخرين في الزنزانة، أخفقوا في رؤية شفافية الرسالة في الصورة، كان سعيداً أنهم كانوا عمياناً جداً، بالنسبة إلى الصورة التي قدمت إليه عزاء لم يستطع أحد في تلك الزنزانة تقديمه.

دخل قبل بضعة أيام، بعد أن استلم الصورة، في شعيرة تحريره لسمّ الكلمات. غير أن رغبته في الانتقام تخطت في تلك القصيدة جمالية شعره المألوفة. ختم قصيدته بالسطور التالية:

بنبرة عالية،
لا تعزف أغاني الفراق.
بنبرة منخفضة،
اركب خيول الحرية.
في أحد الأيام، ستطير يداك الصغيرتان،
من أوتار الغيتار،
أعلى من السماء القاسية،
لتسحب الزناد الأخير للانعتاق.

أرضته فكرة أن ابنه سيحرم آسريه من الحياة الهادئة. جعل هذا موته أمراً يمكن تحمله.

بدأ يسير ويركل الأجساد المتعرقة لرفاقه مرهقاً من صمت بعد الظهر. أعاد هذه الأرواح الساكنة، من أي مكان كانت فيه في هذه الساعات القليلة، إلى زنزانة الإعدام. نهض هؤلاء الذين ركلهم نصف نائمين ومكرهين على أن يكونوا نصف يقظين. تمطوا بأقوى ما استطاعوا وهم يستندون إلى الجدار يناضلون كي يستعيدوا وعيهم. كان الغضب هو إحساسهم الأول بعد نفض الخدر من رؤوسهم وأطرافهم. يمكن أن يغضبوا منه لكنهم لن يعبروا عن ذلك. لم يكن واضحاً هل ضبط النفس هذا بسبب حجمه أو مكانته المرموقة في منظمته، بما أنه تمتع باحترام كبير سمح له بتحديد شروط علاقته بالآخرين.

اختلط بالآخرين، ولعب ألعاباً سخيفة، ومرّر الوقت بالمحادثات. بدا أصغر وأكثر ارتياحاً. لمعت عيناه. عادت ابتسامته العريضة إلى شفتيه، كل العلامات الواضحة على أن السم تلاشى. كان أسد محقاً، عندما لا يكون هناك سم في قلبك، أنت لا تشعر بالألم. لكن قريباً ستبدأ الكلمات السامة بالتكون من جديد في قلبك. ابنِها، وتحيّن اللحظة لنفثها.

أُعدم عليّ بعد شهرين.

في حبّ "التِّرمُس"

لم يكن شاهين سجيناً سياسياً عادياً. بل شخصاً ناضل من أجل قضية وكان يدفع الثمن. لم يكن هناك للمطالبة بمكان في التاريخ كالعديد غيره. لا. اهتم بالأشياء الصغيرة، مثل تُرمسِهِ المزخرف والمصنوع من الفولاذ المقاوم للصدأ. نظر شاهين مباشرة في عينيّ بابتسامة حنينٍ كبيرة وهو يصب الشاي عديم اللون في فنجانٍ بلاستيكيٍّ أحمر. بدا أنه يحاول تذكّر شيء لكنه عاد وتمالك نفسه وأنهى صب الشاي دون أن يتلفظ بكلمة.

"هل تعلم أين كنت؟"، سأل بصوت منخفض وهو يعطيني الفنجان بحذر، "في شيكاغو"، تنهد دون أن ينتظر مني إجابة، "آخر مرة صببت فيها شيئاً من هذا التِّرمُس كانت في شيكاغو، في شقتي اللطيفة في واحدة من الضواحي العالية المطلة على البحيرة، كان هذا الصيف الماضي فقط. تعرف، فصول الصيف سيئة في شيكاغو، ليست مثل الشتاءات التي لا تحتمل، لكنها سيئة. يجب ألا تكون في الشوارع في كلا الفصلين ما لم يكن هناك قضية حياة أو موت. بالطبع، أنا أبالغ، لكن إذا سألت أي أميركي عن شيكاغو سيقول لك الأمر نفسه: مدينة عظيمة، طقس سيئ. يكون الجو معتدلاً في الداخل خلال الصيف، لكن في الخارج... تذوب نعال حذائك على الرصيف. أحببت أن أجلس في شرفتي الصغيرة الحارة، أضع هذا التُّرمس الرائع قربي وأسكب الجعة المبردة في كأس البيرة الألماني خاصتي... تعرف تلك الكؤوس السميكة التي لا تنكسر أبداً، حتى إن رميتها من الطابق الخمسين إلى الشارع. أرشفها ببطء وأراقب الحشد المجنون في الأسفل والبحيرة الهادئة خلفهم. أكره الجعّة الدافئة التي ليس لها طعم. أبقى هذا التّرمس الجعة لذيذة وباردة ليوم كامل. لم أستطع أن أشرب بسرعة. أقصد استطعت لكنني لم أستمتع بها أبداً. يجب أن يتناغم الشراب مع إيقاع حياتك: بطيء، وثابت، وشهواني. أوه يا ترمسي الجميل، كم أحبك. آه على الأماكن التي وُجدنا فيها معاً!".

حاول أن يضفي نبرة ساخرة على جملته الأخيرة لكنه لم ينجح. استطعت أن أرى دموعاً حقيقية في عينيه عندما أدار وجهه الجاد عني وصب الشاي للآخرين.

"لم أزعج نفسي أبداً في التفكير في الثمن"، تابع وهو يهمل صب الشاي، "لم يكن المال مشكلة يوماً. أردت أن أحصل على تِرمسٍ من النوع الأفضل في السوق. أردت أن أقضي صيفي الأخير في شيكاغو على الموضة. 'لا يمكنني أن أتحمل شراء شيء رخيص'، ذلك مثل أميركي"، أضاف كحاشية، "عندما كنت هناك، كان معظم أصدقائي أميركيين، فتعلمت لغتهم العامية على نحو جيد جداً. لذلك، يحب الجميع هنا دروس الإنكليزية التي أعطيها، لأنني لا أعلمهم الإنكليزية الأصلية الحية فقط، (بل) أجعلهم يشعرون كأنهم هناك، كيف يتواصلون، وليس كيف يتدبرون أمرهم فقط".

وضع يده على كتفي وهمس.

"ليس مثل دروس الإيطالية التي يعطيها"، أشار إلى غلام الذي قضى أكثر من عشر سنوات في إيطاليا واعتقل بسبب عضويته في حزب "رنجبران" الماوي.

"لا أعرف الكثير عن الإيطالية، لكنني أقول لك: لم يختلط هذا الشاب بالإيطاليين أبداً. أين كنا؟ أوه، نعم، الثمن. دفعت تسعاً وتسعين دولاراً من أجل هذا الجميل الصغير. فقط المس جسده الناعم، انظر إلى تقوساته، وكيف تستقر رقبته بلطف فوق صندوقه".

أمسك يدي ووجهها أولاً إلى الأعلى ثم إلى الأسفل على الترمس. "أليس رائعاً؟".

قطع الصوت الحزين لآخر دفقة من الشاي غزله القصير.

”دعنا نذهب في نزهة قصيرة حول البحيرة“، ابتسم وهو يسمح لأسنانه البيضاء الكبيرة أن تغزو وجهه سريعاً. وضع يده في جيب بيجامته الحريرية اللامعة، الذكرى الأخرى من أميركا. ثم بدأ سيره اليومي في ما بعد الظهر. بعد دورة قصيرة، عاد ليرتدي الجوارب في قدميه الصبيانيتين.

كان شاهين رجلاً في أواخر العشرينات. عاش في أميركا أكثر من عشر سنوات (فكرت أحياناً أنه ما زال يعيش هناك). له بشرة شاحبة، وشعر بنيّ منحسر إلى للخلف، وشارب بني خفيف. كان والداه من فومن، البلدة الصغيرة على شواطئ قزوين. اتضح من النوافذ الصغيرة التي فتحها على تاريخه أنه ينحدر من أسرة ثرية. لم تترك لغة جسده وهوسه بـ”المتع الصغيرة في الحياة“ و”الترتيب الصحيح للأشياء“ مجالاً للشك في ماضيه المميز، دون الاعتراف حتى بذلك. بطبيعة الحال، هو لم يتصرف أبداً كأرستقراطي. لم يكن متحفظاً ولا متكبراً، كما يتوقع الفرد، بل كان ودوداً ومتحمساً.

كانت نزهاته في ما بعد الظهر جولات تفتيش، يراقب فيها بعناية كيف تنظّم الأشياء في الزنزانة، يرتب الفوضى، أو يطلب من الآخرين أن يكونوا أكثر مسؤولية عن أغراضهم. يقترب من أي شخص يرتدي قميصاً رثاً مصفراً بفعل العرق وقذارة سنوات السجن ويطلب منه أن يرتدي لباساً ألطف.

”رفقاً بعيوننا“، يقول متوسلاً، ”ماذا حدث لحسك الجمالي؟“.

شعر أنه مسؤول عن ”تجميل“ زنزانتنا لأنه اعتقد في سره أن البقية لا يملكون حساً جمالياً. وأخذ على عاتقه مهمة أن يحافظ، كما اعتاد أن يصف الأمر، ”على الحد الأدنى من الأناقة المطلوبة لشخص متوسط الثقافة“.

اعتبر معظم الآخرين هوسه بالأناقة مرضاً عصبياً. لماذا يجب أن يهتم أحد بأناقة وجمال زنزانة المحكومين بالموت اللعينة؟

لم يعبّر أي من السجناء الثمانين عن علامات الخوف أو الذعر علناً. وشاهين على نحو خاص بدا بعيداً عن تجربته كنزيل في زنزانة المحكومين بالموت. هل كانت سذاجته، أو تفاؤله الحقيقي، أو إنكاره للواقع، ما جعله مختلفاً جداً عن الآخرين؟ ألم يكن يفهم حجم ما يمر به مع الآخرين؟ هل كان على وشك الانهيار يوماً ما في يأس مظلم باعث على الشلل؟

يستيقظ شاهين كل يوم مع أفكار جديدة عن ItalMode[18]، القوة الدافعة لمهمته الجمالية. أراد من الجميع أن يطووا بطانياتهم بطريقة معينة ويرتبوها في نمط يشبه كرسي La-Z-Boy[19] في أحد الأيام، وفي يوم آخر مثل مقعد، وأحياناً مثل كنبة. ”الحياة دون ألوان“، ذكّر الجميع، ”هي أبيض وأسود فقط. ربما تظنون أنني أذكركم بما هو واضح فقط، لكن فكروا في المعنى الخفي لهذه العبارة التي تبدو زائدة عن الحاجة“.

18 ItalMode: مشتقة من الكلمة الإنكليزية vital وترتبط بالمفهوم الراستفاري للحياة الأبدية أو الطاقة الحيوية التي يحملها الإنسان في حياته.

19 La–Z–Boy: كرسي استرخاء من تصنيع شركة La–Z–Boy Inc الأميركية للأثاث.

لم يكن شاهين نفسه من نوع الأشخاص الذين يقضون الحياة وهم يفتشون عن معانٍ غير مفهومة. لم يكن هناك غموض في عبارته. جعلته الألوان سعيداً، وأضافت بعض القطع الخضراء والبرتقالية إلى ظلام قلبه.

كان ItalMode ابتكاره. لم يكن يجيد استخدام يديه، اعترف على الدوام، لكنه استطاع أن يتخيل الأشياء.

"أرى الأشياء قبل أن تبنى"، اعتاد أن يتفاخر، "وفي اللحظة التي تبنى فيها، أكون قد فكرت في نوع التغييرات التي أود رؤيتها فيها".

يمكن القول إن شاهين كان مؤمناً راسخ الإيمان بالفصل بين العمل اليدوي والذهني. طلب من أربعة آخرين أن يساعدوه في إنجاز مشاريعه، مثل بناء مكتبة، طاولات صغيرة، خزانة أدوية، إطارات صور، مجرد قطع فنية. كانت كلها تصنع من أوراق الصحف الملفوفة، والصمغ المحلي المصنوع من السكر والأرز (صنع الزنزانة)، والخيطان المستخلصة من القمصان والجوارب القديمة. ورغم أن الحراس نادراً ما اقتحموا الزنزانة وأزالوا كل أثاث ItalMode، رأى شاهين في هذه الاقتحامات فرصة لعمل أكثر إبداعاً. حصل على الفرصة لإظهار ذوقه في الديكور مراراً وتكراراً خلال الوقت الذي قضيناه معاً.

خصّص ساعتين ثلاث مرات في الأسبوع لتعليم الإنكليزية لرفاقه المحكومين بالإعدام. كان مصراً على حقيقة أن دروسه الخصوصية كانت في الإنكليزية الأميركية، اللغة والثقافة التي كان أفضل من عرفها. قضى معظم شبابه هناك، لكن لم يعرف أحد ماذا كان يفعل تماماً في أميركا. مع كل سحره وحديثه الذي لا ينتهي، لم يتحدث عن نفسه أبداً، ولم يهتم أحدٌ بذلك. كنا غرباء، وبقينا كذلك. لم يكن لدينا الكثير من الأشياء المشتركة باستثناء عقوبة الموت غير المعلنة.

بعد أشهر من تشارك نزهات ما بعد الظهر مع شاهين، اكتشفت أنه كان طالب رياضيات في جامعة في شيكاغو. اعتقل بعد بضعة أشهر فقط من عودته إلى إيران. لأي سبب، لا أعرف، باستثناء أنه مثلنا كلنا سجينٌ سياسي. كان متزوجاً لكنه لم يتحدث عن زوجته أبداً. غالباً ما تحدث عن النساء الأخريات في حياته لكن ليس زوجته. وضح بتلميحاتٍ عدة أن الحديث عنها كان محرماً.

عرفت في ما بعد أنها أُعدمت. ألم يتلهف شاهين للبكاء عليها أبداً؟ هل كان الألم مدفوناً عميقاً جداً داخله فلم يستطع حتى أن يعبر عنه؟ هل كان يهرب بعيداً من الجنون، أو أنه استولى عليه؟ هل هذا مهم؟

بقي شاهين لشهور يحمل إلى زنزانتنا صورة حيّة لشقته المطلة على البحيرة، مع طعم الجعة المستوردة المثلجة، ورائحة الصيف الحار في شيكاغو خلال كل جلسة مع ترمسه الرائع. كان الترمس رائعاً وأنيقاً فعلاً. زاد حبي للمس جسده الناعم وانحناءاته الأنيقة، وعرفت أنه أحبني في المقابل. أخبرني شاهين بذلك قبل أن يؤخذ للإعدام.

بهرام

توفّي أبي في ساعات الصباح الأولى في يوم بارد من آذار/ مارس 1983. توفّي يوم زيارتي الشهرية، تماماً عندما كانت أمي تستعد لمواجهة هواء الفجر المثلج الذي شقق عظام هؤلاء الذين ينتظرون في الصف عدداً لا محدوداً من الساعات لزيارة أعزائهم.

رأيت أبي مرة واحدة فقط خلال السنوات الثلاث والنصف التي قضيتها في السجن. لم تكن الهواتف قد رُكّبت بعد في قاعة الزيارة في سجن إيفين. وقفت على أحد جانبي الحاجز الزجاجي وعائلتي على الطرف الآخر. بكى أبي بينما بذلت أمي جهدها لتؤكد لي، بلغة الإشارة، أن كل شيء سيكون على ما يرام. رأيتها تقول له إن عليه المغادرة إن لم يستطع التوقف عن البكاء. توقف عن البكاء لكنه لم يرجع. عُلّقت حقوقي بالزيارة بعد الزيارة الأولى، وحين سمح لي برؤيتهم مجدداً، كان مريضاً جداً ولا يقوى على احتمال الوقوف في الصفوف الطويلة خارج السجن والإذلال الذي يمارسه الحراس ضد الأهالي بسبب أبنائهم المعادين للثورة.

لم تستطع أمي أن تتخلى عن أي فرصة لزيارة ابنها، إذ عرفت أن كل مرة ربما تكون الأخيرة. تخيلتها تجلس على السرير قرب جسد من كان رفيق حياتها لأكثر من ثلاثةٍ وثلاثين عاماً، تبكي بصمت وهي تقول لنفسها: يجب ألا أبكي كثيراً، لا أستطيع أن أظهر الحزن في عيني عندما أرى ابني. شجعها أخي وأختي أن تذهب لرؤيتي، وأستطيع تخيلها تقول لنفسها أكثر مما لهما: "أعرف، يجب أن أحيا من أجل الأحياء".

لم تكد تستطيع الطبقة الرقيقة من الابتهاج التي بدت على وجهها أن تخفي حزنها العميق. جلست خلف الفاصل الزجاجي بهدوء تخشى أن تتحدث فيتدفق فيض دموعها. كان قد مرَّ أكثر من عام على رؤيتي لأبي.

"مات؟"، سألت محاولاً ان أحتوي دموعي.

ابتسمت فقط وقالت إنني يجب أن أركز على وضعي. "سيكون بخير"، قالت لي، "يجب أن تبقى قوياً".

لم يرد أي منا أن يكمل المحادثة. اعترف كلانا بموت أبي دون أن نتلفظ بكلمة عن ذلك: كيف، متى، أين، من كان هناك، من لم يكن.

عندما خرجت أخيراً من المقصورة الصغيرة باحثاً عن مكان لأصرخ، بادرني حارس القاعة بسؤاله: "لماذا كانت العاهرة تبكي كثيراً اليوم؟".

دفعته بقوة حتى اصطدم بالجدار خلفه وسقط أرضاً. لم أرغب يوماً في قتل أحد بمثل هذه الشدة.

كان علي الشاعر قد أنهى للتو أيضاً زيارةً مع زوجته وابنه وكان هناك قربي. سحب ذراعي وجرى بي نحو زنزانتنا. أخبرته أن أبي توفّي وأخبرته ما قاله الحارس لي ونحن نركض. سمعنا أصوات حراس يطلبون المساعدة وخطوات آخرين تتبعنا. وضعني عليّ أمام باب الزنزانة وحماني بجسده الضخم. عندما لحق الحراس بنا، صرخ عليٌّ أن هذه ليست طريقة للتعامل مع شخص توفّي أبوه للتو. كنت أبكي.

"سأقتلك"، صاح الحارس الذي هاجمته. عرفت أنه يعنيها.

كان المسؤول عن نوبة الحراسة هناك فأخبرته ما جرى وكيف أعمت إهانة الحارس بصيرتي. بقي عدد الحراس يتزايد كأنهم كانوا هناك لإخماد تمرد.

وبّخني المسؤول بصوتٍ هادئ مفاجئ لأنني تسببت في تلك الفوضى. ثم فتح الباب وطلب مني ومن عليّ الدخول.

أنقذ عليّ حياتي.

في الداخل، أعطاني عليّ سيجارة زيادة على حصتنا اليومية المؤلفة من ثلاث. كان مسؤولاً عن توزيع حصتنا في الزنزانة. أنهيتها بنفثات. أعطاني واحدة أخرى. في منتصف السيجارة الثانية، والدموع، حضرتني أغنية قديمة. أغنية علمني إياها أبي عندما كنت في الخامسة أو السادسة من عمري. "يمكنك أن تغنيها في الحفلات"، قال لي، "وتبهر أصدقاءك". أحاط بي عدد من السجناء وغنيت لهم.

كنت طفلاً لمزارعٍ كادحٍ،
في وديان طاجيكستان،
كان لدينا أرض صغيرة،
حرثنا الأرض،
زرعنا البذور،
حصدنا الحبوب،
وخبزنا الخبز،
وحسبنا أنفسنا سعيدين.

الثوم المخلل

”بالنسبة إلي، يحدد بيتهوفن كل ما يتعلق بالرومانسية. أياً كان نوع ما كتبه هذا الرجل – سيمفونيات، موسيقا بيانو، رباعيات متسلسلة – فقد أظهر العبقرية. ربما لا يتفق الناس معي، لكنني أظن أن الموسيقا الرومانسية ولدت في وقت ما بين سيمفونياته الثانية والثالثة“.

نظر طلابي الخمسة المتلهفون إليّ باندهاش وهم لم يصغوا أبداً إلى الموسيقا الكلاسيكية ولا يعرفون الاختلافات بين مدرسة موسيقية وأخرى.

”أتمنى أنني عرفت بعض الموسيقا الرومانسية عندما كنت أحاول أن أؤثر في تلك الفتاة التي كنت معجباً بها“، اشتكى فريد، ”قالت لي على الدوام إنني أفتقد الروح الرومانسية. هذا صحيح، كانت أميل إلى الشعر، لكنني أظن أن إهداءها تسجيلاً لموسيقا رومانسية كان سيفي بالغرض“.

”لكن ماذا كنت ستفعل بوجهك القبيح“، اندفع جاويد بالضحك وتبعه الآخرون، ”كنت بحاجة إلى بعض الرسوم الرومانسية لتضعها فوق وجهك كي لا تستطيع الفتاة المسكينة أن ترى ما كان ينتظرها تحتها“.

”أخشى أنكم تخلطون ما أقوله عن النمط الرومانسي من الموسيقا مع الرومانسية“، بدأت لكن صوتي ضاع في المباراة الصاخبة التي أطلقوها حول من منهم يتقن الفن القديم للرومانسية، ”أي فتاة يمكن أن تقاوم قصيدة كهذه؟“، قال كيفان الذي مضى في استعراض معرفته الموسوعية بالشعر المعاصر:

أيها الملاك،
المتحول إلى لحم،
جسدك لا يحترق،
إلا بنيران الخداع،
وجودك جنة،
تبرير للهرب من الجنة،
هو محيط، يغسلني،
لينظفني،
من كل خديعة، من كل خطيئة.
والفجر يصحو بيديك!

”تعرف، كتب شاملو هذه السطور الخالدة إعجاباً بعايدة. قصيدة كهذه ستذيب أي فتاة على سطح هذا الكوكب بنيران الرغبة. تريد قلب فتاة، قل لها إن يديها توقظان الفجر“.

”من فضلك احتفظ بالتعليقات لصف شعرك“، قلت وأنا أعرف أنني أخوض معركة خاسرة، ”دعونا نعود إلى بيتهوفن وسيمفونيته التاسعة، اسمها Ode to joy[20]“.

20 Ode to joy: نشيد الفرح، سيمفونية بيتهوفن التاسعة.

بينما ألفظ كلمات Ode to joy، سمعنا أصغر ينادي بأعلى ما يستطيع الله أكبر، دعوة إلى صلاة الظهر، وهكذا انتهت حصتنا الأسبوعية عن تاريخ الموسيقا الغربية.

خلال الأشهر الثلاثة الماضية تحمّل أصغر مسؤولية الدعوة للآذان، ليدعو الجميع إلى الصلاة. ثلاث مرات في اليوم: الأولى قبل الفجر، والثانية عند الظهيرة، والثالثة عند الغروب. وقف مؤذن

الزنزانة الذي عيّن نفسه بنفسه قرب الباب يدعو للصلاة بكل القوة التي سمح بها جسده الصغير. وقف قرب الباب ليتأكد أن آمر السجن والحراس يسمعون نداءه للإيمان. كان يهمه أن يعرفوا إيمانه الجديد، تماماً كما يسمع الله صوت قلبه ويشعر بالنقاء الذي حققه أخيراً في زنزانة الموت. لم يستطع أحد منا أن يغامر بفكرة الطلب إليه أن يحقق النغم الصحيح، فما بالك بأن يخفض صوته. كان سيعتبر ذلك حركة عدوانية ضد الأذان، وليس محاولة يائسة لحماية آذاننا من صوت مؤذننا.

كان أصغر قصيراً ونحيلاً ضعيفاً، بوجه مصفر بدا غارقاً في رأسه الكبير غير المتناسب الذي يشبه الأنبوب. نادراً ما ابتسم. لكن حتى في هذه المناسبات كان يخفي القلق المستوطن في عينيه السوداوين الحزينتين. قوضت مشيته المتأرجحة جهوده المستمرة لجعل الآخرين يأخذونه على محمل الجد. لكن أياً من ذلك لم يكن يعنينا أكثر من صوته المزعج وعجزه مطلقاً عن إنتاج شيء قريب نوعاً ما للدعوة السماوية للصلاة. ورغم تلك الحقيقة، أظن أنه اعتبر أنه يقدم الموسيقا التصويرية للتقوى دليلاً على إخلاصه لتحوله من شيوعي ضالٍّ إلى مؤمنٍ متنورٍ جديد.

كانت مسؤولية العمل مؤذناً مهمة إضافية لأصغر. فمهمته الفعلية أن يكون واحداً من المخبرين الخمسة في الغرفة التي فيها ثمانون من السجناء غير التائبين المحكومين بالموت. لم يكن ذلك سهلاً على أصغر. لم يحمل الأربعة الآخرون عبء ماضٍ شيوعيّ، لكنه كان بحاجة إلى إظهار قدسية زائدة لأنه أخذ ذلك المنعطف غير المرغوب في رحلة حياته. لم يكن أصغر وزملاؤه المخبرون جواسيس بالمعنى الدقيق، فهم لم يخفوا عنا رغبتهم في الإخبار عن "سوء سلوك" الآخرين. يمكن تعريف سوء السلوك كأي شيء من عقد الصفوف حول أي موضوع والمشاركة فيها، مثل دروس اللغات، أو الخط، أو تاريخ الفن، وصولاً إلى التواصل مع السجناء في الغرف الأخرى. تجسس المخبرون أيضاً على بعضهم بعضاً. فالإخبار عن جاسوس آخر جعلهم يكسبون ثقة أكبر من آمر السجن، وربما الثمن الأكبر: عقوبة مخففة.

سمحت دقائق الصلاة القليلة للجميع، الذين يصلون والذين لا يصلون، بالحصول على مهلة مؤقتة لمراجعة الذات. مدةٌ يمكن فيها للفرد أن يشعر بمخاوفه، ويتأمل حسراته، ويبكي خساراته، دون أن يهتم ماذا يفكر الآخرون.

اقترب أصغر مني بحركة عادية جداً وأنا أشق طريقاً متعرجاً من جانب إلى آخر في زنزانتنا المزدحمة جداً في ظهيرة اليوم نفسه الذي كان فيه درس بيتهوفن.

"عذراً"، قال وهو يبدو كمن خان إيمانه، "هل يمكنني أن أسألك سؤالاً؟".

نظرت إليه نظرة جعلته يعرف أنه لا يستطيع.

"لا، أنا جاد"، قال وهو يتبعني، "هل تتحدث عن ماركس في صفك؟".

شعرت أنني في مشكلة.

"نعم، إذا كان ماركس ملحناً، ولكن هل هو كذلك؟"، سألت.

كان يعرف جيداً جداً أنني كنت أعلّم المحكومين بالإعدام تذوّق الموسيقا، وذلك من الواضح لا علاقة له بماركس.

"هل ستعطي درساً عن الماركسية؟".

"هل فقدت عقلك اللعين؟ أليس لدينا ما يكفي من المشكلات؟".

"لا، جدياً، أريد أن أعرف. إذا كنت ستعطي درساً عن الماركسية، أريد أن أشارك. أريد أن أفهمها على نحو أفضل".

تساءلت هل يعرف شيئاً عن ملفي. كان هناك على الأقل عشرون ماركسياً آخرون في الغرفة. لماذا يتقرّب مني؟ كان هناك آخرون يدرسون صفوفاً. علّم غلام اللغة الإيطالية ورضا علّم الألمانية. وربما يكون هو المرشح الممتاز لسؤال أصغر بما أنه كان يدعي دوماً أنه قرأ ماركس الأصلي باللغة الوحيدة التي يمكن بها فهم ماركس بالكامل. كيف عرف أصغر أن رضا كان يتبجح بذلك فقط، وأنه ليس لديه تلك المعرفة العميقة المزعومة بالماركسية؟

"اسمع، إذا كنت بحاجة إلى اختلاق شيء لتعد به تقريراً إلى آمر السجن، امضِ في ما تريد. لا أهتم بما تقوله لهم. لا أظن أنه يمكن أن تخبرهم شيئاً يؤثر في قضيتي. تريد أن تخبرهم أنني أدرّس الماركسية في زنزانتي؟ امضِ، عليك اللعنة".

"أقسم لك، هذا لا علاقة له بك. أنا بحاجة إلى معرفة الماركسية على نحو أفضل كي أقوي إيماني".

"أنا لا أهتم بإيمانك إن كان ضعيفاً أو قوياً، فقط دعني وشأني".

"لكن أنت ترى...".

"لا، لا أرى".

"من فضلك، دعني أكمل كلامي. أعدك أنني لن أزعجك ثانية".

"وجودك يزعجني. هل يمكن أن تطلب من أصدقائك أن ينقلوك إلى زنزانة أخرى؟ هل يمكنك أن تختفي بعد أن تطرح سؤالك؟".

"أنا بحاجة فقط إلى نظرية ماركس عن القيمة. من أين يأتي الربح، وفقاً لماركس؟".

"لماذا لا تشغل نفسك بأمور نبيك وتترك ماركس وشأنه؟ نظرية ماركس عن القيمة؟ أظن أنك يجب أن تفحص رأسك. يمكنك أن تفعل ذلك، أليس كذلك؟ علينا أن ننتظر شهوراً دورنا في الذهاب إلى المستشفى، لكن بالنسبة إليك الأمر سهل. اطلب فقط من رفاقك أن يرتبوا لك موعداً مع الطبيب ليراك. أظن أن هناك ورماً ينمو في رأسك وهو ما يجعل عالميك القديم والجديد يتصادمان".

لم أرد أن أبدو ودوداً جداً معه. كانت خيوط الثقة ضمن الزنزانة واهية مثلها. في حال انقطع خيط، قد يستغرق الأمر منك شهوراً قبل أن تجد نفسك في الجانب الآمن من التقسيم.

لكن كان من الصعب التخلص منه.

"أنا لا أحاول تبرير ماضيّ، لكن المشكلة أنه لم يكن لدي فكرة ما هي الماركسية عندما أصبحت شيوعياً. الآن أنا أفكر أن إيماني قوي كفاية لأكون قادراً على العودة ودراستها ورفضها بوعي وعمق. لا أريد أن يحدث معي الشيء نفسه الآن. أعني لا أريد أن أقبل أي شيء بعماء، بالطريقة نفسها التي حدثت معي عندما كنت شيوعياً".

"لا تقلق، سيستمر تهديد الإعدام موجوداً ليبقي إيمانك قوياً ومخلصاً بالتأكيد. ليس لدي شك أنك أنكرت كل خطاياك بكامل وعيك وأنك ملتزم بقوة إبقاءَ إيمانك راسخاً. لذا كن مطمئناً؛ ستكون بخير بمعرفة نظرية ماركس عن القيمة أو بجهلها".

"تظن أنني تحولت من الخوف، لكن...".

"اسمع، أنا لا أفكر فيك ولا أهتم بك، ولا أريد أن أعلم شيئاً عنك، لا يهمني لماذا تحولت. لا أعرفك، ولا أهتم لتغيير أي مما سبق. فقط اتركني وشأني أرجوك".

حاولت الابتعاد عنه. عكست الاتجاه كل بضع خطوات. سرت بسرعة أكبر، ثم أبطأ. لم أستفد شيئاً. أخبرني الآخرون قبل أنه مثل القملة: يلتصق بك ولا يغادر.

"أعدك، لن أزعجك إن شرحت لي شيئاً واحداً فقط. كنت أقرأ كتاباً وهناك فصل ينتقد نظرية ماركس عن القيمة. أريد فقط أن أتأكد أنني فهمته جيداً وأن المؤلف يعرف عما يتحدث. سآخذ من وقتك بضع دقائق فقط، أعدك".

ما هي قيمة وعد الجاسوس؟

"تتوقع مني أن أشرح لك نظرية ماركس في بضع دقائق؟ لقد حصلت فعلاً على تلك الدقائق".

"حسناً، على الأقل دعني أقول لك ما قرأته وأنت أخبرني هل فهمته على نحو صحيح. بتلك الطريقة، لن يكون هناك ما تخشاه، بما أنني سأتحدث وأنت ستصغي فقط".

"تظن أنني خائف منك، أيها الدودة الوضيعة؟ تباً لك؟".

"لا، لا! أنا آسف، ليس ذلك ما قصدته. ما أريد قوله إنك إذا كنت تظن أنني أحاول الاستفادة منك بدفعك لتقول شيئاً ثم أخبر السلطات بذلك... ما هي الكلمة؟ أنت تعرف، فخ، نعم، أنا لا أحاول فعل ذلك. هل تعرف ما أحاول أن أقول؟".

قررت أنه كان من الأسهل لي فقط أن أصغي إلى سؤاله بدلاً من محاولة تفاديه.

"حسناً، أخبرني ما هي مشكلتك".

"حسناً. لكن دعني أشكرك أولاً، لأن هذا يعني الكثير لي...".

"فقط أغلق فمك اللعين وأخبرني ماذا يدور في رأسك".

"نعم، انظر، كنت أقرأ هذا الفصل وهو يقول إن ماركس اعتقد أن كل سلعة – أنت تعرف ماذا يعني بسلعة، صحيح؟ حسناً – لها نوعان من القيمة: واحدة قيمة استهلاك والأخرى قيمة تبادل. هل هذا صحيح؟".

"تابع ولا تسألني بعد كل جملة ما هو الصحيح وما الخطأ. سأخبرك في النهاية".

"قيمة الاستهلاك، يقول، تتعلق بالسبب الذي نحتاج من أجله الأشياء. مثل: كيف يجب أن أعبر، نحتاج الدراجة للذهاب إلى الأماكن".

"فائدة الأشياء...".

"نعم، نعم، عرفتَ لماذا أحتاج إليك لفهم هذا، فائدة الأشياء. يجب أن تحقق حاجة، وإلا فما نفعها؟ أظن أنني أتفق مع ماركس في هذا. لكن تلك النقطة الواضحة. الأخرى، ما كانت؟".

"... قيمة التبادل!"، قلت نادماً لأنني تركت نفسي أقع في فخ كهذا.

"شكراً لك، قيمة التبادل هي الصعبة. يقول ماركس إن قيمة التبادل لا علاقة لها بقيمة الاستخدام، صحيح؟ حسناً، أعرف، يجب ألا أسألك. لكنها تتعلق بكمية العمل الذي تبذله لصنع شيء ما. كأنك تنفق كمية محددة من العمل في صناعة شيء، ذلك الشيء سيستحق ما يكافئ كم أنفقت عليه من العمل. أعرف أنني لا أوضح المعنى كثيراً. لكن لذلك السبب أحتاج أن تقول لي هل هذا صحيح أم لا".

كنت متأثراً نوعاً ما بالجهد الذي يبذله في ذلك. ربما كان يحاول بصدق أن يتعلم شيئاً. وإذا كان يمثّل، فهو يؤدي عملاً جيداً. كان القلق الظاهر في وجهه من المحاولة التي يبذلها ليفهم على نحو صحيح حقيقياً جداً، إذ فكرت للحظة أن التحدث إليه، ربما، لن ينهي إنسانيتي.

"أنت تقوم به على نحو جيد تماماً. أفهم ما تحاول أن تقوله".

"حسناً. نحدد قيمة سلعة ما، أقصد قيمة التبادل لسلعة ما، اعتماداً على العمل الذي صرف عليها".

"إذاً، أي كتاب هذا الذي تقرأ فيه كل هذا؟".

”أوه، هذا كله في كتاب آية الله مطهري *The Historical Causes of the Spread of Materialist Thought* [الدوافع التاريخية نحو المادية]. إنه موجود في زنزانتنا، إن كنت مهتماً بقراءته“.

”إذاً، ما هو نقده لنظرية ماركس؟“.

”يقول آية الله مطهري إذا كان صحيحاً أن قيمة التبادل لكل السلع تحدد بكمية العمل الذي يصرف في إنتاجها، إذاً، كيف يفسر ماركس قيمة تبادل الثوم المخلل؟“.

”ماذا، الثوم المخلل؟“.

”نعم، الثوم المخلل. تعرف... إذا كان ماركس محقاً، كيف يفسر القيمة المذهلة للثوم الذي ينقع سبع سنوات في الخل؟ كما تعلم، الثوم المخلل لسبع سنوات ثمين كالذهب تقريباً، ويدفع الناس الذين يحبون الثوم أي ثمنٍ تطلبه مقابل لذته. لكن هنا المشكلة. عندما تخلل الثوم، أنت تنفق بعض الوقت وبعض العمل وبعض المواد الأولية. إذا أردت أن تبيعه مباشرة عندما تصنعه لن تحقق ربحاً كبيراً. لكن، إذا تركت الثوم منقوعاً سبع سنوات، دون أي عمل إضافي، فجأة يصبح السعر عشرة أضعاف! كيف يمكن أن نفسر هذا؟ إناء من الثوم المخلل متروك في قبو ما في مكان ما عليه غبار وقيمة تبادل. أليس هذا مذهلاً؟ ألا يدحض هذا نظرية ماركس؟“.

استطعت أن أرى شرارات الانتصار على الماركسية في عينيه. أخيراً تدحض نظرية معقدة مشدودة مثل الغطاء الذي يسد إناء الثوم المخلل، نظرية ماركس عن القيمة بالمجمل. كان يحاول جاهداً أن يتماسك ولا يظهر سعادته برؤية الدهشة تعلو وجهي. بدا أنه أقنع نفسه مرة جديدة، وربما أقنعني أنه لم يتخلّ عن الماركسية بسبب الخوف، ولا التعذيب، ولا أي وسائل قسرية. أنكرها لأنه رأى الأساس العلمي لعيوب النظرية الماركسية. عادت إليه كرامته بمعرفة وجود دليلٍ تجريبيّ غير قابل للدحض، شيء ما معروف مثل إناء من الثوم المخلل لسبع سنوات يواجه صحة نظرية ماركس. أراد أن يعرف الآخرون أنه لم يكن محتالاً في توبته؛ هو يتبع ما فقط هو صحيح بموضوعية.

”ستكونان أنت وآية الله مطهري محقين تماماً لو كان الثوم المخلل أساساً لاقتصاد العالم. وأخشى أنه حتى يأتي ذلك اليوم، علينا أن نصل إلى طريقة أفضل لدحض نظرية ماركس“.

”لكن ألا تظن...“.

”لا، لا أظن“.

قال أصغر، المصمم على إثبات رأيه وكسب متحول آخر ربما، إنه ”يحترمني“. وتابع رواية قصة حياته لي كي أقدّر ”رحلته في الضوء“ وأفهم لماذا كان مهماً له أن يؤمن بشخصٍ يرتبط به، ليس عاطفياً فقط، وإنما عقلياً وروحياً أيضاً.

علمت أنه كان الطفل الوحيد لأبٍ أميٍّ تدبر أمور المعيشة كعاملٍ يوميّ. احتاجت أمه المشلولة، التي كانت أميّة أيضاً، مساعدته من اللحظة التي بات قادراً فيها على السير. اعتادوا العيش في ساوة، وهي بلدة صغيرة قرب طهران، لكنهم انتقلوا في النهاية إلى طهران مثل مئات الآلاف من العمال في تلك الأيام.

”كان هناك هذه الفتاة في جوارنا“، أسرَّ لي، ”جميلة جداً. هذا ما ظننته في ذلك الوقت، بالطبع، لكن الآن، أعرف أن الله أرسلها لتغويني وأنا استسلمت للغواية. ليس أنها كانت تبدو ضوء النهار بالنسبة إلي. كانت أكبر مني وكان هناك فتيان مؤهلون أكثر مني في الجوار. لا، لم تكن كذلك. استسلمت للغواية، ولأنني رأيتها في أحد الأيام أمام الجامعة مع أكوام من المنشورات الشيوعية.

أصبحت شيوعياً وتأكدت من الانضمام إلى المنظمة نفسها التي كانت فرداً فيها. ثم انتبهت إلى وجودي في الجوار. وكلما انتبَهت إلى وجودي أكثر، في الاجتماعات والمؤتمرات وفي الجوار، غرقت في السياسة أكثر".

هل ظن أنني كنت أيضاً مخبراً ويريد أن أوصل هذه المعلومات إلى محققه؟ هل كان ببساطة متعباً من كونه معزولاً في زنزانة المحكومين بالإعدام واحتاج أحداً ما ليتحدث إليه؟ هل كانت هذه محاولة طفولية منه ليجعلني أحكي له عن نفسي؟

"ساعدتني لأحصل على بيتي الخاص. أولاً ظننت أنها كانت الخطوة الأولى لكلينا لنكون معاً. لكن في ما بعد، أدركت أنهم كانوا يحتاجون مكاناً لإخفاء منشوراتهم ونشراتهم، وشخصاً يمكنه أن ينقلهم إلى أماكن مختلفة. كان والداي مدمّرين. أخبرت والدي أنني أخوض معركة، معركة كان عليه أن يخوضها قبل سنوات عدة. كنت أقاتل باسمه. على الأقل ذلك ما ظننته. ذلك ما أقنعتني أن أفكر فيه. لا تفهمني خطأ. أنا لا أحاول أن ألومها. أنا ألوم نفسي وضعفي على كل هذا".

بدا لي أنه كان متدرباً تماماً على شعيرة الاعتراف. بدا صادقاً لكن سلوكه جعل من الصعب حشد أي تعاطف مع محنته.

"ثم سألتني في أحد الأيام هل أستطيع أن أذهب إلى كردستان وأحضر حزمة من المواد. أقسم بروح أمي، التي ماتت بعد وقت قصير من انتقالي، ذلك بالضبط ما قالته لي، حزمة من مادة ما. بما أنني كنت دوماً أتعامل مع المنشورات واللوازم، ظننت أنني كنت سأعود ببعض الوثائق الحساسة التي لا يستطيعون الوثوق بشحنها بأي وسيلة أخرى. حسناً، بدا أن الحزمة حقيبة كبيرة مليئة برصاصات لنوع من الرشاشات الخفيفة. ربما تتساءل كيف اكتشفت ذلك".

لم يكن لدي نية للسؤال، لكن القصة صارت مهمة. ليست غريبة جداً لكنها قصة أخرى عن الحب والثورة.

"اعتُقِلت بعد بضعة أشهر. قبل أن أسمع باعتقالها، كنت أجلس هنا في السجن أنتظر محققي. ذات يوم، كنت مقيداً إلى سرير معدني أنتظر عقوبتي لأنني كذبت على محققيَّ حول تورطي في المنظمة".

كان حذراً جداً ألا يقول ما جرى خلال التعذيب. كرر الخطاب نفسه الذي علمناه كلنا، وهو أن السجناء ما كانوا يخضعون للتعذيب، وأن الجلد كان العقوبة الوحيدة التي يفرضها القاضي على جريمة الكذب.

"أحضروها وسألوها: 'إذاً، من أحضر الرصاص من كردستان إلى طهران؟'، قالت لهم: 'أصغر'. عرفت حينئذ للمرة الأولى أن هذا هو الثمن الذي يدفعه الشخص مقابل رفضه لله. لم تكن الرصاصات ما أحضرته من كردستان، بل كان غضب الله".

لم تفلح قصته في تغيير شعوري نحوه، واحتاج دحضه العلمي لنظرية ماركس حول القيمة بعض العمل الجدي قبل أن يتمكن من إقناع أحد برؤية عيوب الماركسية، مع أنه جعلني أشتهي الثوم المخلل الغني بالعصارة المصنوع في المنزل والمخلل لسبع سنوات، الذي اعتاد جدي أن يبيعه في متجره.

لم يتحدث أصغر إليّ أبداً حول أي شيء بعد ذلك اليوم. لم يطرح أسئلة أخرى واستمر في إيصال تقارير عن نشاطات رفاقه السجناء غير التائبين.

في أحد الأيام، في منتصف الصيف، تماماً عند الغروب، بدأ أذانه تماماً بالنبرة نفسها المزعجة والمنفرة لصيحة الله أكبر، في البقعة نفسها التي كان يقف فيها لستة أشهر. هذه المرة فتح حارس

البابَ، ما سمح لصوته المرعب أن يرتج بين جدران قاعة السجن الواسعة. بعد أن أنهى ما كان يفعله، تألقت عيناه، فهو بالتأكيد ظن أنه نجح في مسعاه أخيراً.

طلب منه الحارس أن يجمع أغراضه ويخرج مباشرة.

أُعدِم في اليوم التالي قبل شروق الشمس.

الشاعر

لم يلفت داوود نظر أحد بطريقة شعرية. لا ينسجم الصمت، والتأمل العميق، والأفكار الرومانسية حول الأشياء الصغيرة، مع حساسيته. اعتبر نفسه روح الزنزانة، ليس بالمعنى المجازي أو البطولي، وإنما بالطريقة التي أثلج بها صدورنا بظرافته. فكّر على الدوام بين قصصه الطفولية الخيالية – التي طورها إلى مسلسل تلفزيوني ليلي مخصص للبعض – والتفاصيل المهمة لأظرف المشاهد من زنزانة الموت كيف يجعل الحياة اليومية العادية المملة والفظيعة في زنزانتنا ظريفة. ربما بدا ذلك من الخارج صاخباً وأخرق، لكن داوود تجاوز الأمر، وحملنا على تجاوز ذلك معه بسهولة كبيرة حيث يقدر الشخص بعدئذٍ نزوته السحرية.

لكن مملكة مرح داوود أيضاً كان لها حدود. لذا عندما توجه ذات يوم نحو مجموعتنا الشعرية الصغيرة، شعرنا جميعاً بالحاجة إلى حماية ميداننا بإنشاء جدار بين الهمجي والمؤدب. فبعد كل شيء، إلى أي درجة يستطيع الشخص أن يتجاوز الخوف من الموت عبر مغامرات داوود الطفولية؟

"أعرف قصيدة أيضاً"، أعلن وهو يقحم نفسه بفرح في مجموعتنا، "حقيقةً، لا أعرف الكثير من القصائد"، أضاف، "لكن منذ مدة طلب مني شاب قضى معي بضع ليالٍ في إيفين أن أحفظ أربع رباعيات جديدة لشاملو".

لم يتخيل أحد من مجموعتنا المؤلفة من ثلاثة أن نسمع اسم أعظم شاعر حيّ من فم داوود. هل كان يعرف شاملو؟ هل قرأه يوماً؟

"هل تريدون سماعها؟"، سأل بابتسامة تثير الشكوك حول جديته.

"بالتأكيد"، قلت، "دعنا نسمعها".

"دعوني أرى هل أستطيع تذكرها الآن..."، توقف لحظة. فجأة شحب لونه وبدأت شفتاه ترتجفان بينما نظرنا إلى بعضنا بعضاً بخوف. "الأولى، وهي المفضلة عندي، هي...".

في اللحظة الأخيرة،
أصبحت عيناه اللامعتان بركة صغيرة
هناك تحت امتداد السماء الواسعة
أتت العصافير بكثرة لترتاح،
وهو يغمض عينيه
بابتسامة على وجهه.

محاولاً استيعاب القصيدة الأولى، لم أستطع سماع بقية الرباعيات. تلاها داوود كلها مع وقفة قصيرة بينها ليعلمنا بأرقامها.

"هل هي جيدة؟"، سألنا بلا مبالاة.

هل كان يسخر منا؟ هل عرف أيّ كنزٍ حمل إلينا؟

"إذاً، ما رأيكم؟"، كان مصراً على الحصول على جواب. يلعب معنا. ربما يفكر في حكايته الجذلى التالية: كيف أذهل مجتمع الشعر الصغير في زنزانة الموت. حتى داوود عرف أنك لا تسأل مثل هذا السؤال عن سيمفونية لبيتهوفن، أنشودة لباخ، رواية لديكنز، لوحة لفان كوخ. أنت تمتصهم فقط. تغمر نفسك بهم، فيصبحون لحمك ودمك. لم يكونوا أشياء مجردة لتقديرها، هذه الأشياء تعرّفك.

انتشر الخبر في الزنزانة أن داوود يعرف القصائد الأخيرة لشاملو. تشكلت الصفوف لحفظها، ليس حرفياً بالطبع، لأسباب أمنية. تكرم داوود ببعض الوقت من روتينه اليومي الهزلي ليقضي ساعات صبورة مع المعجبين المتحمسين لشعر شاملو، يتلو القصائد مرة بعد أخرى.

"هل هي جيدة حقاً؟"، سألني خلال درس تحفيظ.

"لا تخدعني، داوود"، قلت وأنا أشعر بالغضب قليلاً من تصرفه.

"لا، أنا جاد"، منتبهاً أنه لفت انتباهي، "لكن، على فرض أنها ليست لشاملو، هل ستبقى معجباً بها بالطريقة نفسها؟".

هل خُدعنا؟ فجأة رأيت في نظرته غيمة قبيحة من التهكم تندفع نحوي. هل خُدعنا؟ هل كان ذكياً كفاية ليكتب كل هذا وينشره على أنه شاملو مزيف؟ كنت أفكر فعلاً في القصص التي سيرويها حول كم كنا حمقى.

"ليس لديّ خيار آخر"، اعترف، "ليست لشاملو، لكن لو عرفتم أن رفيقاً لي في الزنزانة هو من كتبها، هل كنتم ستهتمون بحفظها؟".

انعقد لساني فجأة. سال لعابنا بهذه الطريقة على شعر شخص آخر؟

"إنها جيدة بغض النظر عمن كتبها"، كذبت محاولاً بيأس أن أحفظ ماء وجهي، "لمن هي؟".

"لا، عليك أن تخبرني أولاً هل هي جيدة مثل أشعار شاملو"، قال بحزم.

"لا أعرف كثيراً عن الشعر، لكن أظن أنها جيدة حقاً".

بالطبع، لا أحد جيّد كشاملو، لكن بما أننا جميعاً أعلنّا أن هذه الرباعيات الأربع مثال عن عبقرية شاملو، فإن أي شيء أقل من المديح غير المشروط لها سيهدد سلطتنا كخبراء في المجال.

"إنها جيدة كأشعار شاملو"، قلت بتراخٍ، "لكن لمن هذه الأشعار؟".

"في الربيع الماضي... هل كان هذا في الربيع الماضي؟"، حك رأسه، "نعم، الربيع الماضي، أحضروا ذاك الرجل المسن، كان مدرّساً، إلى زنزانتنا. كان رجلاً غريباً جداً. لم يتحدث إلى أحد أبداً. شاردٌ على الدوام في عالمه. كان أكبر بكثير من بقيتنا، وأنت تعرف، لم يشارك في أيٍّ من نشاطاتنا في الزنزانة مثل صنع القطع الفنية أو إقامة حفلة. في أحد الأيام، كانت تمطر ولم يرغب معظم الرفاق في الزنزانة في الخروج للتنفس في الدقائق العشر. سألني: 'هل ستخرج؟'، وأجبت: 'هل تمزح، حتى لو أمطرت حجارة لن أفوّت هوائي الطلق'. نزلت حفنة منا فقط إلى الساحة. بدأ يسير تحت المطر ووجهه مرفوع وعيناه مغمضتان. سرت قربه وبدأ يتلو هذه الأشعار. سألته: 'لمن هذه الأشعار؟'، وقال إنها كانت لـ'رفيقٍ فقيد'. لم يذكر أن القصائد كانت له، لكن كان واضحاً أنها كذلك. قلت له إنها جميلة وأردت أن أحفظها. نظر إليّ غير مصدق. وسألني: 'هل أنت واثق؟'. كنت محرجاً بعض الشيء. لا أعرف لماذا، لكنني كنت كذلك. حفّظني إياها وقال لي كيف أتلوها. كان حريصاً جداً بخصوص مواقع التشديد وأنك يجب أن تستخدم درجة منخفضة من الصوت لقراءتها.

كنت متلهفاً لدرجة الموت لأسأل من هو هذا 'الرفيق الفقيد'. هناك العديد منهم حولنا، كما تعرف. أصبحت مولعاً بالشعر. كلما عرفته وأحببته أكثر، أصبحت مفتوناً وغيوراً نوعاً ما من هذا 'الرفيق الفقيد'. لم يتحدث أبداً عنه وذلك ما قادني إلى الجنون. تكلم عليه بالمودة نفسها التي جعلتني أرغب أن أكون أنا ذلك 'الرفيق الفقيد'. أخيراً سألته ذات يوم هل هو هذا الرجل؟ أخبرني قصة طويلة تحكي كيف أنقذه الرفيق المفتقد من السقوط في هاوية مطلقة في أيامه الأولى في السجن. قال لي إنه لم يستطع تحمل الألم، ألم التعذيب، ألم الانفصال عن زوجته الشابة وابنه، ألم معرفة ضعفه الخاص، أن يُذلّه الحراس ورفاقه في الزنزانة، أنواع عدة من الألم. قال لي: 'كان رفيقي ملاكي. تقاسم طعامه

معي، وتأكد أنني أحصل على مساحة كافية لأنام في تلك الزنزانة المزدحمة، واستمع لقصصي الطويلة عن حياتي دون أن يتوقع مني أبداً أن أصغي إليه'. قال أشياء عدة عن هذا الرجل، ما جعله يبدو أشبه بقديس بدلاً من كونه رفيقاً عادياً".

هل كانت مصادفة استثنائية؟ قضيت وقتاً قصيراً مع مدرسٍ عجوز في إيفين. هل كان الرجل نفسه؟

"هل تتحدث عن أحمد مسعودي؟"، سألت داوود.

"كيف عرفت؟"، أجاب بدهشة.

"كان رفيقي في الزنزانة"، قلت، "أظن أنه كان يقصدني!".

انفجر داوود بالضحك ويده على بطنه، ثم سجد وانقلب على ظهره. كان يلهث طلباً للهواء والدموع تنهمر من عينيه على السجادة.

"لكنك لست ميتاً!"، صاح داوود وهو لا يكاد قادراً على النطق.

"ولست قديساً كذلك"، قلت له.

"لا أستطيع أن أصدق أنه كان يتحدث عنك!"، قال وهو يلفظ كلمة "عنك" بلهجة عدائية. انفجرت في الضحك أنا الآخر.

كنت قد حُوكمت بالموت عندما دخلت تلك الزنزانة المزدحمة قبل عامين. نُقلت إلى "إيفين" بعد محاكمتي، من أجل تنفيذ عقوبتي كما يفترض. يكون الأمر دوماً محيراً عندما تنزع العصبة عن عينيك بعد دخول زنزانة جديدة. تجد نفسك على الدوام في صمت مزعج. يتساءل الجميع كيف سيتعاملون مع قادم جديد إلى هذه الزنزانة التي مساحتها عشرون قدماً في عشرين قدماً، والمعدّة لثمانين شخصاً فقط، لكن يشغلها أكثر من مئة. أمسك أحدهم حقيبتي الصغيرة ووضعها في مكان ما مع بقية الأغراض في الزنزانة. صافحت البعض وجلست مع آخرين كنت أعرفهم من الخارج.

كان هناك رجل مكوّم على الأرض في إحدى الزوايا يخفي رأسه عن البقية. بقي وقتاً طويلاً جداً في ذاك الوضع حتى أحضر الحراس الطعام وطلب منه أحدهم بوقاحة أن ينهض ويستعد للعشاء. كان رجلاً ضعيفاً وقصيراً ونحيلاً للغاية، ووجهه مكفهر، وليس جذاباً جداً بأي معيار. عيناه منتفختان مع كيسين كبيرين معلقين تحتهما. بدا تعيساً وبائساً. كان واضحاً أنه مرّ في برنامج المعمرين في "إيفين" السيئ السمعة عند بداية اعتقاله. لكن بالنسبة إليه، لم يقف البرنامج هناك. دفعه رفاقه في الزنزانة على الدوام. احتقروه بسبب ضعفه الواضح وكآبته ويأسه. كان يغرق، كما ظن الآخرون، ولم يرغب أحد أن يمد إليه يد العون خوفاً من أن يسحبهم إلى الغرق أيضاً.

نادوه بسخرية السيد الأستاذ، ليذكروه أنه لم يعد لديه أي شيء ليعلمه لهم. في الواقع، كان هناك اثنان من طلابه في تلك الزنزانة، لكن حتى هؤلاء كانا غير متعاطفين. أعطاني لقبه خطأً لأفتح حديثاً معه.

"هل أنت مدرّس؟"، سألته ذات يوم مخاطراً بسلامة عقلي بالاقتراب منه.

"كنت مدرّساً"، أجاب بصوت ناعم سلس بدا أنه أتى من شخصٍ أصغر بسنوات مما هو عليه.

"ماذا كنت تدرّس؟".

"الأدب"، أجاب دون أن ينظر إلي.

بحثت في عقلي عن الخط التالي. لم أتمكن من إيجاده، فتوقفت.

ابتعد.

أخبرته في أحد الأيام بعد ذلك أنني أحببت الأدب خاصة الشعر.

"ألست سياسياً؟"، سأل غير قادرٍ على إخفاء تهكمه، "ظننت أنكم رجالٌ تهتمون بالسياسة، السياسة، السياسة، وكل ما عداها عديم القيمة. ألست ثورياً؟"، كان ينفعل ويفقد صبره.

أخبرته أنه ليس لدي فكرة عما كان يتحدث لكنني كنت جدياً جداً بخصوص الشعر والموسيقا الكلاسيكية. واصلت مونولوجي حول الموسيقا لأعلمه أن تعليقاتي لم تكن مجرد خطوط افتتاحية لفتح حديث فارغ. أردت أن أثبت له أن هناك ثوريين شباباً لا تقتصر حياتهم على العمل السياسي الرائج.

اعترف أنه لم يخلق لحياة السجن. لم يكن ذلك بالطبع الشيء الوحيد الذي ائتمنني عليه. كان واعياً فعلاً لقبحه وأخبرني عن زواجه وعن حقيقة أن زوجته الجميلة لم تشعره بالثقة أبداً. جلسنا لساعات كل يوم وأنا أصغي بحماسة له. كل ما قاله كان جديداً علي. أزعج حديثه عن ضعفه، خاصة عندما وصل الأمر إلى الجنس، مبادئي الأخلاقية المتشددة. هل كان يخبرني كل تلك الأشياء التي لا تحكى لأنه ظن أنني كنت سأعدم، أو أن الحالة التي بدت مشينة لي، أنا الثوري الشاب، كانت شيئاً تحدث عنه الناس طوال الوقت؟

سحرني أحمد. تقاطعت أحاديثه بين الشعر وقصة حياته بلغة رائعة فصار الإصغاء إليه متعة كبيرة. استطاع أن يتلو الشعر لساعات. كيف يمكن للشخص أن يحفظ كل هذا؟ هل يمكن أن تكون كل تلك القصائد له؟ لم يخبرني أبداً أنه كتب الشعر. شعرت بالنقص جداً لأنه لم يكن عندي ما أقدمه إليه. الشيء الوحيد الذي استطعت فعله هو أن أجعل حياته في الزنزانة أسهل. حميته عندما سخر منه الآخرون، وحاولت أن أرضي محبته للطعم الحلو بأن أتشارك معه مكعبي السكر كل يوم. كان ذلك كل ما استطعت فعله. عانى أيضاً من ألم الشقيقة الذي كان يليه أحياناً نوبات عنف (غالباً ما أثارها التحدث عن زوجته). كان لدي مسكّن ألم مخبأ في حقيبتي وتأكدت أنه تمكن من الوصول إليه بسهولة. فكرت أنه سيفقد قريباً قيمته بالنسبة إلي.

وجاء اليوم. في ظهيرة أحد الأيام المرعبة، مع الدورة المشؤومة للمفتاح، فُتح الباب. نادى الحارس اسمي، وطلب مني أن أجمع أغراضي. دخلت بصمت وأردت أن أغادر بالطريقة نفسها: أنواع مختلفة من الصمت، الأول صمت التحقق والآخر صمت الرعب. لم يكن شاعري ليترك ذلك يحدث. أمسك ذراعي ولفني بين ذراعيه بسرعة. حضنته بقوة. لأول مرة، عرفت كم كان ضعفه عميقاً.

"لن أدعك"، صاح بالحارس الذي صادف لحسن حظه أنه كان لطيفاً تلك المرة. صاح: "لا، لا، لا!". تدفقت الدموع من عينيه على صدري.

حاول الآخرون إبعاده، لكنه تعلق بي على نحو أقوى وأقوى. كان يسحقني وأدركت أنه دخل في حالة تشنج. تركني أذهب. أمسك رأسه وسقط أرضاً وهو ينشج. أمر الحارس اثنين من الموجودين أن يخرجوه وأخبرني أن أحزم أغراضي في الحال.

حزمت أغراضي وأنا أسمع صدى صوته في القاعة. عندما خرجت من الغرفة، كان صراخه قد تلاشى. خطوت خارجاً وقبل أن أضع العصبة على عينيّ، رأيته يستلقي على الأرض قرب الدرج البارد. وهناك طبيب قربه ينزع غطاء حقنة. كانت عينا الشاعر المصفرتان مفتوحتين على اتساعهما، تنظران إليّ دون أن ترمشا، وتتدفق منهما الدموع الصافية، لكن لم يحمل وجهه أي مشاعر. كانت تلك المرة الأخيرة التي رأينا فيها بعضنا بعضاً.

الرجال ذوو الأثداء

أصبحنا، أنا ومنصور، الحلاقين المخصصين لـ"الكارنتينا" مع فلسفات مختلفة جوهرياً. كان منصور يقص الشعر كقضية نظافة، وأنا رأيتها فرصة للتجميل. اهتممت بشكل الشعر، بينما اعتبره دعوة لتجمع القمل. فتحنا المحل مرة في الأسبوع وقمنا بالسحر بمساعدة مقصي شعر يدويين. حسناً، أنا مارست السحر، وحلق منصور شعر زبائنه تجنباً للعقوبة فقط.

بعد أن أُعدم منصور، أصبحت المالك الوحيد لصالون حلاقة "الكارنتينا".

كان عليّ أن أعمل وقتاً مضاعفاً. لم أكن متأكداً هل تعبي المتزايد متعلق بساعات عملي أو بشيء آخر يحدث في جسدي. جلست يوماً في إحدى الزوايا، بعد ثلاث ساعات من العمل المتواصل، أحاول تدليك رقبتي المتصلبة. شعرت ببعض الكتل في رقبتي ولم أهتم لها كثيراً. لم تكن الكتل مؤلمة. حدّت حركة رأسي فقط. لكنها نمت بسرعة كبيرة في العدد والحجم. سيطرت الأورام على رقبتي وإبطي خلال شهرين. لم أعرف من ماذا تكونت. لا، عرفت ممّ تكونت، لكنني لم أرد أن أعرف.

رفض آمر السجن طلباتي المتكررة للسماح لي بالذهاب إلى الفحص الطبي، لأربعة أشهر. أرسلت رسائل لأمي أخبرها أنني كنت أموت في زنزانة المحكومين بالإعدام وأنها يجب أن تعمل على جمع أي خيوط يمكنها أن تصل إليها من الخارج لجعل آمر السجن يحولني إلى المستشفى. وفعلت ذلك.

بعد ستة أشهر من اكتشاف أولى الكتل في رقبتي، دعاني أحد الحراس للخروج. كان هناك أربعة آخرون ينتظرونني. سرنا نحو مكتب آمر السجن. سألت هل يجب أن أبقى معصوب العينين، "يجب أن ترى هذا الإجراء". أمسك مسؤول النوبة رقبتي وصاح: "سنعمل عليك، تماماً هنا، تماماً الآن". لا أذكر الباقي.

كنت أستلقي على الأرض أمام مكتب آمر السجن عندما فتحت عيني. كان آمر السجن يقف أمامي. "من فعل هذا بك؟"، قال وقد علت وجهه تكشيرة، "سنرسلك إلى المستوصف"، ثم تكلم إلى الحارسين الآخرين وقال لهم أن يتأكدوا أنني أُدخلت.

لم أرجع إلى "الكارنتينا" أبداً. أعطوني حقيبتي وأرسلوني إلى المستوصف حيث قابلت السيد رضائي.

"أتوسل إليك ألا تتركني هنا وحدي، أتوسل إليك، برحمة روح أبيك...".

"أبي ليس ميتاً، أنت قطعة مقرفة من الخراء".

"ليس لدي غيرك هنا، سأموت هنا. أتوسل إليك...".

"لا تلمسني، كم مرة عليّ أن أقول لك. خنزير قذر، لا تلمسني... ابتعد".

ثم كان هناك بكاء صارخ مخلوط بضحك عالٍ، كلاهما قوي جداً بقوة مرعبة.

"أخي، أنا أنزف، لن أبقى هنا الليلة، من سيهتم بي؟ أنت الوحيد لديّ في هذا العالم... سأقبل يديك. سأقبل قدميك. لا تتركني هنا هكذا... سأموت".

"اذهب وقبّل قدم رجلك ذي الأثداء، أيها الدودة التافهة القذرة".

لم أفتح عيني حتى تلك اللحظة. كان الوقت متأخراً في الليل. كنت أصارع في سريري؛ أحسب كل بقعة من الألم في جسدي قبل أن أحاول النوم. تعلمت ألا أفتح عيني تحت أي ظرف. كرهت اللون الأصفر في الغرفة التي بقيت مضاءة أربعاً وعشرين ساعة بالمصباح المثير للشفقة الموضوع في

قفص. جعلتني رؤية ذلك الضوء أكثر مرضاً، فزادت ألمي، وجعلتني أكثر إحساساً بالعزلة. لكن كلمات "الرجل ذي الأثداء" أعطتني سبباً قوياً لأفتح عينيّ. كان يجب أن أعرف ما يحدث في الرواق. بطريقة ما، جعلني فتحُ عيني أتمكن من السماع على نحو أفضل. نزلت من سريري وضغطت أذني على الباب الحديدي السميك.

"أعطه ملاءة أخرى؛ إنه يلوث المكان هنا بالدم".

تردد صوت أنين منخفض في الرواق.

"ماذا سأفعل مع هذا؟"، قال الرجل المريض باكياً.

"لا تفعل شيئاً"، صاح الآخر بغضب، "فعلت ما يكفي. أعطني ذاك الدلو".

ركل أحدهم دلواً من مسافة، فتدحرج فوق الأرضية المغطاة بالمشمع وتوقف فجأة بقوة.

"أليس لديك يدان؟ كم مرة في السنة يجب أن نطلي هذه الجدران اللعينة، شقّقتها مجدداً".

"إنه قذر"، اشتكى صوت آخر، "لا يمكنني أن ألمسه".

"سيدي أنا أموت، لم يعد لدي دم"، جاء صوت الرجل المريض ينبض بالألم.

كان الحارسان يثرثران حول أي منهما يجب أن يمد يده ويحرك الدلو.

"إنه ينزف على الأرض!".

عرفت من الصوت العالي للدلو البلاستيكي وهو يضرب الأرض أن أحدهما وضعه أخيراً قرب الرجل المريض. شعرت بارتجاج الصوت يحمل تقليدَ فضول وهلع منتصف الليل إلى آذان الموجودين في الغرف العشرين الأخرى في الجناح، لنشهد بآذاننا نزيف رجل حتى الموت تماماً خارج أبواب غرفنا.

"ضع الملاءة الملوثة بالدم هنا واستخدم الأخرى لتغطي نفسك. لا أحد هنا مهتم برؤية أشيائك القبيحة".

"انظر، أخي، انظر، كلها دم... سأموت هنا، أعرف، سأموت ضحية بريئة غير معروفة نتيجة خطأ... أخبرتهم، أقسم، أنني لا أعرف أياً من هؤلاء الأشخاص، أنا ربُّ أسرة، أتيت إلى هنا للعمل. يا الله!"، اندفعت موجة من الطاقة في صوته الواهن، "الله... أخي، لا تتركوني هنا، أتوسل إليكم".

"هلا خرست للحظة حتى يمكنني أن أنهي هذا العمل الكتابي الغبي... الآن هو ربُّ أسرة".

"أقسم، أخي، أنا لست واحداً منهم"، قال الرجل المريض، "لماذا سأكذب عليك؟".

"وفّر ذلك للقاضي"، قال أحد الحراس قليل الصبر، "أوغاد".

عاد صمت منتصف الليل إلى الجناح باستثناء صوت بكاء الرجل المريض الضعيف وتوسله بين حين وآخر طلباً للمساعدة والتماس البراءة. تركت الآذان الأبواب الحديدية وعادت الأجساد المتألمة إلى الأسرّة. من المحرج نوعاً ما الاعتراف أن التماس الرجل المريض جلب الحياة إلى الجناح. لم تكن تلك اللحظات نادرة، لكن هذا الرجل كان مختلفاً، خائفاً جداً دون خجل. ثم كان هناك الرجل ذو الأثداء ذاك! هل كان هذا مجازاً، اسماً مستعاراً، أو رجلاً مع أثداء حقيقية؟

عدت إلى سريري واعياً تماماً، أغمضت عيني وبدأت أعزف الموسيقا الليلية في رأسي. وبعد بضع دقائق سمعتهم يعبرون الرواق والرجل المريض مستمر في العويل والالتماس. توقفوا أمام غرفتي.

"هذه؟"، سأل أحد الحراس.

"نعم، افتحها".

تسرب ضوء أزرق إلى غرفتي وهم يفتحون الباب، وقد وصل من وراء جسدي الحارسين الواقفين قرب الرجل المريض الجالس في كرسي ذي عجلات. دفعوا الكرسي إلى الغرفة التي فيها أربعة أسرّة وساعدوه ليصعد إلى السرير الواقع إلى يساري.

"أبقِ عينك عليه"، قال لي أحد الحارسين.

"الأعمى يقود الأعمى"، ابتسم الآخر بتكلف.

"لا تتركوني هنا"، ناح الرجل ثانية، "سأموت الليلة. سيدفنونني في قبر بلا شاهد... أنت الوحيد لي في هذا العالم".

"اخرس، بحق الله"، قال أحد الحارسين وهما يخرجان من الغرفة مع تنهيدة خلاص مغلقين الباب الحديدي خلفهما.

"قوادون"، كانت أول كلمة لفظها بعد أن غادرا، "يظنون أنهم يستطيعون تركي هنا وأنني سأموت دون أن أقول شيئاً؟... هؤلاء الأوغاد، سأريهم مع من يتعاملون... سوف يسوي أقاربي هذا المكان بالأرض... سترى!".

مع إغلاق الباب وابتعاد الخطوات عن غرفتنا، سيطر الرجل المتحدي على المخلوق البائس المتوسل الذي أيقظني صوته سابقاً.

"أعرف كل أسمائهم، سأقاضي كل واحدٍ منهم"، جلس مستوياً في سريره، مترنحاً لكن حازماً، "من ابن العاهرة الذي جلدني إلى هذا الجبان الذي عاملني كالخراء".

"لا تستخدم الشتائم هنا من فضلك"، قلت له بأدب. "نحاول أن نبقي الأمر حضارياً على الأقل طالما نحن داخل هذه الجدران الأربعة. ستفاجأ، لكنهم يستجيبون لذلك بالفعل".

استدار ونظر نحوي كأنه انتبه للتو أن هناك شخصاً آخر في الغرفة. علا وجهَه المستديرَ ذي العظام البارزة شحوبٌ أخضر جعله يبدو أكثر إنهاكاً وانكساراً. وتنافس الخطان العموديان العميقان على خديه مع أنفه المتواضع في تشكيل النقاط المركزية لوجهه. وأبرزت عيناه الغائرتان تحدّب جبهته.

"كما ترى، إذا فعلنا ذلك، يسهل علينا أن نحول العلاقة بين السجين–السجان إلى المرافق–المريض".

نظر إليّ بخجل دون أن ينبس بكلمة، كأنه لم يفهم ما كنت أتحدث عنه. انهمرت الدموع على وجهه المشعِر واختفت في شاربه الأسود. "هل سأموت، سيدي؟".

جاهدت لأخمن عمره من خلال الضوء الباهت في الغرفة. يمكن أن يكون بين الثلاثين والأربعين. استدار، وانهار على وسادته، وغطى وجهه بيديه. ظننته عرف أنني كنت أحاول أن أخمّن عمره. لم أستطع أن أفهم حتى لماذا كنت فضولياً بخصوص عمره، في حين كانت مشكلة الرجل الملحة أن يعرف كم بقي له من الوقت في هذا العالم. كان يجب أن يعامل باحترام وهو على سرير الموت بغض النظر كم بدا بذيئاً وبغيضاً.

"ليس لدي أحدٌ في هذا العالم"، قال بصوت مرتجف، "أنا لا...".

قاطعته قبل أن ينهي تكرار حلقةٍ أخرى من البؤس.

"دعنا نبدأ من البداية. ما اسمك؟"، سألته محاولاً السيطرة على نفاد صبري.

"إبراهيم، خادمك، سيدي".

بعد أن أخبرته اسمي الكامل، سألته من جديد بالنبرة نفسها، "سيد إبراهيم، ما هو لقبك؟".

"رضائي، إبراهيم رضائي، من لرستان، قرب بروجرد".

”آه... أنت من عائلة رضائي المعروفة؟“، سألت، ”لهذا اعتقلوك؟“.
”لا أعرف لماذا اعتقلوني، أقسم أنا بريء، لم أرتكب خطأ في حياتي كلها. الله يشهد عليّ، فليكسر قدمي إذا خطوت خطوة واحدة في الاتجاه الخطأ“.
”إبراهيم خان[21]، هل تنتسب إلى عائلة رضائي الشهيرة؟“.

21 تستعمل خان بمعنى سيد في نداء للتقرب والتودد.

”عائلتي ليست شهيرة. عمي كان أول من فتح متجراً في بروجرد، ليس في بروجرد تماماً، وإنما في بلدة مجاورة بين بروجرد ودورود. تدعى تشالانتشولان. هل ذهبت إليها، إلى تشالانتشولان؟ لديهم أفضل خيار في العالم“.
استقر في السرير من جديد ورفع رأسه وهو يخبرني عن الموقع الدقيق لمتجر عمه. أصبحت لهجته أكثر وضوحاً ولمع وميضٌ من الحنين في صوته.
”إذاً، لست فرداً من عائلة رضائي المعروفة“.
”عرف الجميع في قريتنا عمي. الرضائيون المشهورون، لا أعرف ما الذي تتحدث عنه. ليسوا من قريتنا“.
كنت مقتنعاً أنه سمع عن عائلة الثوار العظيمة، الإخوة، الأخوات، والأهل. هل كان هناك أي مظاهرة خلال الثورة لم يحمل الناس فيها صورهم، شهداء الثورة؟ هل يمكن أن يكون غير عارف على الإطلاق كيف تحولت الثورة ضد شهدائها وكيف أن هناك مكافأة تقدّم مقابل أي ناشط باقٍ من عائلة رضائي؟ هل كان معمياً عليّ برؤيتي المتمحورة حول طهران وكنت غير قادر على الاعتراف أن العالم كان أكبر من الثورة وشهدائها؟
”لا ليسوا من قريتي. أنا أعرف الجميع هناك“.
صرفت انتباهه عن الموت الذي يهدده وأعدت بعض الدم العاطفي إلى وجهه الشاحب.
”يمكنني حتى أن أقول إنني أعرف كل عائلات رضائي التي تعيش على امتداد الطريق من بروجرد إلى دورود، وصولاً حتى إلى أليغودرز. أعرفهم كلهم. لم يؤذِ أحد منهم روحاً في هذا العالم. لماذا يجب أن يعتقلوني؟ يا الله... يا الله، أطفالي البريئون أصبحوا بلا أب، أصبحوا أيتاماً الآن. يا الله، أين شفقتك، أين رحمتك؟ ما الذي فعلته لأستحق هذا المصير؟ النزف حتى الموت في سجن والدفن في قبر بلا شاهد. يا الله، أظهر عظمتك، أظهر رحمتك!“.
عاد إلى مسرحية أحزان الرحمة والانتقام، مبدلاً الأدوار بين طلب المغفرة وإذكاء نيران الانتقام.
”آغا إبراهيم، أصغِ إليّ“، قلت محاولاً إخراجه من حالة الهستيريا، ”إبراهيم، أنت لن تموت، أعدك. رأيت الكثير جداً من الناس وضعهم أسوأ من وضعك. كلهم بقوا على قيد الحياة وعادوا إلى عائلاتهم“. لا أعرف ماذا خطر لي لأخبره مثل هذه الأكاذيب؛ كل ما رأيته هناك كان الألم والموت. نادراً ما خرج الناس من ذاك المكان وعادوا إلى صدور أحبائهم. لكن لم يبدُ أن هناك ما هو حقيقيّ في تلك اللحظة، لا أداؤه ولا محاولتي الصادقة لإعطائه الأمل.
لا أعرف كم كان الوقت متأخراً لكننا لم نشعر، أنا وإبراهيم، أنه يمكننا إغماض عيوننا بصمت والخلود إلى النوم فقط. ما زلت لا أعرف لماذا كان ينزف، ومن أي مكان في جسده كان الدم ينزّ. والأهم، لم أسمع بعد كلمة عن الرجل ذي الأثداء.
”إذاً، سيد رضائي، أخبرني، هل تشعر بأي ألمٍ الآن؟“، لسبب ما شعرت أنني احتجت أن أتكلم معه بصوت أعلى بعد أن عرفت أنه كان من قرية وربما كان أميّاً، ”من أين تنزف؟“.

”لم أمرض أبداً في حياتي كلها. مرة واحدة فقط، مرة شعرت بألم في الرأس وتناولت حبتي أسبرين. كان ذلك كل شيء. لم أمرض أبداً. حتى أحضرني أولاد الـ...، ليرحم الله أرواح أمهاتهم، إلى هنا. ضربوني في بطني وظهري. ليسوا بشراً، هؤلاء الناس، إنهم حيوانات. لا! الحيوانات أفضل من هؤلاء الناس. الحمير، الأبقار، الدجاج، هل تعرف كم هي رائعة؟ إذا سرت أمام حمار ينهق ليقول لك مرحباً. إذا وضعت عصا في قفاه، يرفسك حتى الموت. هل ترى، الحيوانات عادلة، لكن هؤلاء الناس همجيون“.

من أين له كل هذه الطاقة وقد نزف الكثير جداً من الدماء؟ كنت سعيداً أن الحراس وجدوا أخيراً من يتعبهم بقصصٍ لا تعدّ ولا تحصى. شعرت بالأسف على محققه. لا، شعرت بالأسف عليه. لم يعرف أنه كان يجلس في المستشفى ينزف حتى الموت لأنه لم يستطع أن يعطي جواباً مباشراً. هل كان من الصعب عليه أن يقول: لدي تشنجات مبرحة وأنا أنزف من قفاي؟ هل كان بحاجة حقاً إلى أن يظهر ولاءه لحمار القرية ودجاجات جاره في كل مرة أراد فيها أن يقول شيئاً؟

من الرحلات التي خضناها تلك الليلة على طول الطريق بين دورود وبروجرد وذهاباً وإياباً من وإلى قريته، راكبين الحمار اللطيف ومستمتعين ببيض الدجاج المعطاء، هذا ما عرفته عن حكايته.

انتقل إلى طهران قبل أكثر من ستة أشهر على اعتقاله بحثاً عن عمل. فالحياة في القرية، رغم كل وعودها الرومانسية، خاصة بعد الثورة، لم تكن تسير جيداً. لم يكن لديه أي وسيلة لدعم زوجته وطفليه، الابن بعمر عشر سنوات والفتاة في الثامنة.

”لم أكن أريد أن أغادر، هي دفعتني ودفعتني. ’زوج باري خانم ذهب إلى بروجرد وهو يرسل المال إليها. والد عطفة وزوجها ذهبا إلى طهران وهما يرسلان المال. لماذا لا تستطيع‘. لم أستطع تحمل تعنيفها وإلحاحها المتواصل أكثر. تمنيت أنني تزوجت حمارة... تعرف، الحمير عادلة...“.

أتى إلى طهران دون أن يعرف فيها أحداً سوى مجموعة من الأصدقاء من موطنه الأصلي. عاشوا في فندق للعمال المهاجرين بجوار ميدان الجمرك، حيث مارس تجار السوق السوداء، وتجار المخدرات، وتجار المنتجات الزراعية، وبائعو البضائع المسروقة، والعاهرات، والعمال المهاجرون، أعمالهم، وأرضوا متع اللحم منذ أقدم الأزمنة. بالنسبة إلى العمال المهاجرين، كان الجزء الأصعب هو البقاء وتجاوز السنة الأولى من الإغراء. فبعد ذلك، يمكنهم أن يشقوا طريقهم حول المدينة ليجدوا مكاناً أكثر احتراماً للعيش فيه، ويرسلوا المال إلى أسرهم، وأخيراً يطورون رغبة الاجتماع بزوجاتهم من جديد. فشل إبراهيم في اختباره، أو على الأقل اعُتقل بتلك التهم.

”أقسم بحياة ابني أنه لا علاقة لي بهؤلاء الرجال، النساء، أياً كانوا“، كرّر.

لم يتضح لي تماماً أي جزء من عبارته الذي أثار ظلّ ابتسامة على وجهه: الجزء المتعلق بأنه كان بريئاً، أو علاقته بمؤامرة الرجل/ المرأة للرجال ذوي الأثداء. قال إن ”الحرس الثوري“ اخترق حلقة دعارة ومخنثين قبل بضعة أسابيع من اعتقاله. كان بينهم رجال لهم أثداء نامية، ”المادة الأكثر إثارة على قائمتهم“، صاح السيد رضائي البريء، ”لقد حصلوا على هذه الأثداء في مدينة اسمها هولندا، إنها مكان ما في الخارج، في أوروبا. صدور كبيرة، كبيرة، وكانت حقيقية، قالوا. أخذوا حقنة من نوع ما هناك وحصلوا على تلك الأثداء الضخمة“، قال وقد استعاد صوته حيويته، ”كم هذا مقرف!“، تمالك نفسه، ”عندما أحضروهم إلى هنا معي، سمعت أن الحراس كانوا يتقاتلون على من يجب أن يعريهم للتفتيش، الأخوات أم الإخوة! هل يمكنك أن تصدق هذا؟ هؤلاء الحراس أرادوا أن ينكحوهم، أعرف. كانوا يخرجون أحشائي من شدة الضرب، ولم يرفعوا إصبعاً في وجههم. لماذا؟ من يريد أن ينكح عاهراً ينزف؟“.

لم أسمع أخباراً عما يحدث في السجن أو خارجه منذ نقلت إلى المستوصف. كان الرجال ذوو الأثداء، كما باتوا معروفين في السجن، يساعدون مكتب المدعي في القبض على الرجال (وربما النساء) الذين تمتعوا بخدماتهم. استقلوا حافلة كل يوم وتجولوا في المناطق المشبوهة في المدينة، خاصة الجمرك. ميّز الرجال ذوو الأثداء زبائنهم بين الناس في الشارع. وهناك كان السيد رضائي في واحد من تلك الأيام السيئة "عائداً للتو من يوم عمل شاق في أعمال البناء في ميدان فَنَك في الجزء الشمالي من المدينة".

لم أستطع أن أكتشف من حديثه لماذا عُذّب وماذا كان يريد المحقق منه. كان من غير المعتاد أن يحضروا مجرمين عاديين إلى السجن الذي كان مخصصاً في ذلك الوقت للخصوم السياسيين.

بقي نزيفه غامضاً. رأيت العديد من الناس يتعرضون لتعذيب وحشي ولم أرَ أبداً أي حالة من النزف الشرجي بتلك الشدة. كان يموت. بعد ساعتين، أشبعت الملاءة الجديدة التي غطته بالدماء. كان مستقراً ويشعر بالارتياح لي.

"ليس لي أحد غيرك"، قال بهدوء وهو لا يعرف أنني سمعته يقول الشيء نفسه للحارس الذي أحضره إلى هنا.

"سأكون هنا من أجلك، لا يهم ما سيحدث، سيد رضائي"، سايرته.

"لستُ من العائلات المعروفة"، ضحك بفخر لأنه صار عندنا الآن نكتة مشتركة خاصة بنا.

نهضت من سريري لأبدل له ملاءته بواحدة جديدة من السرير المجاور لسريري. بدا منهكاً ومسالماً. وبينما حاولت أن أزيل الملاءة عن أسفل خصره، قاطع ساقيه وسحب ركبتيه إلى بطنه ليخفي عضوه. أمسك ذراعي بيده الخشنة الممتلئة، وتمكن من إحكام قبضته للحظة. كلانا كان غير مرتاح، خاصة بعد الحديث عن تهمه وعن الرجال ذوي الأثداء. لكن كان عليّ أن أغير له الملاءة.

"أنا لا أنظر"، طمأنته، "ليس لديك أثداء، هل لديك؟".

لم يكن ذلك مضحكاً له. "لا تمزح بخصوص هذه الأشياء"، اعترض، "لقد أخبرتك للتو أن لدي زوجة وطفلين. أنا لست مثلهم. لماذا لا يقتلوني وينهون الأمر بـ...".

قبل أن ينهي حديثه، تمكنت من فك الملاءة، حزمتها، ورميتها في زاوية الغرفة، تحت سريره.

"حسناً سيدي. يجب فقط أن نلفك الآن بملاءة جديدة نظيفة وننتظر حتى نحصل على بعض المساعدة لك في الصباح". أرخى عضلات جسده النحيل ورفعت ساقيه من خلف مفاصل ركبتيه، واحدة في كل مرة، لأدفع الملاءة الجديدة تحت وركه، ولأرى كذلك هل هناك أي جروح من فعل السياط أسفل قدميه. الشقوق الوحيدة الواضحة على قدميه كانت من الجلد المتصلب على كعبيه. لففته بالملاءة بعناية وضغطتها عند فتحة شرجه.

"لم أكن في حياتي في موقف كهذا، باستثناء المرة التي تناولت فيها صندوق الخيار ذلك"، قال بلا مبالاة.

"ماذا؟"، رددت، "ظننت أن المرة الوحيدة كانت عندما شعرت بألم في الرأس وأخذت حبتي أسبرين لعلاجه. الآن تقول لي إنك مررت بمثل هذا قبل؟"، حاولت أن ألتقط أنفاسي بعد أن عدت إلى سريري.

"لا، اختبرت نزيفاً كهذا مرة واحدة فقط في حياتي كلها. زارني عمي بعد شهرين من انتقالي إلى طهران. أحضر معه عشرة صناديق من الخيار الطازج: ريان، وأخضر، ونحيل كالقلم، وبلا بذور، وحلو كالسكر، أفضل منتج في قريتنا. أراد أن يرى هل بإمكانه بيعها في ميدان الجمرك، لعله يغلق متجره في لرستان مستقبلاً ويفتح متجراً صغيراً هنا. وأنا أحبُّ الخيار. كان خطئي أنني فتحت أحد

تلك الصناديق. كيف يمكن للإنسان أن يقاوم ذلك الخيار الصغير؟ كنت بعيداً عن البيت منذ شهرين وكانت ثمار الخيار اللذيذة، التي نمت في تراب وطني، هناك أمامي. أكلت واحدة، اثنتين، ثلاثة، ولم أستطع إيقاف نفسي. وقبل أن أنتبه كان الصندوق انتهى كله واستقر في معدتي؟ تماماً كما قال الطبيب في بروجرد لزوجتي: يجب أن أتجنب الفواكه الطازجة والخضار النيئة".

أدركت، مع اتساع قصة مرضه، أنني لن أستطيع أبداً الوصول إلى قاع تاريخه. كانت الاحتمالات تفترض أنه لم يتعرض حتى للجلد. لم أرَ ندوباً في أي مكان من جسده. استنتجت أن الحراس ضربوه وأن الضرب هيج الخلل الذي عانت منه أمعاءه أياً كان.

وصل مريض جديد في الصباح إلى جانب فطورنا المؤلف من خبز يابس، وشريحة صغيرة من الجبن، والشاي الفاتر. كان شاباً في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة. لم يكن معصوب العينين، وصافح الحراس قبل أن يدخل الغرفة وهو يشكرهم على "التعامل السريع مع قضيته". لم تكن هذه أخباراً جيدة. جلس بسهولة على السرير المجاور لسرير السيد رضائي دون أن يحيّي أياً منا.

"هل تريد فطوراً؟"، سألت القادم الجديد باحترام.

"لا شكراً لك"، أجاب بأدب، ووضحت لغة جسده أنه لا يريد أن يتابع التحدث معي. كل العلامات كانت هناك. هذا السجين الشاب رأى الضوء، وتمت الصفقة، وعمل "جاسوساً".

همست في أذن السيد رضائي وأنا أساعده كي يجلس ويتناول فطوره ألا يقول أي شيء عن الحراس، أو المحققين، أو القضاة. "صديقنا الجديد سيخبر الحراس كل ما نقوله هنا"، حذرته. أومأ برأسه مشيراً إلى أنه عرف سلفاً ما الذي يجري.

"إذاً ما الذي جاء بك إلى هنا، أيها الشاب؟"، وجه سؤاله إلى الجاسوس وهو يرشف شايه.

"أنا مريض"، أجاب الشاب شارداً.

"تعرف، أنت تذكرني بابني"، بدأ السيد رضائي روايته الجديدة، وصوته يتصدع، "يا الله، أشتاق له كثيراً. تعرف، أظن أن الله أنقذني"، تنهد، "طبعاً بمساعدة الأخ سوهراب" – لم أعرف من كان سوهراب ذاك – "لذا يمكنني أن أحقق أمنيتي الوحيدة في هذه الحياة. قد تظن أنني لست إنساناً صالحاً. لا بأس، لقد ارتكبت خطايا في حياتي ولم أسأل عن إرادة الله. إذا أراد الله أن أكون هنا في هذه الحال، فليكن، أنا أقبل ذلك. ذلك معنى ديننا. الإسلام يعني الخضوع، لمن؟ هل تعرف؟"، سأل الشاب.

بدا الجاسوس غاضباً ولا يريد الدخول في أي محادثة.

"لإرادة الله"، عبر السيد رضائي عن حكمتهن "ذاك جيد لي. أجلس هنا أنزف وأقبل ذلك، لأنه لا يجب لأيٍّ كان أن يناقش إرادة الله".

ربما كان إبراهيم رضائي واحداً من عائلة رضائي المشهورة. كان مؤثراً جداً في تفسيره القسري للإسلام. من شخص لا يستطيع مقاومة ثمار الخيار الصغيرة إلى شخص عرف المعنى الحقيقي للإسلام، قطع صديقي مسافة طويلة ليلاً. كنت أنتظر الهدف من الخطبة.

"لكنني لا أريد أن أموت الآن. يا الله، هل تسمعني؟ هذا ليس طلباً أنانياً. لا أريد شيئاً لنفسي، كما قبلت قدري سابقاً وكلي أمل فإنني سأقف بين يدي الله القوي بضمير مرتاح. يا الله، لا تأخذ حياتي قبل أن أصحب ابني ليرى الإمام الخميني. أريد من الإمام أن يلمس رأسه ويباركه بيده. فيكبر ليصبح جندياً في حماية هذه الثورة وخادماً لقائدنا الأعلى. هذه أمنيتي الأخيرة".

لم أستطع أن أنهي كأس الشاي خاصتي. امتلأت عيناي بالدموع من ضغط الضحك الذي اندفع من أحشائي. استدار ونظر في عيني وسألني بإيماءة من يده كيف كان أداؤه. مسح فمه بظهر يده وهو

يستعد ليطلق هجوماً آخر على أذني الشاب المسكين.
أشرت له أن ذلك ربما كان كافياً.
"إبراهيم، هل تريد أن آخذك إلى الحمام؟ يمكننا أن نطلب من الحارس أن يخرج هذه الملاءة الملوثة بالدم أيضاً. إنها تتعفن هنا".
"أياً كان ما تتمناه، الوقت يمر بسرعة كبيرة لي، لكنني لن أفقد إيماني بالله".
لم ينبس الشاب بكلمة. أدار ظهره له وتظاهر أنه نائم دون حركة مع أنفاس عميقة طويلة.
جعل وجوده الغرفة لا تحتمل. كان ألمي يزداد سوءاً والسيد رضائي يغيب عن الوعي ويعود إليه طوال اليوم.
أخرجوا الجاسوس في وقت متأخر بعد الظهر. أظن أنه طلب منهم أن يضعوه في غرفة أخرى عندما ذهب إلى الحمام بعد الغداء. كان ذلك لسوء الحظ. فقد السيد رضائي الجاسوس الذي سينشر أحاديثه في ممرات مكتب المدعي.
كان وضعه يتدهور بثبات. وبحلول العاشرة مساء، كنت قد بدلت له ملاءتين. كان يجهد ليبقى واعياً وكلما فتح عينيه ورآني، ابتسم ابتسامة صغيرة.
"هل ذهب؟".
لم أكن متأكداً من قصد بسؤاله، لكني افترضت أنه كان يتحدث عن الجاسوس.
"نعم، لكن لا تقلق، ستكون بخير"، كذبت هذه المرة لأخفي قلقي المتزايد.
طرقت الباب لأطلب المساعدة من الحارس. بدا المكان مهجوراً. لا صوت، لا علامة على وجود أي روح خارج الغرفة. طرقت وصحت حتى آلمتني يدي وبُحّ صوتي. لم يأتِ أحد. ضربت الباب بسلة القمامة وأخيراً سمعت صوتاً غاضباً من حارس. لم أظن أبداً أنني قد أقدر ذلك الصوت السيئ الشرير.
"أيها الحارس"، صرخت، "نحتاج مساعدة!".
أتى إلى الباب وهو ما زال يمضغ طعامه.
"ضربة أخرى على الباب وسوف ألقنك درساً شخصياً"، قال. وضع إصبعاً في فمه محاولاً أن يزيل بعض الطعام العالق.
"إنه يموت، إنه ميت تقريباً".
دخل وألقى نظرة سريعة على جسد السيد رضائي الضعيف. وضع يديه في جيوبه يفتش عن شيء ما، ربما مفاتيح لمكان ما.
"إنه يوم عطلة"، استهجن، "لا يوجد أحد ليوقع على أوراق نقله إلى مستشفى"، أضاف بواقعية، "ليلة سيئة للموت، ههه؟".
فتح السيد رضائي عينيه دون أن يقوى على الرد.
"دعني أرى ماذا يمكنني أن أفعل"، قال الحارس قبل أن يغادر، "لا تطرق على الباب؛ سأعود".
جهّزت نفسي لقضاء الليل مع جثة السيد رضائي المسكين. كان يئن بين حين وآخر ويسأل هل أنا هنا.
"نعم، نعم"، طمأنته، "ستكون بخير"، خرجت الكلمات من فمي تلقائياً تقريباً.
قبل أن تمر ساعة، فُتح الباب ووقف حارسان في الخارج، بينما دخل حاج آغا بنفسه إلى الغرفة. ألقى نظرة سريعة عليّ من خلف نظارته الداكنة التي ضخّمت عينيه الجاحظتين على نحو مبالغ فيه،

فبدتا بارزتين خارج جوفيهما. دخل ووقف بجسده المستدير ونظرته المتصلبة بين سريري وسرير السيد رضائي.

''كيف حالك؟''، سألني دون أن ينتظر مني جواباً، ''ما اسمه؟''.

''إبراهيم رضائي''، أجبت.

''كيف حالك، سيد رضائي؟''.

لماذا يسأل الناس مثل هذه الأسئلة الغبية؟ هل هو بحاجة فعلاً أن يسأل هذا الرجل المسكين كيف حاله؟

أَنَّ السيد رضائي وغمغم فقط أنه كان يموت.

وقف حاج آغا هناك دون أن يقول شيئاً، يفاضل الخيارات، ويحلّل فائدة وكلفة الوضع. هل كان من الأفضل تركه يموت هناك ونقل جثته بعد ذلك، أو من الأسهل أخذه الآن إلى المستشفى والتعامل مع النتائج لاحقاً؟ نادراً ما يرى الشخصُ حاج آغا متردداً. جعله هذا يبدو أقصر وهو ينظر إلى الأرض، ويحكّ أنفه.

استدار حاج آغا وسط أفكاره العميقة، واعتذر لأنه أدار ظهره لي. عرفني حاج آغا بعد مدة قصيرة جداً، فهو يعرف كل السجناء المحكومين بالإعدام. وبسبب تقدم إصابتي بالسرطان، كان عالماً بحالتي على نحو خاص ونصحني في مناسبات عدة أن أخطو باتجاه ''الطريق القويم''. كان دائماً مؤدباً ومحترماً، ونادراً ما تخلى عن لطفه. وقّع أوامر الإعدام لآلاف الأشخاص دون أدنى غضب أو شك. اعتذر بسهولة لأنه أدار ظهره لي ولأنه لم يعاملني باحترام وهو يتحدث إلى الرجل الميت، لكن لم يكن نادماً على آلاف أحكام الموت رمياً بالرصاص.

''لا مشكلة''، قلت له، ''هل ستفعل شيئاً من أجله؟''، سألت بخجل.

''نعم''، أجاب وأشار للحراس أنه انتهى.

بعد أن غادر سألني السيد رضائي الذي كان واعياً نوعاً ما لكل الهرج والمرج: ''من كان هذا؟''.

''حاج آغا بنفسه، أنت محظوظ جداً. سيعتني بك مباشرة''.

''من هو حاج آغا؟''.

''المعلم بحد ذاته، مدعي الثورة الرئيسي أسد الله لاجوردي، الشخص الذي يمسك حيواتنا بيده، آغا إبراهيم، الحاج آغا''.

''أشهد أن لا إله إلا الله''، استوى في جلسته مهتاجاً وخائفاً، ''أخبرتهم أنني كنت بريئاً''.

''ما المشكلة، لماذا تبحث عن التبرئة فجأة''.

''سيعدمني الليلة''، قال باكياً وهو يفقد وعيه.

إذاً، وصلت سمعة حاج آغا إلى البلدات والقرى الصغيرة بين دورود وبروجرد. تمنيت لو عرف حاج آغا أن لفظ اسمه حمل كلمات التقوى إلى شفتي السيد رضائي غير المعروف. بعد بضع دقائق عادوا لأخذ السيد رضائي إلى المستشفى. أخبرني الحارس ذو الفم الملوث بالدهن كم هو محظوظ هذا الرجل المريض أن حاج آغا كان موجوداً في السجن، وإلا لم يكن هناك وسيلة يضمنون بها نقله إلى المستشفى. ''هل هذا أنت سوهراب؟ أخ سوهراب؟ قلت لك ليس لدي أحد في هذا العالم، عرفت أنك ستأتي وتعتني بي...''، تلاشى صوت رضائي.

بعد بضعة أيام، أتى الحراس وسألوني عن أغراض محمد بنهنده.

''لم يحضر أي شيء إلى هنا. أتى في الصباح وغادر بعد ساعتين فقط''، قلت معتقداً أنهم كانوا يتحدثون عن الجاسوس.

”لا“، قال الحارس الغاضب، ”الرجل الذي كان ينزف، هل ترك شيئاً من أغراضه هنا؟“.
”لا“، قلت له مبتسماً، ”لم يترك السيد بنهنده أي شيء هنا، سوى اسم مزيف“.

الانقلاب الشتوي

رغم أنه تخيّل طريق هربه مراتٍ لا تعد ولا تحصى، حذف عقلُه ذاكرة كل تلك المخططات الدقيقة في اللحظة التي رنّ فيها الجرس. فكّر دوماً، لسببٍ غير واضح، أنهم سيأتون في طلبه في منتصف الليل. لم يرَ نفسه أبداً في كل تلك جلسات التخطيط المتقنة يركض في وضح النهار. سيخرج من شقته الموجودة في الطابق الثاني، ويتسلق الدرج إلى السطح في الطابق الثالث ثم يقفز مسافة عشرة أقدام إلى سطح الطابق الثاني للبناء المجاور، وينزل في الزقاق الخلفي الذي ليس له فتحة على حيه، وينتهي في الشارع الذي يركن فيه سيارته دوماً ويقود بعيداً في أمان. كان المخطط سهلاً وفعالاً ومرناً وعملياً، من الناحية النظرية. سأل نفسه: ماذا سيفعل إن هاجموا المنزل دون إنذار وقبضوا عليه نائماً، ماذا لو اعتقلوه في الشارع، ماذا لو أطلقوا قذيفة آر بي جي – 7 داخل غرفته تماماً وتخلصوا منه بتلك الطريقة، بما أنه كان معروفاً ماذا يفعلون مع أكثر "معادي الثورة" خطورة. لكنهم لن يفعلوا ذلك به؛ لم يكن مسلحاً، وضمنت معرفته بمداخل ومخارج المنظمة أمانه عملياً حتى يصل إلى غرف التحقيق.

رنّ الجرس مرة واحدة فقط لكنه عرف أنهم هم. كان هناك تعليمات للجميع ألا يزور الرفاق الأعضاء في المنزل. تمنى أنه يستطيع أن يرفع الستائر قليلاً جداً فقط، لكن ذلك قد يعرض مخططه للخطر. سيعرفون، إذا كانوا هم بالفعل، أنه في المنزل وسيقتحمون البناء في الحال. لكن لماذا يمتنع عن تنفيذ مخططه؟ ماذا لو أنه مجرد شحاذ؟ سيكشف هويته بالقفز من السطح والركض ويخسر آخر مكان آمن لديه. لم يكن مستعداً لمغادرة البلاد بعد.

رنوا الجرس ثانيةً بقوة أكبر هذه المرة: ثلاث رناتٍ طويلة. خرج من شقته حافي القدمين وألقى نظرة نحو أسفل الدرج باتجاه الباب الأمامي. أبطأ إحساس ثقيل بالممانعة حركته. تشتت ذهنه بأسئلة وجودية حول تورطه في الحركة الثورية، أسئلة لم تظهر أبداً عندما تخيل هذه اللحظة. كان رجلاً قوياً وطويلاً ونحيلاً في أواخر الأربعينات من عمره، ولم يكن لديه أي مشكلة في الهرب. كانت ساقاه مستعدتين لكنهما تحدتاه فجأة بطريقة ما. قلص الرعب أنفاسه إلى لهاث قصير طلباً للهواء. ربما ما كان هذا ليحدث لمحارب ثوري لا يتجاوز عمره العشرين.

سمع خلفه صوت تحطم زجاج الباب الأمامي وهو يفتح باب السطح. دلف إلى السطح من الممر المظلم، وكانت شمس منتصف الخريف البطيئة لا تزال قوية كفاية لتعمي بصره مؤقتاً. حالما تمكن من الرؤية لاحظ وجود ظلال حارسين مسلحين يوجهان رشاشاتهما إليه من سطح البناء المجاور ذي الطابقين. تفوقا عليه. ركض نحو الحافة المقابلة وقفز دون تردد نحو الزقاق. كانت تلك الطريقة الوحيدة الممكنة للهرب التي استطاع إنقاذ نفسه بها. هل كان يحاول أن يقتل نفسه كي يتجنب إلقاء القبض عليه حياً أو كان يحاول الهرب فقط؟ لم يعرف. لم يكن واضحاً هل أطلقوا النار عليه؛ لم يتمكن من سماع شيء.

اصطدم في الأسفل بجدار البناء الواقع في الطرف الآخر من الزقاق لكنه تمكن من الوقوف على قدميه. لم يشعر أبداً أن جسده كان عملاقاً جداً بالنسبة إلى ساقيه. فتح عينيه بعد يومين على ساقين مهشمتين، وشفة مشقوقة، وذراع مكسورة في ثلاثة مواضع، ونبض في الرأس. كان برعاية "الحرس الثوري" في مستشفى عسكري. نجا من السقوط لكن ليس من الهجوم. قضى أكثر من شهر

في المستشفى، حيث أوقف الأطباء نزيفه الداخلي وأعدّوه للقائه الجدي الأول مع محققيه على أرضهم.

لم يكن لديهم الكثير من المعلومات عنه. قاد طرف مجهول "الحرس" إلى مكانه. أثار الشكوك حوله كونه رجلاً عازباً ودون عمل، ولم يأتِ أحد لزيارته قط، ولم يكن ودوداً وتحديداً مع جيرانه. لم يعرفوا شيئاً عن نشاطاته سوى أنه فضّل قتل نفسه على أن يُعتقل.

حمله اثنان من الحراس على نقالة إلى الغرفة رقم 15 من مستوصف السجن عشية الانقلاب الشتوي. كانت ساقاه كلتاهما ملفوفتان بالجبائر حتى أسفل ظهره، وذراعه من الكتف حتى المعصم.

وضعاه في السرير بحركة سريعة قاسية كما يقلب الباعة الجوالون في شوارع ميدان توبخانه[22] في طهران كباب الحمل على المشواة.

22 ميدان تاريخي يقع وسط طهران وتحول بعد الثورة إلى "ميدان الإمام الخميني". وتوبخانه تعني بالعربية المدفعية. وهذا الميدان، فضلاً عن أنه أحد المراكز الرئيسية في المدينة، هو مكان لاجتماع المحتجين وأحياناً تنفذ فيه أحكام الإعدام.

كانت تلك أول مرة أرى فيها جاري الجديد، محمد. وقف الحراس في الغرفة بضع ثوانٍ إضافية ينظرون حولهم دون هدف.

"اعتنِ بهذا"، أمر أحدهم موجهاً إصبعه نحوي.

ما زلت لا أستطيع أن أرى وجهه، فقط شعره الأشيب المجعد الطويل وبقعة صغيرة صلعاء لا تكاد مرئية في أعلى رأسه. تمكنت من النهوض من سريري والسير إلى سريره. أمسكت يده وابتسمت. نظر إليّ وانهمرت الدموع بغزارة على الوسادة.

"إلى أي درجة أبدو سيئاً؟"، سألني بلهجة نصف ساخرة.

"كم عمرك؟"، أجبت.

"تسعٌ وأربعون"، تمتم.

"تبدو مريعاً".

"شكراً"، ابتسم، "كم يبدو عمري بالنسبة إليك؟".

"خمسون، واحد وخمسون"، قلت، "أود أن أسمع قصتك"، قلت له، "لكن الآن يجب أن نقرر ماذا نريد على العشاء، لأنهم سيأخذون طلباتنا في غضون دقائق قليلة وهم ليسوا صبورين أبداً لينتظروا ونحن نفكر ماذا نريد أن نطلب. هذه هي الميزة الوحيدة لأن تكون في المستوصف".

ابتعدت عنه وجلست على السرير الخالي المجاور لسريره.

"لم تدخل بعد الزنزانات النظامية؟".

"لا"، قال مستهجناً الفكرة.

"لهذا السبب عليك أن تقدر هذا طالما هو موجود".

تلاشت نظرته المتشككة وحلت محلها نظرة أكثر فضولاً، "ما الخيارات لدينا؟".

"هل لديك أي قيود غذائية؟ تعرف... بسبب الجبائر... تعرف... أنت لا تستطيع... كيف يجب أن أقول ذلك، لا يمكنك أن تقوم بالثانية، أو ربما حتى الأولى".

"سآكل أي شيء. هل سيحضرون لي مبولة؟".

"هل هو في الخارج؟".

"نعم، ليس مكسوراً"، ظهرت ابتسامة على وجهه المجعد المليء بالشعر.

"ماذا عن الثانية، إذاً؟".

"الثانية إزعاج كبير وإحراج ضخم".

”لكن كيف تقوم بها؟“.
”هناك ثقب في الجبيرة... ألم نكن نتحدث عن العشاء؟“.
”حسناً، أردت فقط أن أعرف هل تستطيع تناول الحساء“.
”أي شيء جيد، هل يمكنك أن تهتم بذلك الليلة؟ لا أريد أن أفكر في شيء الآن“.
”أنت بحاجة إلى الكثير من البروتين...“، قطع جملتي صوت العربة في الممر. كان الطعام على وشك الوصول ونحن لم نتخذ قراراً نهائياً بعد.
فتح الحارس الباب وسأل من مكان وقوفه في الممر: ”كم شخصاً؟“.
”اثنان“، قلت بصوت منخفض.
”من الجديد؟“.
أدخل رأسه داخل الغرفة وألقى نظرة متفحصة على محمد: ”ما مشكلتك؟“.
كان ذلك سؤاله الأساسي لكل قادم جديد. أدرك في الحال غباء سؤاله.
”ها هو عشاؤك“، قال وهو يضع آنية نصف ممتلئة بالمرق على صينية سريره، ”هل يمكنك أن تأكل؟“، صاح بأعلى صوته كما لو كان محمد أصمَّ.
”سأساعده“، قلت للحارس الذي كان ألطف نسبياً من الآخرين، ”لا معاملة خاصة من أجل الانقلاب الشتوي؟“.
”نحن لسنا وثنيين“، قال وهو يضع حسائي بعجالة قرب حساء محمد قبل أن يغادر الغرفة.
كان محمد حائراً حول موضوع العشاء بأكمله. نظر إليّ دون أن يشير إلى المزحة المتعلقة بطلبات العشاء وقال: ”هل تظن أن بإمكاننا الحصول على بعض الخبز مع هذا؟“.
”يحب ألا نطرق الباب أو نناديه. من الأفضل أن نأكله لأنه لا يزال ساخناً بعض الشيء“. رفعت رأسه وأطعمته ملعقة من حسائه. حاولت دون جدوى أن أجد كسرة من شيء من قاع الصحن تدل على أنه لم يكن مجرد ماء منكّه.
”أحب الطريقة التي قطعوا بها الجزر“، قال محمد غامزاً بعد أن التهم ملعقته الأولى من الحساء، ”لا أحب عندما يجعلونه سميكاً جداً، مجرد مقدار ضئيل من هذا الشيء أو ذاك يكون ممتازاً. كيف تحب حساءك؟“، ابتسم.
”لقد تناولت غداء كبيراً اليوم ولست جائعاً جداً الليلة. هل ترغب في الحصول على بعض حسائي؟“.
”لا، شكراً“، قال، ”عليك أن تكسب بعض الوزن وتتوقف عن كونك رشيقاً جداً“.
أخبرني محمد قصة اعتقاله بعد العشاء مع تحلية لذيذة من البقلاوة والشاي الساخن.
”لماذا قفزت؟“، سألته.
”دعنا لا نفسد انقلابنا. دعنا نرى هل لدى حافظ الجواب عن ذلك“.

تبعنا التقليد[23]، أخبرته عن حظه من أشعار الشاعر الفارسي حافظ من ديوانه الشهير. قضمنا البذور الياقوتية المتألقة لثمرة الرمان المليئة بالعصارة، التي وضعناها في آنية فضية بين سريرينا.

23 إشارة إلى التقاليد الوثنية المرتبطة بيوم الانقلاب الشتوي حيث يستدل الناس إلى مصائرهم من رموز معينة.

”هل تعرف أي قصائد للسعدي؟“، قال، ”أعرف أن الليلة هي ليلة حافظ، لكن...“.
”لا مشكلة“.

أيتها القافلة، سيري ببطءٍ وأنت تأخذين محبوبي معك
القلب الذي انتمى مرة إليّ، تأخذينه بعيداً معك

سمعت حكايات عن الروح التي تغادر الجسد
أرى الآن بأمّ عيني كيف تحملين روحي معك.
”لا أريد أن أموت“، بكى محمد بلطف.

الساعة

ركل الحارس الباب الفولاذي الثقيل بإزعاج ليُفتح على اتساعه. اصطدم الباب بالجدار المغطى بالعاج من الداخل مسبباً كسر قطعة منه طارت مسافة خمسة عشر قدماً على طول الزنزانة. انتشر في الزنزانة رعب عابر ترافق بصمتٍ مشؤوم. فجأة أصبح للخوف وجه عندما ظهر الحارس، لكنه لم يكن مرعباً إلى تلك الدرجة.

خطا الحارس خطوتين إلى الداخل مرتدياً زيّاً بلونٍ زيتوني وحذاءً ملمعاً. وصاح بازدراء وبصوت مضخّم مزعج: "السيد المهندس!".

لم يتحرك أحد.

صاح مجدداً وهو ينحني قرب أذني: "السيد المهندس!"، موضحاً من كان يخاطب.

"هل تتحدث إليّ؟"، همست بعصبية متجنباً النظر في عينيه.

"هل هناك مهندسون غيرك في هذه الغرفة؟ ارفع يديك".

أدار رأسه في الغرفة ونظر بسرعة إلى الزاويتين الثانيتين في الغرفة. اختفت ابتسامته المهددة.

"ألم تكن طالب هندسة؟"، قرّب وجهه مني أكثر.

"نعم كنت، لكن لم ينادني أحد بالمهندس من قبل".

دخل الحارسان الآخران بعد أن نفد صبرهما.

"ماذا كنت تدرس؟ هندسة النسيج؟".

"لم كل هذا؟".

"بحق الجحيم، ما هي هندسة النسيج على أي حال؟ ظننت الحياكة عمل النساء".

"ما علاقة هندسة النسيج بالحياكة؟".

"لا تتحذلق معي".

"لم كل هذا؟".

لم يكونوا هناك ليناقشوا الأنسجة أو شهادتي.

"انهض!"، قال آمراً.

قبل أن أتمكن من سؤاله أي سؤال، أدرك الحراس المتململون أنه حان دورهم ليثبتوا وجودهم. اقتربوا ووقفوا قربي واحداً من كل جانب. "أسرع"، أمرَا بصوت يعكس توقهم لتجربة توجيه الأوامر إلى السجناء.

أعاق ضعف جسدي السرعة التي طالبوني بها. كنت عائداً للتو من مستوصف السجن بعد أن قضيت شهرين من العلاج لفحص العقد اللمفاوية المتضخمة في رقبتي. ولأن الفحص أثبت مباشرة أنني كنت أعاني من السرطان، تركوني هناك من أجل مضاعفات ما بعد إجراء الخزعة فقط. لم يكن لديهم نية لمعالجة مرضي، ولم يخبروني حتى ما هو التشخيص. لم أكن بحاجة إلى أن أرى تقرير الخزعة كي أعرف. "نحن لا نضيع أسرّتنا من أجل المحكومين بالموت"، قيل لي ذلك في اليوم الذي أُخرجت فيه من المستوصف وأعدت إلى زنزانات السجن النظامية.

وقف الحراس قلقين يراقبوني أجاهد لحمل جسدي فوق ركبتيّ المرتجفتين. كانت تلك أثقل مئة باوند اضطررت إلى حملها يوماً. كان قميصي الداخلي الرث، الذي كان أبيض ذات مرة، مبللاً بوضوح وملتصقاً ببطني المجوف. لم أقوَ على الوقوف باستقامة، فاستندت إلى الجدار خلفي

وفصلت جسدي عن دعامته الصلبة بدفعة خفيفة. استدرت نحو الباب وشعرت بقشعريرة مفاجئة وأنا أقترب من الممر المفتوح. لفحني الهواء البارد القادم من الممر متآمراً مع الحراس ضدي. اخترق جسدي وجعلني أبدو أضعف. حاولت بيأس أن أرتدي قناع التحمل لكن جسدي رفض أن يلعب هذا الدور.

خطوت إلى الخارج وصيحاتهم تطلب مني أن أسرع بضع خطوات للأمام. "لم كل هذا؟"، لا أذكر هل سألت نفسي بصوت منخفض أو سألت بصوت عالٍ سمعوه.

قام الحارس الأول بخطوتين كبيرتين جداً إلى الأمام، وبإيماءة حازمة، جعلني أتوقف.

"من هو الأذكى بيننا؟"، سألني باعتداد.

لم يكونوا طالبين للجواب. صفعني أحدهم وركلني آخر في معدتي؛ قطعوا أنفاسي.

لهثت وسقطت. لم أشعر بالألم مع أن ركلاتهم كانت مستمرة.

تنفس... تنفس.

بحثت عميقاً وعميقاً جداً عن بقايا القوة في جسدي.

تنفس... تنفس.

ما زلت لا أشعر بالألم، فقط أجاهد لأتنفس.

عندما فتحت عيني، كانت الأرض حولي مبللة وكان هناك حارسان جديدان ينحنيان فوق رأسي بقلق.

"اذهب وأحضر أغراضك"، قال أحد الحارسين الجديدين بلطف.

زحفت نحو الجدار دون أن أدرك الاتجاهات. لم أستطع تذكر أين كانت زنزانتي وماذا طلبوا مني أن أفعل بالضبط. خطوت بضع خطوات متأرجحة فقط يفترض أنها كانت إلى الأمام.

انحسرت عدائيتهم. شعرت أنهم كانوا قلقين فعلاً. لوّح أحدهم بحقيبة بلون بني فاتح وبطانية كبيرة أمام عيني.

"هل هذه لك؟".

كانت لي.

دلني الحارس على الطريق وهو يحمل أغراضي، وساعدني أحدهم على المحافظة على توازني بأن أمسك ذراعي من الأعلى.

"امشِ بهدوء، لا داعيَ للعجلة".

"خذ نفساً عميقاً".

شعرت بالدوار والخمول الشديد. استمررت أشكرهم على كونهم متفهمين جداً. كانوا لطيفين معي وفجأة لم يعد مهماً كيف وصلت إلى هناك. لا أستطيع أن أتذكر حتى ماذا حدث بالضبط، فقط أنهم كانوا لطيفين في تلك اللحظة. هل هناك خطأ؟ هل عرفوا كم كنت مريضاً؟ لم أعرف أن الجرح الموجود على يسار رقبتي، والناتج عن استئصال الخزعة، فُتح وعاد ينزف بغزارة. لفت الدم الذي ملأ قميصي انتباهي إلى ذلك.

توقفنا أمام الزنزانة رقم 76. فتحوا الباب بهدوء، ووضعوا أغراضي في الداخل وأشاروا إليّ بدفعة خفيفة على ظهري. زادت الزنزانة المزدحمة مع الكثير من النظرات المتسائلة تشويشي. اندفع عدد من الأشخاص نحوي مباشرة بعد أن أُغلق الباب، وساعدوني على الوصول إلى الطابق الأوسط لسرير مؤلف من ثلاث طوابق في الطرف الأيمن من الغرفة. وضعوني فوقه بسرعة كأنهم كانوا متمرنين على ذلك. كأنهم علموا بقدومي وعرفوا كيف يستضيفوني. نظفوا وجهي بمنشفة،

وجعلوني أشرب كوبين من الماء، ووضعوا وسادتين تحت رأسي بحيث تمكنت من التنفس على نحو أسهل. ضغطوا منديلاً على جرح رقبتي بحذر. بعد بضع دقائق التقطت أنفاسي واستطعت تبديل كنزتي بواحدة جديدة من حقيبتي. لم يُطرح أي سؤال، ولم يكن هناك حاجة إلى قول شيء.

ظهر صلاح فوراً من وسط الحشد المجتمع حولي كمدير لعملية الإنعاش. أبعد الآخرين عن السرير ولسبب ما ادعى أن هذا مكانه.

"أعرفه"، سمعته يتجادل مع السجناء الآخرين. كانت تلك إجازته ليكون المسؤول.

"أعرفك"، قال لي وهو يبتسم ويكشف عن أسنانه المسوسة.

ثم أغلق فمه عمداً وهز إصبعه باتجاه أحدهم كان يقترب من السرير معيداً تأكيد ادعاء أحقيته بالمكان.

"دعوه يستريح".

أدار رأسه نحوي وابتسم من جديد. رغم أنه لم يكن قد فقد أياً من أسنانه، كان هناك فراغات كبيرة بينها. وكانت بكل الأحجام والأشكال. وضع راحة كفه بمحبة فوق صدري، ومسّد الشعر فوق أذني. شعرت بدفء الدموع التي اغرورقت بها عيناي.

لم يسألني أحد من أنا أو ماذا حدث معي. نظر صلاح مباشرة في عينيّ بابتهاج. هل نسيت أنني كنت أعرفه؟

"هل تريد شيئاً، خالو؟".

استخدم الكلمة الكردية التي تدل على أخ أو رفيق. اكتشفت متأخراً أنه كان في بداية العشرينات من العمر، رغم أن وجهه أوحى بغير ذلك. بدا رأسه أصغر مما هو في الواقع بسبب شعره الذي تحول إلى اللون الرمادي، وكان خفيفاً قبل الأوان. هززت رأسي مرتين في إشارة إلى أنني بخير. لفني ببطانيتي، وعاد إلى زاويته المقابلة في الغرفة متخلياً عن سلطته، وسمح للسجناء الجدد بزيارتي. بقي يراقبني بعناية من زاويته ليتأكد أن الآخرين لا يتعبونني.

لم يكن هناك مجال للنقاش بأن عليّ أن أنام تلك الليلة قرب صلاح. لم تعطَ الزنزانة، التي مساحتها اثنا عشر قدماً في خمسة عشرَ أكثر من مساحة للنوم لشاغليها الأربعين. كان البقاء على جانب واحد دون حركة ودون انثناء طوال الليل مؤلماً. وجعل هذا التنفس صعباً والنوم مستحيل فعلياً. فرش صلاح بطانيتي الكبيرة قرب الجدار في زاويته، ووضع بطانيته قربها، مؤكداً لي أنه لن يسمح لأيٍّ كان أن يعتدي على مساحتي.

بدلاً من النوم ببساطة كنت أغيب عن الوعي قليلاً وأعود. فبالإضافة إلى التنفس المؤلم، جعل خوفي من ألا أستيقظ ثانيةً النومَ ثقيلاً جداً. استيقظ صلاح بين حين وآخر، وسألني هل أحتاج شيئاً، وكان يعود إلى النوم بعد أن أجيبه بالنفي. هل تريد شيئاً؟ كان تلطيفاً لعبارة هل تريد كوباً من الماء؟ فلم يكن هناك شيء آخر يمكن لأحد أن يقدمه داخل الزنزانة، باستثناء تدليك الظهر المهدئ.

أصبح صلاح المسؤول عني: يعطيني الماء عندما أريده، ويدلك ظهري عند الحاجة، ويغسل ثيابي، ويساعدني في الاستحمام، ويحملني على ظهره غصباً عني إلى فسحة التنفس التي كنا نحصل عليها عشر دقائق في اليوم.

"أنت بحاجة إلى الشمس. ستعالجك"، أصرَّ بصدق. استخدم دوماً جملاً قصيرة ولم يستخدم أبداً أفكاراً معقدة. كان لديه فهم واضح للأمور الداخلية والخارجية في عالمه. كان متردداً وغير متأكد بوضوح من نفسه بالنسبة إلى أموره الداخلية، في حين أنه بدا واثقاً بقوة من الصواب والخطأ في تعاملاته مع الآخرين.

شغفه الآخر، إلى جانب إراحة الآخرين، كان ساعته. لبس ساعة Citizen إلكترونية قبيحة جداً مع سطح ضخم بلون أخضر داكن، وزرين بلاستيكيين كبيرين على كل جانب، وقشاط معصم بلاستيكياً أسودَ بالياً. فيها عقارب من الطراز القديم تخبر عن الساعة، والدقائق، والثواني.

"ليست حقيقية، هل ترى. يمكنني أن أجعلها تختفي كلها"، قال لي وهو يضغط واحداً من الأزرار السوداء الكبيرة. "يمكنك أن تكتشف الوقت في خمس مناطق مختلفة في العالم"، أضاف وعيناه تلمعان، "هل تريد أن تجربها، خالو؟".

"لكن لماذا عليّ أن أعيش في خمس مناطق زمنية مختلفة؟".

"أليس لديك فضول لتعرف كم الساعة في لندن الآن؟ انظر، العالم يتغير بسرعة كبيرة! قبل بضع سنوات كان شيئاً كهذا يعتبر سحراً، الآن إنه هنا في راحة كفي، حقيقيّ فعلاً".

تحدث بحماسة كبيرة، إذ لم أتمكن حتى أن أتظاهر أنني لا أهتم كم الساعة في لندن أو نيويورك. فرك الساعة بصدره واقترب مني أكثر.

"انظر، فيها آلة حاسبة حتى مع مجموعتي ذاكرة مختلفتين. دعني أريك".

ضغط بسبابته زراً على الجانب وبإبهامه زراً على الجانب الآخر. ثم نفد صبره قليلاً. احمرت أذناه وهو يغمغم: "أحياناً... آه! على أي حال، نسيت أي أزرار تشغل الآلة الحاسبة".

ثم سحب بطانيتي فوق أيدينا دون إنذار مسبق، "ميزتها الأجمل هي ضوء الليل". ضغط زراً آخر وأراني كم من السهل أن ترى الوقت في الظلام الكامل.

"هذا رائع عندما تكون في الجبال في منتصف الليل ولا تريد أن تستخدم المصباح".

بما أن الأضواء كانت موجودة على الدوام في غرفتنا، بدت ميزة ضوء الليل في الساعة متعطلة في أحسن الأحوال. كان التنفس يصعب عليّ وكان يجب أن أوقفه قبل أن يحاول أن يريني الوقت في باريس أو نيويورك في الظلام الدامس، أو أن يكتشف كيف تعمل الآلة الحاسبة تحت البطانية.

كان صلاح يحمل الساعة في يده غالباً بدلاً من أن يرتديها، مسلياً نفسه بميزاتها، ومحاولاً أن يكتشف ميزات إضافية فيها. لا أذكر أنه اكتشف شيئاً جديداً لكنه بقي مأخوذاً بها على الدوام. حين كان هناك حركة تحت بطانيته في منتصف الليل، كان الجميع يعرفون أن صلاح لم يكن يستمني، الشك العادي الذي تثيره هذه الحركة، وإنما يكتشف الوقت في جباله المظلمة.

قلت له إنه سيرهق البطارية بتفحصه الدائم للوقت في الظلام.

"هذه البطاريات تدوم للأبد"، أجاب بثقة، "لا تنتهي أبداً".

أحبّ الزر الذي جعل كل شيء على الشاشة يختفي من بين كل الميزات المعقدة فيها.

"انظر"، قال لي، "تذهب كلها... لا تواريخ، لا أرقام، لا شيء". أومض شاشة الساعة الخالية تماماً أمامي، "أريد أن أعيش في بلد تُصنع فيه ساعات كهذه".

ثم كشف أجندته الثورية.

"لماذا لا يمكننا أن نصنع أشياء كهذه؟"، صاح بينما تصدع صوته في لحظة نادرة من الجدية.

أصبحت الساعة له نقطة مركزية يدور حولها حنينه للحياة الريفية، عالياً في ظلام الجبال، لمحاربة الظلم، وتحقيق مجتمعه الطوباوي الذي يملك فيه كل شخص ساعة Citizen كالتي يملكها، مصنعة محلياً وموزعة بعدالة.

"لا يتعلق الأمر بالساعة"، وضع ثقته فيّ ذات مرة، "هي رمزي".

"لست مضطراً إلى الشرح"، قلت له.

"لا"، قال بلهجة حادة لم أسمعها منه أبداً،"دعني أنهي كلامي. أعطاني إياها أخي قبل أن يغادر إلى الجبال"، توقف قليلاً، ثم أضاف: "كانت تلك آخر مرة رأيته فيها".

شعر بالاختناق لكنه تمالك نفسه في الحال.

"المهم لي هو نوع المجتمع الذي يمكنه أن ينتج مثل هذه الأشياء المتطورة جداً".

تلاشى صوته في خلفية أفكاري. شعرت فجأة برغبة شديدة لأعرف كم كانت الساعة في باريس.

في أحد الأيام كنت أستمتع بالشمس المشرقة في الفناء في أواخر الربيع والآخرون يتجولون في دوائر. كان صلاح قربي يمارس روتينه العادي بأداء تمرين الضغط مئة مرة. دخل حارس الفناء ونادى باسم صلاح: "أسرع، اذهب واجمع أغراضك".

ازرقّت شفتا صلاح وتجمد وجهه المرعوب بلون أصفر شاحب. حاول أن يخادع برسم ابتسامة على شفتيه، لكنه فشل.

"هل يمكنني أن أعود معه؟"، توسلت للحارس، "أحتاج مساعدته لأعود إلى زنزانتنا".

عاد طيف من اللون إلى خدّي صلاح.

"أسرعا"، قال الحارس وهو يدفع صلاح نحوي.

"وهو كذلك، خالو"، قال صلاح وهو يمسك معصمي ويخفض كتفه تحت ذراعي ليساعدني على الوقوف.

كان يرتجف ولم يكن واضحاً من فينا حمل الآخر هذه المرة.

"وهو كذلك، خالو"، غمغم ثانية لنفسه ونحن نصعد الدرجة الأولى عائدين إلى غرفتنا.

عدنا بصمت. حُكم عليه بالموت قبل بضعة أشهر وكان ينتظر قراره الأخير من المحكمة العليا.

عندما عدنا إلى الزنزانة استدار متسائلاً ما الذي يحتاج إلى أخذه. ما الذي كان يحتاجه الشخص؟ وضع بعض ثيابه في حقيبته الصغيرة وساعدته ليغلق السحّاب. غادر اللون وجهه ثانية.

أعاد فتح الحقيبة وأخرج قبعة مطرزة يدوياً لم أرها قبلاً. وضع القبعة الكردية البيضاء والسوداء على وجهه لثانية قصيرة وقبّلها قبل أن يعطيها لي.

"شيء صغير لك لتذكرني به".

"كفاك هذراً"، صاح الحارس من الممر، "حان الوقت لتواجه خالقك"، أضاف بلا مبالاة، ثم أمر السجناء الآخرين أن يخرجوا من الحمام بسرعة.

"أريدك أن تأخذ هذه"، قال لي صلاح. نزع ساعته ووضعها في كلتا يدي، وأغلق أصابعي عليها.

لم أقل شيئاً.

أجبر نفسه على ابتسامة مختصرة أخرى ثم غادر.

أردت أن أختفي عن الجميع في تلك الليلة. أردت أن أصعد الجبال في ظلام كامل لأرى كم كانت الساعة. ضغطت الزر الأسود الكبير لكن لم يحدث شيء. خرجت من الظلام، والعقارب، والأرقام، والتواريخ كلها اختفت.

So Pocht das Schicksal an die Pforte [24]

24 ضربات القدر: السيمفونية الخامسة لبيتهوفن.

كان هذا عيد ميلادي، 28 حزيران/ يونيو، ثالث عيدٍ يمرّ عليّ وأنا سجين سياسيّ.
لم يكن للتاريخ أهمية خاصة خلال طفولتي ما لم يكن ميلاداً لأي نبيّ أو قائد معروف، أو بداية عام جديد في أي تقويم أعرفه. لكن في ذاك التاريخ من عام 1981، انفجرت قنبلة غامضة في عيد ميلادي. زرعت مجموعة إرهابية قنبلة تحت منصة المتحدث في مقر الحزب الجمهوري الإسلامي الحاكم خلال مؤتمر وطني، ما تسبب في مقتل أكثر من 15 شخصاً بينهم وزراء، وأعضاء في البرلمان، وقادة في الحزب. بدا أن من نفذ التفجير، أياً كان، لم يكن يتوقع هذا المستوى من التخريب. قالت الشائعات إنه حين وصلت أخبار التفجير إلى حاميات "الحرس الثوري"، هجر عدد كبير منهم مواقعهم، خوفاً من أن تنهي تلك القنبلة الحياة القصيرة للنظام الجديد، وإن القادة العسكريين عملوا في تلك الليلة الطويلة على شروط استسلامهم، وفكر أعضاء الحكومة، والعديد منهم كان قد قُتل، في الاستقالة الجماعية، آملين أنهم ربما ينجون بذلك من حكم الإرهاب في حال استولى نظام ثوري على السلطة.
أنا شكاك بخصوص الشائعات وخاصة هذه. لكن الشائعات غالباً ما تقدم بعض الفهم لحجم الحدث. الشيء المهم كان أن التفجير غيّر طبيعة اللعبة السياسية والصراع على السلطة. ذهبت الأيام التي كانت تجرب فيها الحكومة أنواعاً مختلفة من التخويف والإزعاج واحتواء النشاطات السياسية للمعارضة. فهي لن تعمل بعد اليوم على تعبئة مجموعات غوغائية ودفعها إلى مهاجمة الاجتماعات السياسية وطعن وجرح المشاركين الشباب في غالبهم. هناك حزب معارض واحدٌ، على الأقل الآن، "مجاهدي خلق"، مجاهدي الشعب، أعلن الحرب بوضوح على النظام وأظهر أنه لن يتردد في ارتكاب جريمة جماعية لتحقيق أجندته السياسية. الهدف الرئيسي للتفجير كان آية الله بهشتي، رأس السلطة القضائية، المعروف بتأثيره الكبير، وأعماله الحاسمة، وخطاباته الثاقبة. لم تكن تلك المرة الأولى التي تغتال فيها المعارضة مسؤولاً حكومياً. لم يكن بهشتي الشخصية الرئيسية الثانية فقط، بل كان يحمل المفتاح الرئيسي لعدد من الأبواب السياسية داخل البلاد وخارجها. اعتقد كثيرون في ذاك الوقت أن النظام سيفقد قدرته على النجاح دون عقله التوجيهي السياسي وإستراتيجياته الذكية.
بكت البلاد، أو بالأحرى أُجبرت على البكاء، في 28 حزيران/ يونيو من كل عام منذ 1981. إذ كان من الممكن أن يفسّر أي تعبير بسيط عن الفرح، أو ابتسامة سعادة، أو وجه مرِح، أو نزهة مرحة، أنه احتقار. علمنا في الحال أنه سيكون علينا أن نبقي شفاهنا مغلقة ونقاوم الإغراء الشرير بالضحك في 28 حزيران/ يونيو من كل عام.
سواء أكان هذا مهماً تاريخياً أم لا، وصل عيد ميلادي من جديد؛ كنت أدخل الرابعة والعشرين. رغم أنني لست مهووساً بعمر محدد لكنني ظننت أن عيد الميلاد هذا سيكون مميزاً، كما أنني اعتقدت أنه سيكون الأخير. لم أشعر بالحزن وأنا أدرك ذلك. أنا متشائم بالفطرة رغم أن كل من يعرفني لن يوافق على هذا بالتأكيد. أفهم التناقض لكنني لا أراه تناقضاً. أظن أن اليائسين حقاً هم الذين لديهم تفاؤل مضخم بوعود الحياة. أن تكون مبتهجاً في داخلك هذا يعدّك لليأس.

لا علاقة لتشاؤمي بالتفكير في أنه آخر عيد ميلاد لي، باستثناء أنني شعرت بالطريقة نفسها في أعياد ميلادي الثاني والعشرين والثالث والعشرين أيضاً. منذ حكم عليّ بالموت وأنا أشعر بصدق أن كل أعياد ميلادي التي تلت المحاكمة هي الأخيرة. لكن هذه السنة، في عيد ميلادي الرابع والعشرين، ومع تقدم إصابتي بالسرطان وانتشاره إلى أعضائي الحيوية، كان إحساسي أقوى، وهو ما جعلني أفكر بهذه الطريقة.

لحسن الحظ، كان الجميع نياماً في تلك الساعة المبكرة من الصباح، تحديداً كمال بفمه الواسع المفتوح كثير اللعاب، الذي أنا فقط من يتحمله لأنه يلين الصوف الخشن لوسادتنا المشتركة التي كانت بطانية في الأصل. كانوا نياماً ولا يقدر أحد أن يراقبني وأنا أجري محادثتي الداخلية حول فلسفة اليأس. امتدحني كمال على الدوام لأنني أعطي الجميع الكثير من الأمل. كم من المرات أردت أن أخبره أنني كنت أتمنى أن أستطيع فعل الشيء نفسه لنفسي. لكن ذلك كان سيبدو قاسياً جداً.

كنت، واثنين آخرين مصابين بالأرق، الوحيدين الذين شهدنا طوال الليل ترتيبات النوم كسمك السردين في الزنزانة. ملاءمة خمس وأربعين رجلاً في أربعة صفوف من الأجساد الملتصقة بقوة في غرفة باتساع اثني عشر قدماً في خمسة عشر هو دون شك مفخرة معمارية. كان الرجلان الآخران يجلسان في الزاوية المقابلة. كانا جديدين وابتسما بين حين وآخر. وضع أحدهما رأسه بين يديه وحاول أن يخمد صوت إحباطه وإنهاكه، في حين أراح الآخر جبهته على ركبتيه المثنيتين وعيناه مغمضتان، في ما يبدو أنه محاولة لإسكات عقله. بدا أنهما كانا اليوم أكثر انشراحاً ولوحا لي لمرات. هل عرفوا أنه كان عيد ميلادي؟ لماذا يجب أن يهتموا؟

كنت متوتراً بعض الشيء وخشيت أن يكشف أحدٌ الأمر فيتحمسوا ويخططوا لحفلة في يوم الحداد هذا. لم أكن أريد أن أرى أحداً يُعاقب بسببي. بدا أن لا أحد يشاركني مخاوفي ذاك اليوم. وبطريقة ما، رغم كل الأشياء التي قلتها لنفسي عن تفاهة عيد ميلادي، كنت متألماً أن أحداً حتى لم يذكره. يمكنهم على الأقل أن يعترفوا به ويقولون إنهم آسفون "لأننا لا نستطيع الاحتفال به كأعياد ميلاد البقية". تساءلت هل سأفعل الشيء نفسه لو صادف أن يكون عيد ميلاد شخص آخر في ذكرى إحياء مأساة رسمية. فكرت أنني سأكون مستعداً لدفع الثمن إذا عرفت أن الاحتفال سيجعل الشخص سعيداً. هل كانوا جبناء جداً وضحوا بفرحة رفيقٍ عزيزٍ أمام التهديد بجلدات؟ ألم يعرفوا أن هذا كان آخر عيد ميلاد في حياتي؟

كان غريباً أن أفكر أن هذا يزعجني، خاصة أنني لا أحب أعياد الميلاد وأجدها محرجة ومزيفة. استمتعت فعلاً بالاحتفال بالمناسبات التي كنت تخصني بطريقة ما، لكن أنا لا علاقة لي بأنني ولدت. والداي لهما كل الحق في الاحتفال بعيد ميلادي؛ كان إنجازهما بعد كل شيء. لكن أصدقائي ورفاقي؟ أو أنا؟ لماذا يجب على أي شخص سليم العقل أن يجازف باحتمال العقوبة من أجل أمرٍ كهذا؟ لا علاقة لهذا بالشجاعة.

كان اليوم هو الجمعة، وهذا ربما يكون أكثر أهمية لرفاقي في الزنزانة من كونه يوم ميلادي. أيام الجمعة هي عيد ميلاد الجميع. مكاتب المحققين مغلقة، فلا خوف من سماع الحارس ينادي باسمٍ ما. لا يكون السجن مكاناً سيئاً إن لم يناديك أحدهم باسمك الكامل. هذه حقيقة كونية، فسماع اسمك الكامل لا يبشر بلقاء ودي.

يتحول التلفزيون التثقيفي الموجود في زنزانتنا والمتصل بمنظومة المراقبة إلى صندوق تسلية من العاشرة صباحاً حتى آخر الليل في أيام الجمعة. المهم في هذا اليوم كان الفيلم الأسبوعي بتوقيته الغريب عند الحادية ظهراً. فالتوقيت غير مناسب أبداً لأن الفيلم يتداخل غالباً مع استراحة الحمام

المخصصة لنا لعشر دقائق. أنبأتنا الضجة في الغرف الأخرى أن اليوم لن يكون جمعةَ حظنا. إذ بدا أن وقت تبولنا سيكون حوالى الحادية، تماماً عندما يبدأ الفيلم. ولم يُرد أحد أن يفوّت بداية الفيلم. كان الوقت المثالي هو الذهاب في منتصف الفيلم تماماً، عندما تكون قد كوّنت فكرة جيدة عن الحبكة ولن تفوتك النهاية.

تخاصمنا على الدوام من أجل وقت إضافي في الحمام – كانت مدة الدقيقة الواحدة الصغيرة لتفريغ الأمعاء الغليظة انتقاماً – لكننا تمكنّا بسهولة، أيام الجمعة خلال الفيلم، في المرة الثانية من زياراتنا اليومية الثلاث إلى الحمام، من إنهاء الأمر في نصف الوقت.

سمعنا طرقاً على الباب تلاه صوت الحارس المنخفض يقول: "الحمام!".

وقف رفاقي في الزنزانة وسراويل بيجاماتهم مطوية من الأسفل، يحملون نعالهم في يد، ويدهم الأخرى على أطراف أعضائهم، وينتظرون أن يفتح الحارس الباب قبل أن تتكسر سدودهم وتفيض الغرفة.

"عشرون دقيقة"، قال الحارس وهو يفتح الباب بكسل، بصوت بعد ظهيرة الجمعة الغامض.

لم يكن الخيار صعباً بين إراحة مثانة ممتلئة حد الانفجار ومشاهدة بداية فيلم. جاهد الحشد ليخرجوا من الغرفة في صفين، بسرعة لكن بنظام. تلكأت في الخلف مع كمال الذي ساعدني لأتحرك نحو الحمام. كرهت هذه اللحظات التي كشفت اعتمادي الكامل على رفاقي في الزنزانة. كان الوقوف والسير يزدادان صعوبة. لم يكن الألم هو السبب الرئيسي، إذ لم تستطع ساقاي حمل جسدي، الباوندات التسعون الكاملة التي بقيت منه. ربما لم يكن كمال، الذي كان قصيراً، الشخص الأنسب لهذا، لكنني تخيلت أن هذا كان يعيد ملء خزان أمله، حين يقول لنفسه إن الحياة لا تنتهي في السجن، ويمكنك أن تستمر في المساهمة في عافية الآخرين، وكل تلك البدهيات التي كره الشخص أن يقرأها وإنما عملت كأعجوبة في الوضع المريع.

مرّ عليّ أكثر من أربعة أشهر في هذه الحالة. تحمّل الحراس سيري البطيء إلى الحمام، حتى أنهم سمحوا لأحد الأشخاص أن يعيدني مباشرة بعد أن أنتهي دون أن أنتظر الآخرين. كنت كذلك معفياً من قانون الدقيقة الواحدة داخل الحمام. للسرطان المتقدم ميزاته؛ رفعني إلى رتبة سجين أرستقراطي.

بعد أن انتهيت، تبرع أحد رفاقي في الزنزانة، لا أستطيع تذكر اسمه، ليعيدني. لم يعترض أحد! نظرت حولي لأرى هل كمال أو أي شخص آخر يعطونني إشارة لأقول: "شكراً، سأنتظر". لكن لم يكن هناك شيء. بدا أن الشخص الذي سيعيدني كان عضواً في حزب سوفياتيّ الولاء. رجلٌ نسيت اسمه، لكن لم أنسَ انتماءه الحزبي. استأت على الدوام من ذلك النظام الذي يضعهم معنا في الزنزانات نفسها.

جعلني ألم الوقوف وديعاً بتردد، ولذا وضعت يدي اليمنى حول رقبته وأرحت جسدي على جسده لأدعه يعرف أنني كنت جاهزاً دون أي كلمة.

طرق على الباب بلطف، ما كشف أنه لا خبرة له في مناداة الحراس.

"أقوى"، قلت بإيجاز لأعبر عن قلة رضاي بتدبره للأمور، "حتى أنا لا أستطيع سماع هذا الطرق على الباب".

طرق هذه المرة بقوة على الباب أربع مرات. "So Pocht das Schicksal an die Pforte"، قال مبتسماً.

"ماذا؟"، استدرت نحوه وأنا أنظر من الأسفل لأرى منخريه المفتوحين ولحيته الخفيفة التي تغطي ذقنه فقط (كم هي مثالية).

"روسي؟"، لم أعرف هل أقول هذا بصوت عالٍ أو كنت أفكر فقط.

"ألماني"، قال.

فتح الباب قبل أن يكمل.

"هل تريد أن يسمع السجن بكامله أنكما عائدان؟"، صاح الحارس وتركنا نخرج من الحمام.

"ألماني، يعني القدر يطرق الباب! سيمفونية بيتهوفن الخامسة"، همس ونحن نسير ببطء عائدين إلى الغرفة.

"ظننته بالروسي"، قلت معترفاً بحكمي المسبق عليه.

"لست متفاجئاً"، قال بدماثة، "وأنا حقاً أحمل مظلة في الأيام المشمسة"، قال مازحاً، في إشارة إلى الطريقة التي نستخدمها لنسخر من حزبهم بسبب خضوعه الأعمى للروس: إذا رأيت شيوعياً موالياً للروس يسير مع مظلة في يوم مشمس في طهران، اعرف أنها لا بد تمطر في موسكو.

كان واضحاً أنه لم يكن يقصد أن يبدأ شجاراً.

"أعرف أن اليوم هو عيد ميلادك ونحن أعددنا لك هدية"، قال لي مباشرة بعد أن أغلق الحارس الباب.

اتضح لي، في اللحظة التي سمعت فيها كلمة "نحن"، أن السماح له بحملي لإعادتي كان جزءاً من المخطط.

"نعرف أنك تحب بيتهوفن وقلت للآخرين إنني أستطيع أن أعزف الحركة الأولى من سيمفونية بيتهوفن الخامسة كهدية لك في عيد ميلادك".

"لكن الفيلم سيبدأ في الحال"، قلت محاولاً أن أخفي ارتباكي، "تعرف أن الجميع يعتمدون عليّ لأخبرهم ماذا سيحدث فيه".

"سيتفهمون الأمر"، قال وهو يبدو مثل بالغ يخبر طفلاً صغيراً: أنت لا تعرف مصلحتك، "مستعد؟".

كان وجهه قريباً من وجهي على نحو غير مريح. أدرت خدي بعيداً وتمتمت: "نعم".

"هو هو هو هووووم، با با با باااام..."، هكذا بدأ سيمفونية بيتهوفن الخامسة.

"من هو المايسترو المفضل لديك؟"، سأل فجأة مقاطعاً السيمفونية بعد الجملتين الافتتاحيتين.

لم ينتظر جوابي.

"تعرف، أظن أنه بولغ في تقدير فون كارايان، ونسختي المفضلة بالتأكيد هي نسخة كارلوس كليبر 1975 مع وينر فيلهارمونيك"، قال متباهياً بلفظه الألماني.

كان هذا الشاب أكثر جنوناً مني.

"عليك أن تقوم بفصلٍ واضح"، تابع، "بين الطريقة التي يظهر فيها صوت Gs الثلاثة الأولى مع E flat و Fs الثلاثة وD في العبارة الثانية".

لم أفهم ما كان يتحدث عنه، وأردت منه أن يعزف السمفونية اللعينة فقط دون أن يعبّر عن رأيه فيها أولاً. لكنها كانت هدية ويجب أن أقبلها بأدب أياً كان ما ترتبت عليه.

"أحبُّ كليبر لأنه يفصل بين العبارتين الافتتاحيين بوضوح كبير، تبدو الأولى كأربع نوتات مغلفة معاً بإحكام، بينما يكون لكل نوتة في العبارة الثانية وجودها المنفصل مع هذه D الثابتة المضاعفة".

إذاً، يلفظ النوتات في المقطع الثاني بطريقة "با با با باااام" بدلاً من "هو هو هو هووووم" التي قام بها في البدء.
ما أثار فضولي أكثر أنه أحب كليبر أكثر من كوندارشين أو روزهدستفنسكي، والأهم، أنه فضل فيينا على موسكو في موسيقاه المحببة. هل يمكن أن يكون صحيحاً أننا كنا مخطئين وأن أصحاب الولاء للسوفيات لم يكونوا يصغون على الدوام إلى أسيادهم في الكرملين؟
"ما أحبه في هذا"، تابع ناسياً أن هذا لا يفترض أن يكون صف تقييم موسيقي، "أن بيتهوفن يظهر كرجلٍ جاد. فهو يقفز إلى رسالته دون أي حاجز. 'استيقظ!'، يحذرك".
"أنا مستيقظ"، ابتسمت، "هل يمكنني أن أرى ما هو فيلم اليوم؟".
لم يستطع أن يخفي إحباطه عني.
"هل تريد أن تسمع بقيتها؟"، شغّل التلفاز وأخفض الصوت تماماً.
"بالطبع، نعم، نعم"، قلت محاولاً أن أظهر حماسة أكثر.
تابع السيمفونية مبدلاً طول أنفاسه ليعطي صوت آلات نحاسية أنفية، ويقلد صوت الطبلة من عمق حنجرته، والآلات النفخية بطبقة عالية. هذه المرة ترك الموسيقا تتحدث عن نفسها، كان هذا أداء كليبر 1975 كما أذكر.
"وهذا هو الناي المنفرد تماماً في منتصف الحركة الأولى"، قاطع أداءه مرة جديدة، "كتب بيتهوفن هذا الجزء لصديق له كان عازف ناي متعطلاً عن العمل؛ أراد أن يتأكد أن صديقه سيقوم بعزف منفرد ضمن الأوركسترا".
أومأت برأسي وأشرت إليه أنني أريده أن يكمل الموسيقا.
التزم.
أصغيت إليه وأنا أراقب التلفاز. ظهر الإعلان التالي: "Sundays and Cybele"[25]، قصة علاقة تجمع فتاة يتيمة ومحارباً قديماً.

25 Sundays and Cybele: فيلم من إنتاج فرنسي عام 1962.

"هنا حيث ينتقل إلى النهاية الصاخبة للحركة الأولى"، يقول.
فجأة ركل أحدهم الباب وفتحه على اتساعه.
"ما الجحيم الذي تفعلانه هنا؟"، صاح الحارس الذي بدأت نوبة حراسته للتو.
كنت أجلس في الزاوية وشفتا رفيقي في الزنزانة تلامسان أذني تقريباً. شعرنا أنه أُلقي القبض علينا. ماذا يمكننا أن نقول له: رفيقي يعزف سيمفونية بيتهوفن الخامسة في أذني؟
"لا شيء!"، قلنا في اللحظة نفسها وهو يبتعد عني، "أنا أساعده على الاستلقاء"، أضاف كأكثر عذر مقبول.
"أليس الجميع في الحمام الآن؟"، قال الحارس وهو يدخل ليلقي نظرة أقرب، "ماذا تفعلان هنا في الزنزانة؟".
عرفته وهو يقترب، من الأيام السابقة في العنبر 2، الزنزانة رقم 6، كان عجوزاً وحشياً مشهوراً بنوباته السادية.
شرح له كليبر أنه كان مسموحاً لي أن أعود قبل الآخرين لأنني كنت مريضاً... إلخ.
تجاهله الحارس وسأل ثانية: "لماذا أنتما هنا؟".
(ألم يخبرك للتو؟) احتفظت بالفكرة لنفسي.

”أنت تدخل زنزانتنا بحذائك“، قلت محاولاً صرف انتباهه. كان حذاؤه ملوثاً بالطين الرطب الذي خلف آثاراً وراء كل خطوة خطاها وهو يقترب منا.

”حذائي أنظف من فمك الكبير“، قال.

نجحت في تحويل انتباهه.

”نحن ننام هنا، ونأكل هنا“.

”اخرس“، صاح وهو يركل حقيبة صغيرة لأحدهم نحوي، ”يفترض أن تصلي هنا نادماً وتطلب المغفرة. هل نضعكم هنا لنسمّنكم؟ تظنون أننا خدم هنا؟“.

اختفى كليبر من المشهد بطريقة ما وبقينا، أنا والحارس، نتجادل حول جزمته القذرة.

”لماذا تشاهد التلفاز إذا كنت مريضاً؟“، سأل وهو يعرض منطقه السليم.

أصبحت أكثر تحدياً ولا مبالاة مع تقدم الحديث.

”أفعل ما أريد في زنزانتي“، لم يكن ذلك ما أراد سماعه.

بدأ اعتداءه علي. ركلني بأقوى ما استطاع وهو يصرخ: ”سأريك كم هو قذرٌ حذائي“.

ثنيت ركبتي على صدري ووضعت ذراعي حول رأسي، لحماية وجهي وتركت بقية جسدي تحت رحمة حذائه. اتخذت وضعية الجنين وعانقت نفسي وأنا أحاول أن أتخيل مشهد التحطم. ”كنت أتحطم“، من سيمفونية بيتهوفن الخامسة نزولاً إلى أخفض أعماق السوقية.

”أيها الوغد... ابن العاهرة!“.

توقف عن الركل.

”سأسامحك هذه المرة، لكن لا تعبث معي ثانية“.

ابتعد وهو يعرج بعض الشيء.

”لا تظن أن بإمكانك خداعي“، قال ووجهه أحمر وعروق صدغيه وجبهته بارزة.

كنت لا أزال ألهث وهو يصفق الباب.

عاد الآخرون متحمسين ليروا كم استمتعت بمفاجأة يوم ميلادي. ”اسم الفيلم Sundays and Cybele“، أخبرتهم مجاهداً لألفظ الكلمات، ”يبدو جميلاً“.

شغّل كمال التلفاز.

”لا يمكننا أن نقبل هذا“، يقول كليبر.

راودتني فجأة فكرة دعتني لمراجعة نفسي وصرفت انتباهي عن ألم تعذيبي. هل من الممكن أن نكون مخطئين بخصوص النيات التوسعية لجيراننا الشماليين؟ سأحتاج بالطبع ما هو أكثر من غضب عضو بسيط في حزب ليقنعني.

”عندما كانوا ينقلونني“، قال كليبر وهو يصبح أكثر صخباً، ”آمر السجن بنفسه قال لمجموعة منا إن السجناء يجب أن يعاملوا باحترام. هناك عقوبات لكنها يجب أن تخضع لقواعد السجن وقوانينه“.

ألم تكن المشكلة كلها في الحقيقة أن حزبهم تبنى كلمات النظام حرفياً وقبلها بإخلاص كبير؟

”سأكون بخير“، قلت وأنا أسعل دماً (أنا يجب أن أخرس فقط وأترك الأشياء تمضي).

”يجب أن نقدم شكوى“، سمعت أحدهم يقول في الزنزانة المزدحمة.

لم أكن أريد أن يتورط أحدٌ في مشكلة. إذا كان هذا ما أرادوه، يجب أن أكون أنا من يقوم به. طلبت من ممثل الزنزانة أن يطرق الباب ويساعدني لأقف خلفه.

”اطرق أربع مرات“، قلت مازحاً، ”وقم بكل طرقة بوضوح“، أردت أن أظهر لكليبر أنني كنت أصغي إليه وأنني أقدّر هديته.

"ماذا تريد أيضاً؟"، قال الحارس نفسه وهو يفتح الباب.
"أريد أن أتحدث إلى مشرفك"، أجبت وأنا لا أصدق أنني أقول هذا فعلاً.
"من؟"، هدر، "أنا أرد على الله فقط..."
"وآمر السجن الرئيسي"، قاطعته.
أمسك ياقتي وسحبني خارجاً ودفعني نحو الجدار بيد واحدة وهو يغلق الباب على الآخرين. ثم تركني ووقعت أرضاً مثل قطعة من العجين تترقب حرارة الفرن.
عاد قبل أن أتمكن من شد مفاصلي واستعادة توازني. رمى عصبة حول رقبتي وأمرني أن أضعها على عينيّ. لم يكن مسموحاً لنا أن نغادر جناح السجن دون أن نكون معصوبي العينين ما لم تنص القوانين الجديدة على خلاف ذلك، ومن الواضح أنها لم تفعل. لم أظن أنني سأبقى على قيد الحياة بعد جولة ثانية من الضرب.
قلت لرفاقي في الزنزانة أن يتركوا الأمر يمر لكنهم لم يصغوا إلي. الاحترام والقوانين الجديدة؟ منذ متى يعرف الثرثارون السوفيات كيف يعمل هذا السجن؟ ألم نقضِ هنا وقتاً أطول؟ ألا نعرف هؤلاء الناس أفضل منهم.
لم أستطع التنفس. كنت مبللاً. والجو كان بارداً؛ لم أستطع التوقف عن الارتجاف. كان العالم يختفي.
فتحت عيني لكنني بقيت لا أقوى على الرؤية. كنت معصوب العينين، مستلقياً على نقالة، كما اكتشفت لاحقاً، في مكتب آمر السجن. هل انتهى الفيلم؟ تساءلت.
"هل هذا هو؟".
لم أسمع إجابة.
"خذه إلى الفرع ثلاثة واستعجل"، سمعتهم يتحدثون عن سجين آخر، "محققه ينتظر".
سار حارس قربي برفقة سجين آخر بخطى متعجلة.
أرعبتني فكرة زيارة الفرع ثلاثة. لم يكن الفرع ثلاثة أخباراً جيدة أبداً. عنى هذا دائماً أن لديهم دليلاً جديداً في قضيتك أو ربما أن رفيقاً قديماً استسلم وأعطاهم معلومات جديدة عنك. انتابني شعور مخجل بالراحة لأن اليوم كان يحمل أخباراً سيئة لشخص آخر. تساءلت هل يعرف أنه سيؤخذ إلى "القبو" الذي يدعونه في السجل "الفرع ثلاثة"، لتتم "إعادة تأهيله".
كنت بحاجة أن أقوم بتلميح ليعرفوا أنني موجود.
"هل لي بكأس من الماء؟"، سألت.
"إذاً، أنت لست ميتاً بعد كل هذا؟"، أجاب أحدهم.
لامس كوب بلاستيكيّ مليء بالماء أصابعي وساعدتني يدٌ في مكافحتي للجلوس. ابتلعت الماء وطلبت المزيد.
"أردت أن تتحدث إلى المشرف؟"، سأل وهو يصب المزيد من الماء في الكوب.
لم يكن هناك مجال للتراجع عند تلك النقطة.
"نعم"، قلت بخجل آملاً أنه لم يسمع.
"حسناً، ما هي المشكلة؟".
كنت بحاجة إلى أن أعرف هل ما زال الحارس المجنون في الجوار أو أن نوبته انتهت. هل كان اليوم لا يزال الجمعة؟

”ما هو الوقت؟“، سألت في محاولة لكسب الوقت كي أخطط لإستراتيجية. هل عليّ أن أصرف النظر عن الأمر وأقول إنه كان مجرد سوء تفاهم أو أختبر القوانين ”الجديدة“؟

”الثانية“، أجاب بصبر وهو يبدو أنه فهم حاجتي لتجميع أفكاري.

”الجمعة؟“، سألت بثقة أكبر.

”نعم، إنها ظهيرة الجمعة“، تحدث ببطء شديد ليتأكد أنني فهمت ما كان يقوله، ”لم تبقَ خارجاً لوقت طويل“، قال محاولاً أن يوصل فكرة أنه كان مهتماً. ”ما هي القضية؟“، تعرفت صوت آمر السجن.

شعرت أن هناك آخرين في مكتبه، لكنني لم أستطع التأكد هل كنت على وشك تقديم شكوى ضد شخص يقف قربي تماماً. كنت أخشى أن ينفجر في ثورة هيجان أخرى. أَجبر جسدي كله لساني على التراجع.

”مضى عليّ شهران في هذا السجن“، بدأت بحذر، ”جميع الحراس هنا يعرفون أنني بحاجة إلى أن أعود إلى غرفتي مباشرة بعد أن أنتهي من الحمام. لا يمكنني أن أبقى واقفاً“.

فكرت وأنا أقدم هذه الديباجة كيف يمكن الاقتراب من قضية تقديم الشكوى.

”أعرف وضعك وأمرت الحراس أن يحترموا هذا الترتيب“، قال آمر السجن بهدوء.

بدأت أتنفس على نحو أسهل مجازياً وحرفياً. شعرت أنني قادر على إكمال حديثي دون لهاث.

”اليوم“، بدأت هجومي، ”هاجمني أحد الحراس في الزنزانة لأنني لم أكن مع بقية رفاقي في الحمام“.

رويت له تفاصيل الاعتداء. أصغى دون مقاطعة. لم آتِ على ذكر كليبر أبداً. لم أُرد أن أفتح الباب على أسئلة ماذا كنا نفعل معاً. أستطيع سماع السخرية سلفاً.

شعرت أنه ما زال غير متأثر وكان ينتظر شيئاً ما أهم يثيره. فقدت كل أنواع العنف جدّتها حالما أعيد افتتاح السجون بعد بضعة أشهر من الثورة واضعين نهاية للفكرة الخيالية عن تحويل السجون إلى متاحف.

”و...“، قلت مضيفاً حماسة إلى صوتي على أمل إنعاش شكواي المتعثرة، ”... شتم أمي وأهان أبي الذي لم يمضِ وقت طويل على وفاته“.

”ليرحم الله روحه“، قال آمر السجن مظهراً أخيراً أنه كان يصغي إليّ.

”هل من المسموح له أن يفعل هذا؟“، سألت مباشرة عندما شعرت أن هذا كان له أثر، ”ماذا يعرف عن أمي؟ بأي حقٍ يتحدث عن أبويّ بتلك اللغة البذيئة المخجلة؟ أنا مذنب، أقبل ذلك، وأنا أدفع ثمن ذلك أيضاً. لكن، أنا فقدت والدي للتو، ربما من الحزن...“.

تصدّع صوتي، ولم أكن متأكداً هل أتظاهر فقط، أو كانت الغصة في حنجرتي حقيقية.

”ماذا قال؟“، سأل وقد زاد اهتمامه بالحادثة.

”لا أستطيع أن أكرر كلامه“.

بدا ركله لي بكل قوته حتى سعلت دماً أمراً ثانوياً أمام ”يا ابن العاهرة“ التي لفظها الحارس في نهاية انتقامه.

”لا أستطيع تكراره“، كررت.

ساعدني لأسير وأجلس خلف مكتب. وضع أمامي نموذجاً وطلب مني أن أنظر من تحت عصبتي وأملأه. ”الاسم... التاريخ... رقم الزنزانة... الجناح... إلخ، إلخ“. ”يجب أن تملأ هذا النموذج من

أجل القاضي"، شرح لي. "ثم سيقرر ما هي العقوبة التي سيواجهها الحارس. غير مسموح لأحد أن يقلل احترام أهل أي شخص آخر. لكننا لا نستطيع فعل شيء بهذا الخصوص دون أمر المحكمة".

بدأ يبتعد.

كنت مصعوقاً. فكرت أنهم كانوا ينتظرون ليروا أيّ أبله كنت أجعل من نفسي.

"عقوبة إهانة الأهل"، قال وهو يعود للحظة، "عشرون جلدة، يجب أن تنفذها بنفسك".

لا بدّ أن تكون هذه مزحة عملية. في اللحظة التي أضع فيها قلمي على النموذج، سينفجر جميع من في الغرفة أيا كانوا بالضحك. جلست هناك أفكر كيف يمكنني أن أنهي هذا وأعود إلى زنزانتي مع مسحة كرامة.

"يجب أن تسامحه"، قال صوت آخر ورائي، "هو رجل عجوز سريع الغضب".

أسامحه! كنت مهتماً بذاك في الواقع.

"هذه الشكوى الثالثة بحقه"، قال حارس آخر رافعاً صوته من الطرف الآخر من الغرفة، "لن يتجاهل القاضي الشكوى هذه المرة".

هل عندي القدرة على جلد الحارس الذي هاجمني؟ كنت بحاجة أن يخرسوا ويتركوني أفكر ما الذي سيحدث.

"أنا آسف"، قال الحارس العجوز بصوت مرتجف، "لم يخبرني أحد عن وضعك"، توسل، "لو كنت أعرف، ما كنت أبداً، أبداً، أقسم بروح المرحوم جدي الذي كان قديساً، ما كنت دخلت غرفتك"، أفسد صوته الهواء باللطف.

"أليس اليوم يوم مولدك؟".

هل تحدثوا إلى كليبر؟ هل عرفوا ما كان يحدث؟

"يوم مولدي؟"، تظاهرت بشرود الذهن.

"نعم، هذا ما يقوله ملفك، 28 يونيو، اليوم".

"لا أهتم بهذه الأشياء على أي حال"، كذبت بهدوء.

"كن كريماً في يوم مولدك وسامح العجوز. دعنا نقول فقط إنه لم يحدث ضرر؛ الكل على ما يرام وسنعود إلى العمل".

توسل الحارس العجوز مرة جديدة وطلب أحدهم منه أن يتركني وحدي.

"لا يفترض بك أن تتحدث إليه"، قال وسحبه بعيداً.

عاد آمر السجن وسأل هل أنهيت طلب الشكوى.

"قررت"، قلت متردداً لجزء من الثانية، "ألا أشتكي".

جعلتني فكرة جلد رجل آخر أشعر بالقرف. لم أكن متعاطفاً مع الرجل العجوز؛ أردت أن يعاني، لكن ليس على يدي. يجب أن يكون ذلك على حساب ضمير شخص آخر.

"سامحته"، قلت معبراً عن فعلي المشرّف.

"هل أنت متأكد؟"، سأل المراقب بحيرة، "لا يمكنك أن ترجع وتقول إنك غيرت رأيك. هذا الملف أُغلق. أعده".

عندما عدنا إلى الزنزانة طلب مني الحارس في الممر أن أنزع العصبة. رأيت الحارس العجوز يفتح باب الحمام ويطلب ممن هم في الداخل أن يسرعوا إلى زنزاناتهم. تجاهلنا بعضنا بعضاً. انتظرت لأدع الآخرين يمرون قربي. ثم فتح الحارس العجوز باب زنزانتي ودخلت في الوقت الذي كانت فيه الشارة الأخيرة لفيلم Sundays and Cybele تظهر على شاشة التلفاز.

اتجهت كل العيون إلى الباب وهي مليئة بالدموع.
قفز كمال ليقدم إلي العون.
''فوّتَ فيلماً رائعاً''، قال.

بحثت عن كليبر ووجدته خلف الباب. أردت أن أتأكد أنه لم يكن يشعر أنه المسؤول. شكرته على هديته بابتسامة كبيرة محاولاً أن أخفي الألم في صدري.

''إذاً، عمّ كان الفيلم؟''، سألت كمال.

''حسناً، كان عن صداقة بين محارب قديم وفتاة في الثانية عشرة...''.

لم أكن مهتماً لكنني كنت بحاجة إلى قصة أخرى، عن سيبيل أو أي غريب آخر، لأكمل اليوم. كان اليوم يوم مولدي ولم أكن مهتماً بسماع القدر يطرق بابي، سواء من بيتهوفن أو من أي حارس مجنونٍ آخر. أردت أن يخبرني أحدٌ قصة وأتظاهر بالإصغاء، لأستمع فقط للكلمات التي تخبرني أنني ما زلت هناك.

آية الله

عرفت أنني سأموت. شعرت أن السرطان وصل إلى عظامي. لكن ما بدا أنه إنذارٌ بموتي لم يكن لا الألم ولا أي عرض واضح، وإنما شعور غير مفهوم بالرضا. لم أجد جدوى من زيارة الطبيب المقيم في عنبرنا. تقديمه اللامحدود لحبوب الفاليوم كان طريقتي لإعادة شيء ما إلى رفاقي في الغرفة كي يعتنوا بي. لم أستطع النوم ليلاً. فكرت أنني يجب ألا أنام. لم أكن أريد أن أموت خلال نومي. بطريقة ما، مهما كانت عادية، أردت أن تكون الكلمة الأخيرة لي. أظن أننا، البشرَ، لدينا ميل إلى الدراما؛ الموت المفاجئ يناقض طبيعتنا.

لكنني لم أكن أريد أن أموت في زنزانتي. لا أعرف لماذا وجدت الموت محرجاً. بقدر ما أردت أن أقضي ساعتي الأخيرة مع رفاقي، لم أرد أن تكون صورتي الأخيرة في عيونهم مجرد جثة... ليس لأن نفسي المنهكة وأنا على قيد الحياة ستترك خلفها صورة جذابة. قررت أن أطلب من الطبيب في الزيارة التالية ألا يعيدني إلى زنزانتي. سأتوسل إليه أن ينقلني إلى المستوصف ويسمح لي بالموت هناك. لم أصل إلى هذا القرار بسهولة لكنه كان الشيء الصحيح الذي يجب فعله. على الأقل، كان هذا الألم الوحيد الذي أستطيع أن أجنبه لرفاقي.

زاد تعاطف الحراس مع حالتي. عمل هؤلاء الذين عرفوا وضعي على تأمين الراحة لي: وقت إضافي للحمام، بضع دقائق إضافية من أجل الاستراحة اليومية في الهواء الطلق، ورفاهية الزيارات المنتظمة إلى الطبيب.

طلبت من مهدي أن ينادي حارساً في ظهيرة أحد الأيام.

"أنت تلهث"، قال بمنتهى الرقة قبل أن يغير سرعته ويطرق على الباب بقوة.

"أيها الحارس... أيها الحارس!"، صاح مهدي ثم استدار نحوي مطفئاً زر الغضب.

"ماذا تحتاج؟"، سألني. وقبل أن أتمكن من الإجابة، أدرك سخافة سؤاله وأمر سعيد: "مسّد ظهره!"، ثم نادى الحارس ثانية.

فتح الحارس الباب متجاهلاً مزاج مهدي ومتغاضياً عن حقيقة أن رفاقي لم يلتزموا القواعد حين يتعلق الأمر بصحتي.

"أحتاج إلى رؤية الطبيب"، قلت ممسكاً عصبتي لأضعها على عيني قبل أن أغادر الغرفة.

سحب سعيد ذراعي حول رقبته ورفعني.

طلب مني الحارس أن أخرج وأتبعه. مشى خطوتين أمامي ليتجنب التلوث بقذارتي الشيوعية. لم أكن بحاجة إلى أن أرى طريقي إلى عيادة الطبيب: عشرون خطوة، أستدير يميناً، أنزل خمس درجات، استدارة حادة إلى اليسار، أنزل خمس درجات أخرى، أستدير يميناً، أسير مباشرة إلى نهاية الرواق.

توقفت مع رائحة الكحول اللاذعة أمام مكتب الطبيب. شعرت بالضعف، وبدأت ركبتاي ترتجفان، وفجأة سحبت العصبة كل الهواء من صدري. لكن قبل أن أتمكن من التلفظ بطلبي، انهرت.

فتحت عيني في مستوصف "إيفين"، في غرفة اتساعها اثنا عشر قدماً في اثني عشر تحوي أربعة أسرّة وليس فيها نزيل آخر. أعادت الجدران المصفرة وضوء المصباح الخافت في السقف إليّ الشعور باليأس لكنني لم أفعل.

لا أعرف كم كانت الساعة، أو ما هو اليوم. لكن بخلاف أيامي السابقة في السجن، لم يكن هذا يزعجني. قالوا إن فقدان مسار الوقت يربك السجناء ويجعلهم مهووسين. لكنني كنت هادئاً دون معرفة بالوقت لكن بوعي كامل للمصير.

"عدت إلى الحياة؟"، قال لي حارسٌ معنّفاً عبر شباك الحديد الموضوع على الباب، "ألا يفترض بك أن تكون ميتاً؟".

دخل بمرح راضياً عن نكتته الصغيرة.

أسعدتني رؤية هذا الغريب تماماً على نحو غريب.

شغلتني تماماً قضية أين أريد أن أموت. بدت هذه الغرفة مكاناً مات الناس فيه. لم أكن مهتماً أنني سأحرم رفاقي فرصة سماع حكمتي الأخيرة. بالنسبة إليهم، سيكون ذلك أنني مت بسبب سرطان متقدم بعد بضع ساعات أو أيام تقريباً من خروجي من العنبر 3، الزنزانة رقم 53.

"ما هو اليوم؟".

لست متأكداً هل هذا سؤال فكرت فيه فقط أو أنني سألت الحارس المبتهج فعلاً.

"ما هو اليوم؟"، هذه المرة أنا متأكد أنني سألت السؤال.

"دخلتَ في غيبوبة منذ عشرة أيام"، قال متسلياً، "كل رفاقك موتى. أنت محظوظ جداً أننا نعتني بك جيداً".

شعرت أنني غبت عن الوعي أمام مكتب الطبيب منذ بضع ساعات فقط، وفتحت عينيّ أخيراً على هذا "الفلورانس نايتنيجل"[26] في مستوصف "إيفين".

[26] فلورنس نايتنيجل: ممرضة بريطانية تعرف برائدة التمريض الحديث.

"ارتدِ ثيابك"، قال وهو يضع حقيبتي الصغيرة التي تركتها خلفي في الزنزانة 53 على السرير.

شعرت كأن لدي صداعاً ناتجاً عن الخمر وكنت عطشاناً جداً.

"هل يمكن أن أحصل على كوب من الماء؟".

"سيعطونك بقدر ما تريد دون مقابل. السجن سيزيل الصنبور. لكن استعد بسرعة حقاً"، قال وهو يغلق الباب بلطف خلفه دون رغبة منه في إزعاج الهدوء المزعج بحد ذاته للجناح.

ارتديت سروال الكولونيل صيرفي، الذي ورثته عنه بعد أن أُعدم قبل ثلاث سنوات. بقي معي رغم ساقيّ الطويلتين وخصري المنكمش. يجعلك السروال القصير تبدو غبياً. بقيت متكبراً رغم أنني خسرت أكثر من خمسين باوناً وبدوت مثل ما تخلفه الضباع وراءها. جلست على حافة السرير أنتظر. عرفت، من المدة السابقة التي قضيتها في المستوصف، أنه يجب ألا تنادي أو تطرق الباب. لذا جلست. لكن الجلوس كان صعباً، فاستلقيت.

دخل حارس آخر يحمل صينية من الطعام، طعام حقيقي. لا بد أنني غرقت في النوم. ترك الطعام دون أن يوضح لماذا طلبوا مني ارتداء ثيابي. لم أستطع تناول الطعام لكنه بدا شهياً.

"هل سأُنقل؟"، سألت.

تجاهل سؤالي وأقفل الباب بلطف من الخارج.

كنت وحيداً من جديد. لم يأتِ أحد لأخذ الأطباق. بقي الضوء مناراً لكن الوقت بدا كأنه منتصف الليل. لم أستطع التنفس عندما استلقيت، وآلمني ظهري عندما جلست.

أخيراً فُتح الباب من جديد.

"لا تزال هنا؟".

كان هذا الحارس الأول يحضر الفطور.
"أخبرتهم أنك ربما لا تريد أن تغادر. لماذا تفسد حفلة جيدة؟".
ابتسمت، وأنا لا أقوى على شيء آخر.
"أنا جاهز حين تكون جاهزاً"، قلت دون أن يكون لدي أي دليل إلى أين يأخذوني.
أخبرتهم أنه سيغمى عليّ إن دفعوني إلى السير بسرعة. ما زلت لا أعرف أين كنا ذاهبين. أصبحت حذراً من أي انتقال غير مفسر منذ حُكم عليّ بالموت قبل ثلاث سنوات.
أدخلوني مباشرة في سيارة مرسيدس سوداء مع ثلاثة من الحراس المسلحين.
"يمكنك أن تموت الآن وأنت تعرف أنك حصلت أخيراً على جولة في سيارة مرسيدس جميلة"، قال الحارس الذي كان يجلس قرب السائق وهو يستدير ليتأكد أنني أقدّر هذا الامتياز.
"أنا سعيد أنك حققت حلمك"، لم أميز بين الكلمات التي قلتها وتلك التي عبرت عقلي، "لا بد أن يكون رائعاً جداً بالنسبة إليك أن تقود واحدة".
أكدت لي الصفعة على وجهي أنني لفظت الكلمات.
بعد دقائق قصيرة وصلنا إلى مستشفى مدرسة الطب الجامعية الوطنية. كان واضحاً أن المرافق الموجود عند الباب الرئيسي يتوقع حضورنا. فتح البوابة مباشرة وعبرنا الممر وصولاً إلى الدرج الموجود أمام البناء الرئيسي. كنت آمل أنهم لا يتوقعون مني أن أصعد الأدراج الخمسة عشر أمام البناء. لكنهم كانوا كذلك.
حالما نزلت من سيارتهم المرسيدس المحبوبة، توقفت لثوانٍ قليلة. بقيت أشهراً أطلب نقلي إلى المستشفى، وكان الجواب نفسه على الدوام: "لا ننقذ حيوات المحكومين بالموت". لا أعرف ما الذي تغير. بقيت واقفاً هناك خارج السيارة دون أن أستند إليها. حتى إن كانوا يفعلون هذا من باب حفظ ماء الوجه فقط، شعرت بنصرٍ مؤكد، لأنهم أدركوا على الأقل أن ماء وجههم بحاجة إلى أن يحفظ. قبل أشهرٍ قليلة، لم يكن يهمهم كيف رأى الآخرون أفعالهم. وهم مهتمون الآن أن أموت في مستشفى، ولذا ربحت بطريقة ما. أردتهم أن يكونوا مسؤولين، والآن بغض النظر عن أساليبهم العنيفة، تأكدت أن أحداً ما، في مكان ما، علم وأخبرهم أنه لا يمكنهم تركي أموت دون أن يظهر على الأقل أنهم أدّوا واجبهم.
لا بد أن الطريقة التي صعدت بها الدرج جعلتهم يتساءلون هل مرضي تمثيل. تخيلت أنني بدوت قوياً رغم نحافتي. بدأ سيناريو لفظي أنفاسي الأخيرة يسير في طرقٍ جديدة.
وصلت إلى أعلى الدرج. بلّل عرق بارد جسدي وبدأت أرى نقاطاً سوداء داكنة تتحرك أمام عيني. لم أكن أريد أن أغيب عن الوعي. كنت مبللاً وبقي الحراس على مسافة مني خوفاً من التلوث مني، سواء من المرض أو من قذارتي الشيوعية.
اندفع ممرض نحوي مع كرسي ذي عجلات.
"لماذا تقفون هناك مثل العصا الخشبية؟"، قال للحراس باحتقار وهو يساعدني في الجلوس على الكرسي.
"أي قسمٍ تريدون؟"، سأل وهو يدفعني في الصالة الكبيرة.
أخرج أحد الحراس جهازه اللاسلكي وسأل شخصاً ما على الطرف الآخر بعض الأسئلة.
سمعنا كلنا الجواب: "قسم الأورام".
طلب مني الحارس الذي قاد المرسيدس أن أنهض وأسير. ابتسمت وتركته يفسر معنى ابتسامتي.
"هل أنت أعمى، يا سيد؟"، قال الممرض المقيم معرضاً حياته للخطر.

دفعني نحو قسم الأورام الواقع إلى يسار المدخل. بدا أن الحراس ليسوا في مزاج للقتال، وما زالوا يحاولون فهم الوضع الدقيق الذي وجدوا أنفسهم فيه: تقديم خدماتهم إلي، وأخذ الأوامر من غريب هزيل.

"افتحوا الباب"، أمر الممرض، والتزم الحراس مباشرة أوامر هذا الرجل الذي واجههم بهذه القوة.

كان قصيراً جداً إذ استطعت أن أشعر بذقنه على رأسي وهو يدفع الكرسي بثبات نحو الأمام.

استعاد الحراس السيطرة عند دخولنا الجناح، وطلبوا من الرجل أن يغادر ويهتم بعمله.

"هذا هو عملي"، قال وهو لا يدرك مع من كان يعبث. نظر أحد الحراس إليه بعيون حادة وأشار إلى باب الخروج بجهازه اللاسلكي.

فهم الممرض الرسالة.

ناقش اثنان من الحراس وضعي مع رئيسة الممرضات في قسم الممرضين، على بعد ثلاثين قدماً من المكان الذي كنت أجلس فيه، تحت حراسة الحارس الثالث.

وصل طبيب شاب واندفع نحو القسم مباشرة.

"لا يمكننا أن نفعل هذا"، أخبر الحراس وهو يرفع صوته، "يجب أن تتركوه هنا وتذهبوا".

توجه نحو الباب، وعندما وصل إليه، استدار وصاح فيهم: "قرأت تقرير الخزعة الخاص به قبل تسعة أشهر... أين كان منذ ذلك الوقت؟".

ثم خرج ببساطة متجاهلاً وجودي.

تجمع الحراس الثلاثة يتبادلون الحديث بينهم وعبر اللاسلكي. أخيراً اتخذ أحدهم قراراً. طلبوا من رئيسة الممرضات أن تنادي طبيب الأورام وهم يدفعون كرسي العجلات الذي أجلس عليه إلى المدخل.

مضى الدكتور مهدي ليوقع أوراق دخولي ويطلب مجموعة من التحاليل. عرّفت رئيسة الممرضات، الآنسة روشاني، بنفسها وسألتني عن حميتي الغذائية. لا أعرف، هل كانت تمزح ببساطة أو فعلاً لم تكن تعرف ظروف السجن.

"سأكتب لك نظاماً غذائياً خاصاً من الأرز والكباب. هل سيكون ذلك جيداً؟".

لم تنتظر جواباً.

"نريدك أن تكسب بعض الوزن والطبيب يريدك أن تأكل وجبات صغيرة لمرات في اليوم".

لم أستطع أن أحدد كم كانت جدية حول أن تقدم إلي وجبات من الكباب كل يوم، لكن ذلك بالتأكيد جعل الحراس يتذمرون.

"هل تريد سريراً قرب النافذة أو أقرب إلى الممر؟"، سألَت.

كان الحراس لديهم جواب هذه المرة.

"يجب أن يكون قرب الممر".

حُسم ذلك الأمر.

لاحظت عن بعد طالبَتي طب تتحاربان وتتصارعان لشد لوح مشبكي للأوراق. ربحت الأطول.

"في أي غرفة سيكون؟"، وجهت سؤالها إلى إحدى الممرضات.

"يجب أن أفحصك وأكتب تاريخك المرضي"، قالت لي الآنسة روستا، التي كانت تشبه ميريل ستريب، غير مدركة أن هذه الكلمات كان لها دلالة مرعبة إلى سجين لم يكد ينجو من استجواباته. كانت الأشياء تتحرك بسرعة مدوخة. بدت السرعة البطيئة للسجن أكثر ملاءمة لجسد يموت.

بدأ أحد ما دفع كرسي العجلات وأداره نحو الغرفة رقم 6. كان السرير قرب النافذة المطلة على الممر معدّاً مسبقاً. ألقى رداء المستشفى في حضني.

"ساعدوه على ارتدائه"، سمعت صوتاً نسائياً يقول.

دخلت الآنسة روستا تضم مشبك الورق إلى صدرها. تفحّصها الحراس وهي تقف قربي. لثانية، صار من غير الواضح لي من كانوا يراقبون.

"يجب أن أسأله بعض الأسئلة"، قالت الآنسة روستا بصوت غير مسموع تقريباً، "بعضها خاص جداً".

لم يتحرك الحراس.

"عذراً"، قالت وهي ترفع صوتها قليلاً ظناً منها أنهم لم يسمعوها تماماً في المرة الأولى.

"آنسة، افعلي ما تريدين فعله، نحن في عجلة".

تساءلت هل أنا ضمن تلك الـ"نحن".

احمرّ وجهها وحاولت أن تدفنه في الأوراق التي كانت تقلبها بعجالة، ثم خرجت دون أن تطرح أي أسئلة وعادت بعض دقائق إلى الغرفة مع مشرفها، الدكتور مهدي. "لا حاجة إلى تاريخ الحالة"، قال على نحو عملي وهو يتحسس رقبتي المتورمة.

"ويمكنكم أن تبقوا خارجاً"، قال للحراس مشيراً لهم بلطف نحو الباب، "لا يمكننا أن نعمل مع المريض عندما يكون المكان مزدحماً هنا"، قال وهو يشير إلى الأسرة الستة في الغرفة التي كانت أربعة منها مشغولة.

"الشيء الوحيد الذي نحتاجه عند هذه النقطة"، نصح طبيب الأورام الطبيب المقيم في الحال، "هو خزعة من نخاع العظم لمعرفة هل وصل إلى نقيّ العظم".

كنت أعرف أن الإجراء المتعلق بنقي العظم يعني أن السرطان وصل إلى مرحلة متقدمة، وربما تكون الأخيرة.

طلب طبيب الأورام من طلاب الطب الآخرين أن يحضروا الإجراء. تحدثوا إلى بعضهم بعضاً وتجاهلوني والحراس. تجمّع الطلاب والأطباء المقيمون وكامل المجموعة المتحمسة التي ترتدي الأبيض حول سريري يمنعون الحراس من رؤيتي. وضعوا صندوق المعدات على سريري مع حقن طويلة وضخمة ومخيفة، وشاش وكرات من القطن، ومعقمات جراحية، ومباضع من الأشكال والأحجام كافة. حاول الحراس أن يلقوا نظرة داخل حلقة الأطباء. تساءلت ما الذي كانوا يقلقون عليه.

طلب الدكتور مهدي من الآنسة روستا أن تجري خزعة نقيّ العظم، الأولى لها ولي أيضاً. كانت أصغر بكثير من ميريل ستريب مع تعبير على وجهها يجعلك تتوقع أنها ستنفجر بالبكاء في أي لحظة.

"نحتاج إبرة الخزع Jamshidi لهذا، صحيح؟"، سألت وهي تلتقط رمحاً سُمّي خطأً إبرة.

تساءلت أيَّ جزء من جسدي سوف تثقب به.

أجابت بأن عقمت صدري بمعقم برتقالي داكن، حقنته ببعض المخدر، واستهدفت عظم القص بالإبرة.

دفعت بأقوى ما استطاعت، لكن إبرة Jamshidi كانت سميكة جداً لتخترق العظم. كان بإمكاني أن أشعر بكامل وزنها فوق صدري لكن الإبرة رفضت الاختراق.

"لا تدفعي"، وجّهها طبيب الأورام، "قومي بحركة كمن يضرب الصخر، مثل الطعن".

توقف الحراس عن النظر. شعرت أنه وجب عليّ أن أدافع عن كرامة كل السجناء السياسيين بالتظاهر أنني كنت بطلاً؛ طعنة إبرة Jamshidi تحت مستوى الألم الذي كنا قادرين على تحمله.

استرحت ليوم بعد صدمة Jamshidi. ثم استمتعت بطلبي الأول للكباب، وقد سلمته لي شخصياً الآنسة روشاني، رئيسة الممرضات. أتى مع طبق أرز بالزعفران وثلاث حبات من البندورة المشوية على النار وأوراق ريحان طازجة من مطعم شاه عبد العظيم، الأفضل في السوق.

"طلبت مني الآنسة روستا أن أعتذر لك عن ألم الخزع، لكنه كان يجب أن يتم"، ابتسمت وهي تضع الصينية قرب سريري.

اكتشفت بعد ذلك أن المرضى الأربعة الآخرين في الغرفة كانوا مصابين بسرطان الدم ويخضعون للعلاج الكيميائي.

السيد آذري، رجل طويل وقويّ من ماكو، بلدة حدودية على بعد بضعة أميال من تركيا. كان يشغل أفضل سرير قرب النافذة المطلة على الفناء. حصل على الكثير من الضوء واستمتع بمشاهدة الداخلين والخارجين إلى المستشفى. كان صدره الواسع ووجهه الذي لفحته الشمس ما تبقى من ماضيه بصفته راعياً. انضم إلى "الحرس الثوري" خلال الحرب مع العراق. وغادر أخيراً متحرراً من الوهم للاعتناء بعنزاته في الجبال. وعندئذ عرف أن تسلق الجبال صار عسيراً ثم مستحيلاً.

كان علي مهري، ذو الأعوام الستة عشر قربي، مع أمه التي تبقى معه على الدوام. كانوا من أصفهان، وقد جيء به إلى هنا من أجل علاج كيماوي كحل أخير. كانت السيدة مهري في أواخر الأربعينات من عمرها ولديها أربعة أولاد آخرون بقوا في أصفهان مع أبيهم.

عندما سألت الممرضة أول مرة عن المرحلة التي وصل إليها السرطان في جسدي، همست السيدة مهري مباشرة في أذني أنّ عليّ آغا لا يعلم لماذا هو هنا. بدا غريباً أن تنادي ابنها السيد علي. رجتني ألا أذكر كلمة سرطان أمامه. لم يكن واضحاً من يحمي من بحذف كلمة سرطان من المحادثة: علي والآخرون يحمون أحباءهم من احتمال موتهم، أو الأهل والأقارب يحمون المرضى من التشخيص الكئيب.

كان جواد، إلى جانب علي آغا، شاباً آخر في السادسة عشرة من مدينة قُم. استفاد من ميزة المشهد الكامل في الخارج لأنه شغل السرير الآخر قرب النافذة. استمتع بوصف الناس الذين رآهم في الفناء لنا. كان وصفه الدقيق للشخصيات أذكى على نحو ملحوظ من وصف فتى في السادسة عشرة.

ضم جناحنا المكون من ستين سريراً حماماً واحداً فقط.

"أعلمني إن رأيت أحداً يسرع باتجاه الحمام عند نهاية الرواق"، كانت مزحة جواد الدائمة، "ثم يعود ببطء، ساقاه متباعدتان ووجهه شاحب، لأن هذا يعني أنهم تأخروا كثيراً في سحب حقنته الشرجية".

دخل جواد وخرج من المستشفى طوال السنتين السابقتين. وكانت أمه تأتي لزيارته، لكن السيدة مهري عاملته كأم أيضاً.

بقي الرجل العجوز في الطرف الآخر من الغرفة، السيد كشاورز، نصف واعٍ وبلا زوار.

كان الوقت شهر محرم، موعد إحياء ذكرى استشهاد الإمام الحسين، ثالث الأئمة الشيعة، عندما يبكي الملايين في الشوارع والجوامع المؤقتة حول البلاد. مواكب محرم هي استعراضات حقيقية، حيث يلطم الناس صدورهم ويضربون رؤوسهم، ويحملون أعلاماً مزينة وإشارات ملونة، ويبكون، ويضحكون، ويأكلون الطعام المجاني، ويشربون المشروبات الحلوة في ذكرى شفاه الحسين الجافة في صحارى كربلاء.

في عاشوراء، يوم استشهاد الإمام الحسين، دخل الموكب الأول فناء المستشفى حوالى العاشرة صباحاً. وقف جواد على سريره وشجع الآخرين على الانضمام إليه قرب النافذة ليشاهدوا الاستعراض. بقي حراسي غير مهتمين ولم يستجيبوا لدعوة جواد، لكن عدداً من الممرضات استفادوا من المنظر، مثل الآنسة روستا، ميريل، وطالبة الطب الأخرى التي كانت تتنازع معها حول حالتي في اليوم الأول.

جعل الازدحام في الغرفة الحراس متوترين.

"هل يمكنني أن أشاهد الاحتفال أيضاً؟"، سألت.

دخل أحد الحراس، واقترب من النافذة وتفحصها ليعرف هل هي مغلقة بإحكام، ثم أعطاني الإذن بحركة من رأسه لأتفرج أيضاً.

سيكون اليوم التالي هو يوم زيارتي الشهرية في السجن. سيعملون بالتأكيد على استغلال غيابي لإيقاع أكبر قدر من الألم بأمي. كان يجب أن أرسل إليها رسالة لأعلمها أين كنت.

وقفت قرب النافذة وملت نحو سرير جواد. بين سريره وسرير عليّ آغا، كان هناك صفان من الناس يمنعون الحراس من الرؤية.

"يا حسين!"، بكى الحشد. كان الرجال يلطمون صدورهم بكل قوتهم ويدخلون حالات الغيبوبة وهم يكررون بأصوات متقطعة: "حسين، حسين، حسين".

"هل يرغب أحد بالاتصال بمنزلي؟"، سألت مخبئاً سؤالي في موجة الأصوات التي غزت الغرفة، "فقط أعلموا أمي أنني بأمان. رقم منزلي 925–825".

بحثت سبعة أزواج من العيون عن وجهي لتعلمني أن مهن أصحابها ستكون على المحك لمساعدة سجين.

"أنا أريد"، قالت الطالبة الأخرى، الآنسة شجاع، محررة الآخرين، "925–825. لا يمكنك أن تقول لا لرقم كهذا".

اتصلت في وقت لاحق من ذاك اليوم.

مات جواد.

لم أعد أستجيب للعلاج الكيميائي. كان عليّ الآن، إضافة إلى بؤس السرطان، أن أتلاءم مع انهيار كل خلية من جسدي.

زارني طبيب أورام جديد في الصباح الباكر. أرادني أن أعرف أنهم سيبدؤون علاجاً أكثر عدائية وعلاجاً تجريبياً. بدا تعبير أكثر عدائية سخيفاً لي، لكنني تعلمت خلال تلك السنوات أنه ليس هناك ألم أسوأ يتحمله الفرد. والآن، كنت أقف على العتبة من جديد.

أخبرني أحد الحراس في ما بعد أنه سيكون لدي زائر.

"لا تضخم ألمك"، نصحني، "لا تريد أن تعذّب أمك".

كان كل ما حصلت عليه عشر دقائق. دخلت أمي بلا مبالاة كبيرة، كأنها كانت تراني كل يوم على مدى السنوات الثلاث الماضية، أو نحو ذلك، وأنا كنت في المستشفى من أجل عملية تجميل للأنف! (ضخّم خدّاي اللذان أصبحا غائرين حقاً حجم أنفي الذي كان كبيراً في الأصل). جلستْ قرب سريري دون أن تذرف دمعة.

"لا تقلق"، قالت وهي تمسك يدي للمرة الأولى بعد كل تلك السنوات، "سيعيدك الله إليّ".

أردت فقط أن أمسك يدها ولا أقول شيئاً. بقي الحراس بعيدين عنا وسمحوا لنا بالتحدث بحرية. عرفوا أفضل مما عرفت أنه لم يكن هناك شيءٌ ليقال.

لفّتني أمي بين ذراعيها. داعبت شعرها.
لمحت أحد الحراس الواقفين في الممر يمسح دموعه عن خده.
أنا وأمي الوحيدان اللذان لم يبكيا.
مرت نصف ساعة قبل أن أطلب من أمي أن تذهب قبل أن يفسدوا الزيارة.
ذهبت دون أن تستدير لتراني أو لأرى دموعها.
"لم نقم بثورة لنرى الأمهات والأبناء في وضع كهذا"، قال الحارس الباكي.
أصبح عداء المرضى الآخرين، والزوار، والممرضات، وكل من شهد المشهد، للحراس، واضحاً.
"ماذا يجري الآن في سجن إيفين؟"، سأل الحارس الآن.
تساءلت هل هذا سؤال بلاغي أو أنه بصدق لم يكن يعرف.
"أنت تعرف أكثر مني"، قلت بمزاج غير الراغب في الحديث.
"نحن ممنوعون من دخول السجن"، قال لي، "أعمل مع لجنة التحقيق التي ألّفها آية الله منتظري".
ثم عمل على توضيح من قصد بـ"نحن". أخبرني كيف رفض مدعي الثورة السيئ السمعة في طهران، أسد الله لاجوردي، دخول أي فرد مما يدعى اللجنة للتحقيق في مشكلات السجن.
"آية الله مهتم جداً بالوضع"، قال وبدا صادقاً، "لكن مصادره محدودة جداً. لهذا السبب نحن بحاجة إلى معلوماتك".
لم أشك في مصداقية القصة عن منتظري. تذكرت أنه أنقذ في يوم حاسم، قبل ثلاث سنوات، حياة العديد من السجناء. اقتحم عناصر "الحرس الثوري" العنبر في "إيفين" مزودين بالرشاشات بعد بضع ساعات من سماعنا الأخبار عن اغتيال آية الله دستغيب الواسع التأثير. فتحوا كل الزنزانات وأمرونا أن نبقى في الداخل مقابل الباب. سمعنا نداءات الله أكبر والمطالبات بإبادة كل "أعداء الثورة". بينما تحضّر الحراس لإبادة جماعية، أُعلن من مكبرات الصوت أن آية الله منتظري سيلقي رسالة بمناسبة اغتيال دستغيب.
"في أوقات الشدائد"، أعلن آية الله، "يمرّ المسلمون بامتحان التعاطف. أن تكون لطيفاً ومتعاطفاً هي مهمة شاقة عندما يشعر أحدهم أنه معرّض للهجوم. هذا ما يميز المسلم الحقيقي عن الآخرين؛ نحن لا نخون أبداً مبدأنا الأساسي بالعدالة والإنصاف".
لم يكن هذا ما أراد الحراس سماعه. لكن بما أنه كان الوريث المرتقب لقائد الثورة، فلا يمكنهم التصرف خلافاً لرغبته. أنقذ ذلك الخطاب أرواحنا.
لكن هل هذا الحارس يمثله فعلاً؟ كان عليّ التفكير في الأمر.
في اليوم التالي، دخلت السيدة مهري وهي تبدو سعيدة جداً. كنت قد أعطيتها رقم منزلي قبل أيام وأصبحت زائرة منتظمة ومرسالاً من منزلي وإليه. قدمت إلي حساء لحم البقر الذي قالت إنني أحبه دون شك.
"إنه معد في المنزل"، قالت متأكدة أنني أعرف أي منزل تقصد بكلامها.
كانت شبكة مراسلاتي تعمل جيداً. بات الآن لدي رسول في كل نوبة بين الممرضات، والأطباء المقيمين، وعائلات الزوار. ستعرف عائلتي بكل ما يحدث في المستشفى خلال ساعات.
"هل تظن أن الرجل يجب بالضرورة أن يكون أكبر من زوجته؟"، فاجأتني السيدة مهري بسؤالها. لم أستطع أن أفكر في فرق العمر بين الزوجين ويدي اليمنى معلقة وينقل كيس من الدم

500 مليلتر إليها، والمضادات الحيوية تعطى لي في الأخرى. لكن كان عليّ أن أكون مؤدباً معها. كانت تتعامل معي بطريقة مختلفة عن علي آغا.

"بالتأكيد، لا"، تمتمت.

"ذلك ما قلته لابنتي بتول"، قالت وقد علت وجهها ابتسامة رضا، "كل الرجال الجيدين في الخارج أو في السجن، وهي حاصلة على شهادة في الأدب الفارسي وليس هناك زوج مناسب. يريدها أبوها أن تتزوج بتاجر في البازار. لكنها متعلمة. يجب أن تكون قادرة على الحصول على محادثة مثقفة حول الشعر أو شيء من هذا مع شخص يقدّر ما أنجزته".

جاهدت لأبقي عينيّ مفتوحتين.

"هل تظن أن فتاة في السادسة والعشرين تأخرت على إيجاد زوج جيد".

"أمي، دعيه وشأنه"، اعترض عليّ آغا.

في اليوم التالي، كانت بتول هناك تقدم إلي الحلوى والفاكهة التي لم يكن مسموحاً لي أن أقبلها.

أخبرتها أنني أشكرها دون أن أنظر إليها خوفاً من أن يفسّر أي لقاء بين عيوننا أنني أطلب يدها.

"لا حلوى؟"، قالت السيدة مهري وهي تعيد العلبة، "لقد أعدّتها بنفسها".

أرادت أن تتأكد أنني أقدر هدية ابنتها والاعتراف بمواهبها المنزلية إضافة إلى ثقافتها الأدبية. بدت عروسي أقل حماسة من أمها بكثير. ربما كانت تفكر أن سجيناً محكوماً بالإعدام مع سرطان في مرحلته الأخيرة برعاية ثلاثة حراس مسلحين في مستشفى عمومي قد لا يكون الزوج الذي طالما حلمت به.

قررت أن أخبر الحارس كل ما أعرفه عن "إيفين"، كل ما أعرفه عن قضيتي والقضايا الأخرى التي شهدتها. وقف قرب سريري دون أن يبدي ملاحظات أو يظهر أي تعبير. كنت لا أزال غير مقتنع أنه صادق، لكن لم يكن لدي ما أخسره. لذا، مضيت في هذا.

"آيَة الله يعرف عن قضيتك"، قاطعني وأنا أخبره عن الاعترافات الإجبارية، "لقد طالب بإطلاق سراح غير مشروط لك لكننا لا نزال بحاجة إلى التغلب على مدعي الثورة لاجوردي وشبكته في السجن".

من الواضح أن السيد آذري سمع محادثتي مع ممثل آية الله.

"لا تنتظر هذه الوعود"، قال أخوه الأصغر الذي كان يزوره بانتظام. بدا مثل لاعب كمال أجسام، وكان طويلاً جداً على أي باب عادي. قدم إليّ بعض الشوكولا. "يمكننا أن نخرجك من هنا خارج البلاد عبر الحدود التركية في أقل من أربع وعشرين ساعة"، ظهر أبناء عمه الثلاثة بعد قليل في عرضٍ للقوة. احتل أربعتهم كامل مساحة الغرفة.

انتاب الحراس الشك. خرج اثنان منهم للتحدث مع الحراس معيقين رؤيتهم.

"فقط أخبرنا متى"، قال الثالث وهو يمسك يدي، ثم ربت على كتفي كإشارة تضامن.

أرعب ذلك السيدة مهري وأرعبني لأسباب مختلفة.

"سأفعل، لكن أرجوكم لا تفعلوا شيئاً دون موافقتي".

كان ذلك آخر شيء أحتاجه: إراقة دماء في قسم الأورام.

تخيلت الهرب من المستشفى منذ اليوم الأول الذي علمت فيه بإصابتي بالسرطان. لكن كان هذا متأخراً جداً. لا أستطيع التنفس. كانت رؤيتي مشوشة وساقاي ضعيفتين. فكرت أن ذلك السيناريو قد يكون فعلاً هو الذي تصوره الحراس: أن يقتلوني خلال محاولة الهرب. قتلٌ مبرر ونظيف وبلا

مسؤولية. ربما كانوا يتآمرون مع أبناء عمومة السيد آذري. يجب أن أبقى وأعتمد على جهود منتظري وحملة أمي العنيدة.

مات السيد آذري.

بعد شهرين من المكوث في المستشفى، رافقني الحراس في العودة إلى السجن رغم اعتراضات فريق المستشفى، وبكاء السيدة مهري المسعور، وحتى طاهي المستشفى الذي لم أره أبداً. وافق الدكتور مهدي أخيراً على توقيع ورقة خروجي شريطة إرجاعي كل أسبوع لأتلقى علاجي الكيميائي. "جهازه المناعي معرض للخطر على نحو كبير"، قال للحراس، "يجب أن تتأكدوا أنه لن يصاب بالبرد أو الإنفلونزا؛ هو غير قادر على مقاومة أي من هذه الإصابات".

لم يكن عليه أن يقول ذلك. أعطاهم حلاً جيداً لمأزقهم. خلال الشهرين التاليين كنت أتنقل ذهاباً وإياباً بين السجن والمستشفى، ليس في مرسيدس جميلة، وإنما فوق دراجة نارية في الجو المتجمد أواخر الخريف. لأسابيع، كان روتيني اليومي أن ينادى باسمي لأخرج من مستوصف السجن وأنتظر معصوب العينين في الهواء الطلق تحت المطر وندف الثلج من وقت مبكر في الصباح إلى آخر ما بعد الظهيرة، أنتظر الدراجة النارية التي ستقلني إلى المستشفى من أجل دورتي التالية من العلاج الكيميائي. "أحضروه في الصباح"، وبختهم الآنسة روشاني في كل مرة، "لأننا نحتاج وقتاً لإجراء اختبارات الدم قبل الجرعة الكيماوية". ويكون الأطباء قد غادروا عند ذلك أيضاً. اعتذر الحراس كثيراً ووعدوا أن إعادتي إلى المستشفى هي أول ما سيعملونه في الصباح التالي.

لا يهم كم حاولوا بشدة أن يستدعوا الفيروسات والبكتيريا لتستفيد من خلايا دمي المستنفدة، لأن أيّاً منها لم يمتثل لهم. نسيت عدد المرات التي تبعتهم فيها بوداعة إلى زيارات المستشفى في أواخر بعد الظهر وعدت نصف واعٍ أشعر بالذلّ ولم أتحدث عن الأمر.

في أحد الصباحات، وصلت عزيمتي إلى حدها الأخير. عندما طلب الحارس مني أن أستعد لعلاجي الكيميائي، رفضت أن أنهض من سريري. لا أعرف هل أنا من رفضت أو جسدي هو من فعل دون الكثير من التفكير.

"هل أنت متأكد؟"، صاح الحارس. لا أذكر هل أجبته.

دخل مدير المستوصف في الحال، "سمعت أنك قررت أن ترفض العلاج"، قال بوجه قلق، "هذا شائع بين مرضى السرطان"، تابع مع معرفته الخبيرة، "ألا يكونوا قادرين على إنهاء علاجهم". لم يكن طبيباً، ولا متعاطفاً معي، لكن تحدث بسلطة عطوفة، "هناك بعض الأوراق يجب أن نهتم بها"، ووضع مشبك الورق فوق سريري.

"لا يمكنني أن أقرأ أي شيء"، قلت له. في شهور نحولي الشديد جداً، لم تكد عيناي تستطيعان رؤية وجوه الآخرين، عداك أي نص، "ما هذا؟".

قال دون مبالاة إن ذلك كان نموذج موافقة يقول إنني رفضت العلاج رغم عمل السجن على ذلك.

أيقظت طاقة غريبة جسدي، "أنا مستعد للذهاب"، قلت مدركاً المؤامرة التي كانت تحاك، "كنت متعباً فقط ولم أستطع التحرك"، قلت للمدير.

"حسناً"، قال دون شجار.

حصلت على علاجي الكيميائي في ذاك اليوم لأول مرة منذ خرجت من المستشفى قبل شهرين.

"لا يمكنه أن يعود على الدارجة النارية"، قالت الآنسة روشاني للحراس.

"هذا ليس عملك، أيتها العاهرة"، قال لها الحارس المحبط، "كم رئيسٍ لدينا هنا؟"، تابع.

”أنا بخير“، قلت للآنسة روشاني بصوت لا يكاد مسموعاً وحاولت أن أهدئ الموقف. انفجرت باكية.

أحضروا المرسيدس السوداء. تقيأت على المقعد الخلفي في اللحظة التي صعدت فيها في السيارة مبرهناً العدالة الكونية للتأثيرات الجانبية للعلاج الكيميائي.

حوكمت للمرة الأخيرة بعد يومين. أعادوني إلى غرفة المستوصف بعد المحاكمة، وهناك كان محمد ينتظر عودتي. أخبرته أنني خسرت استئنافي الأخير.

لكن بعد يوم من ذلك انتصر آية الله منتظري؛ وقِّعت ورقة إطلاق سراحي الطبي، ووقع لاجوردي استقالته.

اغتيل أسد الله لاجوردي بعد نحو خمس عشرة سنة. لم يعرف أحد من المسؤول عن قتله، لكن الشيء الوحيد المؤكد: دُفنت معه عدد من أسرار عهده الشنيع الذي استمر خمس سنوات في ”إيفين“.

بعد أربع سنوات، خُلع آية الله منتظري من منصبه نائباً للقائد بسبب دفاعه الشديد عن حقوق السجناء السياسيين. عاش تحت الإقامة الجبرية خمس عشرة سنة حتى مات. بكى مئات الآلاف موته رغم المنع الرسمي.

خرجت من ”إيفين عشية“ رأس السنة عام 1984. أنزلوني عند الحديقة التي كان أهالي السجناء ينتظرون فيها لينادى بوقت زياراتهم. اقتربت مني إحدى الأمهات وأنا أحاول جاهداً أن أبقي ظهري مستقيماً.

”كيف الوضع في الداخل؟“، سألتني بصوت مرتجف.

”نحن بخير في الداخل“، قلت، وفجأة أدركت أنني لم أعد أنتمي إلى تلك الـ”نحن“.

حول الكتاب

نبذة

في العالم الصاخب الذي يلي الأحداث الكبيرة، يطلق الراوي «أكبر» سراح ذاكرته، فتروي الحياة التي اختبأت تحت عباءة المنتصر وتوارت خلف جدران الانكسار، الحياة التي تتكشّف على عتبة الموت.

يتحدّث الكتاب عن المرحلة التي تلت الثورة الإيرانية عام 1979، فينسج قصّة من حكايات الشخصيات التي تتشارك حجرة المحكومين بالإعدام المزدحمة في سجن إيفين السيئ السمعة في طهران.

يحكي «أكبر»، بصراحته المذهلة وطرافته اللاذعة، القصة التي تأخذ القارئ إلى ما وراء الصراعات السياسية المجرّدة، إلى تاريخ بديل مفعم بالحياة كتبه الخاسرون.

قصّة مؤثرة للغاية عن الصداقة الحميمة، والطرافة المؤلمة، والذاكرة المفعمة بالعاطفة.

قيل في الكتاب

*«كتاب لا ينسى»
الروائي إلياس خوري
*«سيغيّر فهمك للعالم»
الروائية كلير ميسود

عن المؤلف

بهروز قمري أستاذ تاريخ وعلم اجتماع ومدير «مركز دراسات جنوب آسيا والشرق الأوسط» في جامعة إلينوي في إربانا-شامبين الأميركية.